روايات

WALID SAIF

وليد سيف

التغريبة الفلسطينيّة

2 حكايا المخيّم

رواية

الأهلية

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر

كلمه مهمة

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير هذا الإنتاج المشترك بين قناتي (متميزون) و (د. حازم مسعود)للكتب النصية على توفير هذه الخدمة النوعية التي نطمح بأن تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات

فريق(متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قناة د (حازم مسعود)

إشترك بالقناة

التغريبة الفلسطينية

(٢)

حكايا المخيم

وليد سيف

إهداء

إلى كل الأبطال المعروفين والمجهولين والمنسيين

إلى كل القابضين على جمر القضية

إلى زهر البنفسج في ربيع بلادنا

إلى الأم التي تحتضن جذع شجرة زيتون قديمة كمن يحتضن حبيباً

يوشك أن يتخطفه الغزاة

إلى كل الشهداء الذين يصعدون من مراقدهم في كل ليلة ليضيئوا مصابيح الليل والحلم الفلسطيني

إلى كل حرّاس الذاكرة الفلسطينية التي تستعصي على الطمس والتهجير

إلى المخيم: مستودع الذاكرة وعنوان المأساة وحاضنة المقاومة.. المخيم الذي أعارني حكاياته وأعرته قلمي

إلى كل الوطن الممتد بين الماء والماء

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القيامة الآن!

(الطريق إلى الخيمة)

1

١٩٤٨

القائد أبو صالح من جديد.. بطل الثورة الفلسطينية الكبرى في الثلاثينيات، ثورة الريف الفلسطيني في المقام الأول.. القائد أبو صالح «ابن الغربيّة المقطعين» الذي بلغ أن يحكم هذه المنطقة بكبارها وصغارها.. ها هو يعود إلى سابق عهده وكأنه طائر العنقاء ينبعث من رماد النار التي اشتعلت الآن على نحو غير مسبوق.. فهي الآن ليست مجرد عمليات عسكرية خاطفة ضد سلطات الانتداب البريطاني، وإنما هي دفاع عن الوجود.. ولذلك أقبل المتطوعون عليه زرافات ووحدانا.. كل من يملك السلاح أو يقدر عليه.. ومن لا يملكه خرج بفأسه ليشارك في حفر الخنادق حول القرى ورفع الستائر الترابية والحجرية ليقاتل المجاهدون من ورائها.. ولم تتخلف النساء والصبيان عن المشاركة في هذه المهمة.. ومن بينهم أم أحمد وخضرة..

ولكن مشكلته الكبرى كانت في توفير السلاح لمن لا يملكه ويطالب به.. وكان أشدَّهم عليه أخوه حسن هذه المرّة.

- منين بدّي أدبّر لك بارودة؟ ما انت عارف الوضع.

قال حسن بإلحاح:

- انت القايد.. انت المسؤول هون.. لازم تدبّرني.

- يا خوي اللي أكبر مني ما طلعش في إيده مع اللجنة العسكرية.. عبد القادر الحسيني وحسن وسلامة..

ثم أخذ يردّد العبارات المشؤومة التي سوف تستوطنِ الذاكرة الفلسطينية المثقلة بالمرارة وخيبات الأمل، نقلاً عن المسؤولين العرب، مقلّداً لهجاتهم:

- ما كو سلاح عيني عبدالقادر.

أخي أنا شو بطلع بإيدي.. الجود بالموجود.

أعمل إيه أنا، أجيب منين..

صاح حسن:

- طيب شِرا.. فيه ناس بتبيع..

قاطعه مسعود:

- وحتى لو لقينا حد ببيع.. منين بدنا نجيب حقها.

صاح حسن منفعلاً من جديد في وجه مسعود:

- ينعل أبو المصاري. البلاد كلها في خطر وانت..

قاطعه مسعود:

- وأنا إيش؟ أنا برضه بقول يلعن أبو المصاري.. بس لما يكون معنا مصاري.

قال حسن دون أن يأبه بمشاعر أخيه أو يراعي سنّه:

- البركة في جيزتك اللي شلحتنا من المصاري.

أطرق مسعود كسيفاً، بينما أخذ حسن يدور منفعلاً وقد تعالى صوته وتصاعد غضبه:

- يعني إيش.. أقعد مع النسوان لحتى يصل اليهود ويذبحوا أهلنا قدامنا زي النعاج؟ والله أعلم شو بعملوا قبل ما..

قاطعه أحمد منتهراً بشدة:

- بسّ.

سمع صوت بكاء الطفلة الوليدة ابنة أحمد وفتحية الجديدة، من الغرفة المجاورة، وبرزت أم أحمد من الداخل وهتفت به مؤنبة:

- شو هالصياح.. فيه مرا نفاس جوّه.. لا تقطعوا قلبها، بعدين بنشف حليبها.

صاح حسن مخاطباً أخاه أحمد:

- ما هوه بالمليحة بالعاطلة بدّي سلاح.. فيه ختايرة عجايز معهم سلاح خذ منهم وأعطيني. أنا أقوى وأوْلى.

- مين مستعد يتنازل لك عن سلاحه ولو كان عمره ثمانين سنة.. هوه أنت لحالك اللي عندك دين ووطنية؟

- ما هوه منشان الدين والوطن تبعنا وتبعهم أنا بعمل بالسلاح أكثر منهم.

قال أحمد:

- روح قول لواحد منهم هذا الحكي.

قال حسن وقد نفد صبره:

- طيب والله العظيم بكَسْر الهاء إذا ما دبرت سلاح لأطلع على أقرب مستعمرة يهودية بسكين.. بفاس.. يا بخطف سلاح واحد منهم أو بموت.. عاد شوفوا رايكم.

فجأة تنبهت ملامح أحمد، وقال:

- ليش ما خطر هذا على بالنا؟

نظر إليه حسن متفحصاً وسأل:

- إيش؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت خضرة:

- بارودة العبد؟ يا خوي اطلب عينيّة.. بس بارودة العبد ما بفرّط فيها.. هذي ريحته!

انفلتت منها العبارة الأخيرة دون تدبّر، فاكتسى وجهها بالحمرة وملامح الخجل. ولحُسْن حظها أن زوجها جابر المحمود لم يكن حاضراً حين جاءها أحمد وحسن على عجل لذلك الغرض. وانحدرت دمعة من عينيها. وقال أحمد برقّة:

- مين قال بدك تفرطي فيها؟ بتفرطي فيها إذا ظلت مخبّية ومعطّلة.. البارودة ياختي مش للزينة.. وريحة العبد هي ريحة البارود اللي بطلع منها.. أحسن شيء ممكن

تعمليه لذكرى العبد إنك تعطي بارودته للي بدّه يجاهد فيها، زيّ ما جاهد فيها العبد، وزي اللي كان ممكن يعمل فيها العبد لو الله طوّل بعمره.

ردّت باكيةً:

- ورشدي الي ما شاف أبوه هذي البارودة ورثته.. ريحة أبوه.

قال أحمد:

- وشو بدّه يعمل فيها رشدي وهو بعده ولد؟ يصمدها في البيت زينة والا بكره يبيعها ويشتري بحقها دخان؟

اهتزت ملامح خضرة استنكاراً:

- تايجاهد فيها زي أبوه.

- هسّع وقت الجهاد يا خضرة.. بعدين شو هالفال العاطل يا بنت الحلال؟ هو رشدي بده يكبر وبلادنا بعده فيها يهود وقتال؟ إن شا الله ما نشوف هذاك اليوم.. يالّلا يا اختي، قومي هاتي البارودة الله يرضى عليك.. ترى أخوك حلف يدبّ عالموت ببارودة ولا بدون بارودة..

تدخّل حسن قائلاً:

- وعهد الله عليّ ياختي أحفظ البارودة لابنك رشدي إيش ما صار.

حين فتحت الصندوق الذي كانت تخفي فيه البندقية، ارتدّت خطوة وضربت على صدرها:

- البارودة مش هون.

صاح أحمد:

- شو يعني مش هون.. لا تكوني نسيتي وين حطيتيها؟

قالت متفجعة:

- طول عمرها هون.. كل يومين ثلاثة بطلعها وبمسحها بإيدي..

ثم تغيرت ملامح وجهها فجأة وشردت بنظرتها:

- هوّه.. ما فيه غيره!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أدركه أبو صالح مع حسن وخضرة وهو واقف بين بعض الرجال. ولم يتأخر جابر المحمود، زوج خضرة، في الاعتراف أنه باع البندقية لنمر الحسن، الدلّال، بينما كان أبو صالح يمسك بتلابيبه ويهزّه هزاً عنيفاً. وضعت خضرة يدها على رأسها تفجعاً:

- بعتها؟ يا وَرَدي..

وصاح به أبو صالح:

- بعتها يا قليل الدين، يا ساقط.. مين ببيع بارودته هالأيام حتى يبيع بارودة مش إله.. ولمين، للدلّال؟ يعني ما بعتها لواحد بدّه يجاهد فيها.. تجارة.. هات المصاري اللي بعتها فيها قبل ما أدفنك هون.. يا لّلا!

أخرج خمسين جنيها من جيبه. وقال أحمد متوعدا قبل أن يغادر بحثا عن الدلال الذي اشترى البندقية:

- حسابك عندي بعدين يا جابر المحمود.

بينما كان أبو صالح وأخوه حسن يمشيان بسرعة حتى الهرولة بحثاً عن الدلّال نمر الحسن، كانت الأرض القديمة تحدوهما بزجل يواكب روحيهما وأقدامها:

بارودته بيد الدلّال رأيتها

لا عاش قلبي، ليش ما شتريتها

بارودته لقطت صدى عَ قْرابْها

لقطت صدى واستوحشت لصحابها

ولكن صوت الأرض الملتاع لم يكن ليصل إلى سمع الدلّال وقلبه الذي يحجبه الطمع عن نداء الأرض.

- يا خوي البيع حصل. وإذا كانت البارودة مش ملك جابر المحمود زي ما بتقول، شو ذنبي أنا.. أنا حطيت فيها..

أخرج أحمد له الثمن الذي استرجعه من جابر المحمود ولكنه أبى تَسَلّمه:

- وأنا شو ربحي يا أبو صالح.. أنا انعرض عليّ سبعين ليرة وما رضيت.

أطرق أبو صالح لحظة، وأخذ حسن ينظر إليه. ثم رفع أبو صالح رأسه ونظر في عيني الدلّال وقال:

- لا تسأل شو ربحك. اسأل شو خسارتك يا قليل الدين والمروءة.

وفجأة سحب أقسام بندقيته ووجّهها له:

- بارودة العبد.. الشهيد.. أو رصاص بارودتي في بطنك.. اختار!

لم يسع نمر الحسن إلا أن يردّ البندقية وقد رأى تصميم «أبو صالح». وقذف له أبو صالح ماله في وجهه، ومضى راجعاً مع حسن، الذي كان يضج فرحاً، وسأل أخاه:

- فعلاً بقيت بدك تطخه لو ما رجعها؟

آثر أحمد الصمت، دون أن تنبئ ملامح وجهه عن شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع اقتراب الموعد الذي حددته بريطانيا لإنهاء الانتداب والانسحاب من فلسطين، ازدادت حدة المعارك والمواجهات في جميع أنحاء البلاد. بينما وقفت سلطات الانتداب التي تعهّدت بحفظ الأمن حتى موعد انسحابها مكتوفة الأيدي أمام الجرائم الصهيونية وعمليات التطهير والتهجير القسريّ. كان شهر إبريل/نيسان من عام ١٩٤٨ شهر الحسرات والموت والفواجع. فقد شهد أولاً استشهاد القائد الكبير عبدالقادر الحسيني في معركة القسطل اليائسة، ثم مجزرة قرية دير ياسين غربيّ القدس التي نفذتها عصابتا شيرن وأرغون الصهيونيتان، وذهب ضحيتها مئات من المدنيين رجالاً ونساءً وأطفالاً، وأحدثت موجة من الذعر والهلع عبر البلاد، وأسهمت في دفع الكثيرين إلى مغادرة قراهم بحثاً عن الأمان حتى تزول الغمّة التي

ما زال البعض يعتقد أنها حالة مؤقتة. وأخيرا في الشهر نفسه سقطت واسطة العقد: حيفا.

الكابوس العظيم يلقي بظله المعتم على صدور الجميع. وقريباً تصل العصابات الصهيونية المدججة بالسلاح الثقيل إلى كل قرى حيفا، وقد فرغت لها وأخذت تسقط تباعاً على الرغم من المقاومة اليائسة والباسلة معاً. وهل تستطيع اليد العارية أن تلاطم مخرزاً! في الواقع المشهود، الجواب «لا»، كما يعتقد مسعود وكثيرون مثله. أما عند أبو صالح وحسن فليست هذه العبارة الشائعة إلا ستاراً للجبن والفرار من المواجهة. ومن قال إن المقاومة مشروطة بموازين القوة الحاضرة أو يقين الغلبة هنا والآن؟ إنما هي مشروطة بيقين الحق.. ومعاني الشرف والكرامة والصمود حتى آخر رصاصة، أو هي الشهادة. أليس هذا ما فعله القائد الشهيد عبدالقادر الحسيني، قائد منظمة الجهاد المقدس، بعد أن يئس من تلقي العون والسلاح من الجامعة العربية، فكتب مذكرة لأمينها العام يقول فيها: «إني أحمّلكم المسؤولية بعد أن تركتم جنودي في أوج انتصاراتهم بدون عون أو سلاح». ثم عاد ليقود جنوده في الدفاع عن القسطل بالقرب من القدس وهو موقن بالشهادة. فلينْفَذ المخرز في القلب لا في اليد العارية فقط. فالوطن يستحق ذلك. ولا أقل من أن تعذر إلى ربك ووطنك وشعبك ونفسك، ومن أن تجعل هدف عدوّك أكثر كلفة وصعوبة، فتُنزل به أكثر ما تقدر عليه من الخسائر، وتحاول الصمود ما وسعك ذلك حتى تأتي الجيوش العربية الموعودة بعد انسحاب سلطة الانتداب البريطاني من فلسطين في الخامس عشر من أيار.

ذلك كان حال أبي صالح وحسن وهما يتنقلان بين الخنادق والسواتر الترابية والحجرية حول القرية، ولا يصيبان من النوم إلا قليلاً. على أن موقف مسعود لم يؤخره عن المشاركة في حفر الخنادق ورفع السواتر بنشاط هائل، والعمل على توفير المؤن للمجاهدين المرابطين على ثغور القرية، يقودهم أبو صالح، ويعينه عايد في القيادة وتوزيع المهمات.

أما عليّ فهو يغبط إخوته الثلاثة: «أبو صالح» وحسن على طرف، ومسعود على الطرف الآخر. فكل من الطرفين يعرف جوابه وإن اختلف مع الآخر. أما هو فيتأرجح بين الجوابين: بين فظاظة الواقع كما يراه مسعود والذي لا يمكن إنكاره، وسموّ المبدأ كما يراه أبو صالح وحسن والذي لا يمكن دفعه. وبين هذا وذاك يجد نفسه هائماً في وديان التيه، ويمتلئ رأسه بطنين الأسئلة الموجعة، ويهيمن عليه ذلك الشعور الطاغي بالعجز. روحه مع أخويه في الخنادق، وجسمه مع النساء في البيت. ولا ثَمّ إلا الخوف على مصير الجميع!

أين هو الآن من أخيه حسن الذي كان يقاسمه أحلام الطفولة وأوهامها وأنفاس الجليل وشعبة الصيد وحراسة البيدر؟ لقد فاز دونه بالدراسة في المدينة والدفاتر والكتب والرطانة بالإنكليزية، وها هو حسن يفوز دونه بالبندقية!

أين المهدي المنتظر؟ إن لم يكن هذا وقت ظهوره فمتى يكون؟ فقد سُدَّت الأبواب وتقطّعت السبل وامتلأت الأرض جوراً، وضاقت الأرض بما رحبت على أصحابها وضاقت عليهم أنفسهم! ولكن المهدي لم يظهر! وبدلاً منه، ظهرت طلائع الهاغاناه!

وبينما كانت أسرة الشيخ يونس تنصت كغيرها إلى أصوات الاشتباكات قادمة من تخوم القرية، كانت فتحية تضم وليدتها «عائشة» ذات الشهرين وتهزّها، وقد توزّعت مشاعرها بين الخوف على زوجها الذي يقاتل هناك الآن، وعلى مصير الأسرة كلها إذا تمكن العدو من اقتحام القرية، ومصير أهلها الذين لا تعرف ما الذي صاروا إليه وقد سقطت حيفا. وكان صالح وصلاح ابنا أحمد يلتصقان بعمّهما عليّ وهما يرتجفان. أما لطيفة زوجة مسعود فكانت أكثرهم رعباً، أو تعبيراً عن رعبها، وكانت تردد السؤال: «شو بدّوا يصير بينا»، حتى نهرها مسعود بصوت مدوٍّ أن تطبق فمها وهَمّ أن يصفعها لولا تدخّل أمه. وما همّه لو صفعها الآن دون أن يحسب حساباً لأبيها الذي لا يملك الآن نفعاً ولا ضرًّا أمام الخطر الذي يحيط بالجميع. وكان مسعود يتردد بين داخل البيت وخارجه ينظر وينصت ويترقب. أما أبو أحمد، فلبث جالساً على «قصّة» البيت صامتاً شارداً لا يتوقف عن التدخين.

أما أم أحمد فظهرت أكثرهم تماسكاً ورباطة جأش، وإن كانت تطوي داخلها على نار مشتعلة تستعين عليها بالدعاء المتّصل. وقد استمدّ الجميع من ثباتها وتسليمها لله بعض الصبر، فكانت على عادتها السنديانة التي تفيء إليها الأسرة في ملمّاتها. وإذ كان كل منهم منشغلاً بأفكاره ومخاوفه وكوابيسه، لم يتنبه غيرها إلى رشدي، ابن خضرة، وهو يجلس شارداً في ركن الغرفة. لم يكن يرتجف كغيره من الصبيان والنساء، ولم يكن ليهتز كلما اشتدت أصوات الاشتباكات، ولكن ملامح وجهه كانت ترشح بما أدركته جدّته أكثر من غيرها. ها هو ينتظر مع أسرة جدّيه وأخواله ما تأتي به الساعات القادمة بعيداً عن أمّه التي فُصِل عنها كرهاً. الحاجة والحنين إلى أمّه يتقدّمان على الخوف في تلك الساعة. نظرت أم أحمد إليه بتمعّن وعطف شديد. فنزلت جالسة إلى جواره وأحاطته بذراعها وشدّته إليها. وانزلقت دمعة صامتة من عينيه، ووجد نفسه يطوّق جدته بذراعيه ويدفن رأسه في صدرها.

"كنا ندرك أن القرية لا يمكن أن تصمد طويلاً بعد سقوط حيفا والكثير من قراها. ولكن.. أن تذهب فلسطين؟ هذا هو الاحتمال الفاجع الذي لم نكن نجرؤ على مواجهته حتى وقت قريب.

كنت أخطط، قبل ذلك، لحياتي ومستقبلي كأي شاب في مثل حالي في أي مكان تحت الشمس. وكنت أنظر إلى أخي حسن نظرةً ممزوجة بالإشفاق. الآن، أراني أغبطه، وأجد قامته تطول بقدر ما أرى قامتي تقصر. إنه يعرف ما يحدث هناك.. لأنه هناك! ليس عليه أن ينتظر ويترقب كما أنتظر وأترقّب.. ليس عليه أن يفسّر الأصوات القادمة من بعيد.. من موقع المواجهات، وأن يحبس أنفاسه حينما يتوقف دوي الرصاص متردداً بين التلهف على بشير يأتي من هناك، أو نذير يقتحم عبء الانتظار الطويل. حدود القرية.. إنها تفصل الآن بين زمنين!".

مذكرات علي الشيخ يونس

توقفت الاشتباكات بعد ساعات. وساد صمت الترقب الثقيل. وما هي حتى عاد مسعود الذي خرج مستطلعاً. وتلقاه الجميع متلهفين:

- انسحبوا.. لعنة الله عليهم.

وقبل أن يتجرأوا على تنفس الصعداء، ولو مؤقتاً، أردف:

- عرفت أوصل لأبو صالح وحسن.. الحمد لله بخير.. بس..

«ملعون أبو بسّ هذي» التي لا يلحق بها إلا الخبر السيء!

نقل لهم عن أخيه أبو صالح أن ذلك الاشتباك لم يكن إلا مناوشة مدروسة من العدو، غرضها كشف قوة الدفاع وأعداد المجاهدين وسلاحهم، والمناطق الأضعف في طوق المقاومة كي يجري التركيز عليها في الهجوم الرئيس القادم. وإلى جانب ذلك كلّه، فإن المقاومة في يافا ما تزال مستمرة، والتركيز الأعظم عليها الآن، كما أن خطتهم تقضي بأن يقدِّموا اقتحام القرى ذات المقاومة الأضعف، فإذا فرغوا من إحداها صار بوسعهم تجميع قواتهم للضغط على القرية التالية، فيكون وضعهم الهجومي والعسكري أقوى، وخسائرهم أقل.

أطرق لحظة، ثم قال:

- لازم نحضِّر حالنا لكل الاحتمالات.. هاي المختار طلع من البلد مع عيلته امبارح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

فوجئ أبو عايد بمسعود يطرق عليه الباب، وإذ دخل مدّ له يده بورقة. نقل أبو عايد نظره بين الورقة ومسعود مستطلعاً، فقال:

- صك بيع الأرض تبعتنا إلك، بَصَم عليها شهود وختمها المختار قبل ما يمشي.

بدت الدهشة على وجه أبي عايد قبل أن يقول مستنكراً:

- هسّع! هسّع بدك إياني أشتري أرضكم؟ شو شايفني؟ سنين وأنا بعرض عليكم وبترفضوا.. ولمّا..

قاطعه مسعود:

- صبرك يا عمّي.. فهمتني غلط.

وشرح له أنه صك بيع صوري فقط، ولا يريد منه ثمناً. كل ما في الأمر أنه لا أحد يعرف ما الذي تأتي به الأيام القادمة. فإذا تمكن العدو من اقتحام البلد فسيكون على الجميع أن يغادرها. ولا أحد يدري مصيره. فإذا كتب الله السلامة للجميع وعادوا إلى البلد مزّق الصك أو أعاده إلى صاحب الأرض. وإن لم يتمكن البائع من العودة لأي سبب، وكتب الله العودة لحامل الصك، فالأرض حلال زلال عليه بلا ثمن بدلاً من أن تظلّ بلا صاحب، فيضع اليهود أيديهم عليها إذا انتصروا - لا قدّر الله- وحكموا البلاد.

وختم بالقول:

- زي ما قلت يا أبو عايد.. إحنا رفضنا نبيعك أرضنا وإحنا بحاجة للقرش.. بس هسّع ما عاد موضوع أرضي وأرضك.. وحقي وحقك.. هذي قضية وطن وأرض الوطن.

أطرق أبو عايد ساهماً دون أن يتناول الصك، ثم عاد يتفحّص وجه مسعود بنظرة تشكك:

- بتتوقع مني إني أكتب إلكم أرضي بنفس الطريقة ما دام هذا هوه الغرض؟ بس أرضي أضعاف أضعاف..

قاطعه مسعود متبرماً وقال:

- ما بتوقّع منك شي يا أبو عايد.. كل واحد بعمل اللي بشوفه صحيح..

ترك مسعود الصك على منضدة صغيرة.. وخرج.

لم يكن قد قطع نصف الطريق عائداً إلى بيته حتى أدركه أحد أبناء «أبو عايد» يطلب منه أن يعود ليكتب له أبوه صكاً كالذي كتبه له، على أن يكتب له إقراراً آخر بأن صك البيع صوريّ فقط ولا قيمة له، ليكون له بمثابة الضمان إذا بقي الناس في ديارهم، أو عادوا جميعاً إليها في وقت ما يُرجى ألا يطول، أو هُزِم الصهاينة في نهاية المطاف على أيدي الجيوش العربية الموعودة، التي يُرجىَ أن يكون حظ الناس منها أكثر من حظهم في ظهور المهدي.. حتى الآن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في استراحة المحارب، إذ قام أبو صالح بزيارة سريعة لأسرته، حاول جهده ألا يبدو في تصرفاته ما يشي بأنه جاء لوداع قد يكون الأخير. وآثر ألا يتحدث هذه المرّة عن الوضع العسكري والتوقعات، ولم تلح عليه الأسرة. اغتسل على عجل وتناول قطعة خبز وبعض حبات الزيتون. ولكنه قبل أن يخرج عائداً لم يستطع إلا أن يحتضن أبويه بحرارة، وأطالت أم أحمد احتضانه حتى اضطر إلى التفلّت منها. ودارت دمعتها.

- روح يمّه الله يرضى عليك.

أما أبوه فقال بصوت مختنق:

- حسن.. بدّي أشوف أخوك قبل..

ولم يتم العبارة. وهزّ أبو صالح رأسه.

وقف عند ولديه صالح وصلاح وضمّهما إليه. وهمس لهما:

- الوطن عزيز يابا.. اتذكروا هالحكي.. ما بفرّط فيه إلا النذل. والحق ما بضيع ما دام أصحابه بطالبوا فيه.. حكيت لكم عن الصليبيين وصلاح الدين.. اتذكروا دايماً هذا الحكي..

ثم استقام واقفاً ونظر في عيني فتحية نظرة عميقة مشبعة بالمحبة، نابت عن الكلمات التي لا يُحسنها، أو يحجبها الحياء المقيم في روحه الريفية. ولكنه حمل نفسه على مسح دموعها المنزلقة على خديها.. ولم يجد أخيراً إلا أن يهمس لها بصوت خفيض لا يسمعه غيرها:

- الحمد لله اللي أعطاني إياكِ. الله يرضى عليك.

في تلك اللحظة غابت الفروق بين لهجة المدينةِ ولهجة القرية.. بين صخب حيفا ونزهات البحر والكرمل ودور السينما التي تُعلِّم الفساد وأغاني المذياع التي تبث الميوعة، وبين هدوء القرية وهمسات العشب وتشابه الأيام وكدّ الفلاحين وأهازيج الحصّادين وزهور النرجس البريّ ورائحة دخان الطوابين.. غاب ذلك كلّه ولا ثمة إلّا رجل شهم محارب ذو قلب شجاع، وزوجة طيبة محبة متفانية تدور مع أسرتها أنّى دارت.

وأخيراً عانق أخويه مسعود وعليّ، وربت أولاً على كتف عليّ وقال:

- خليك دائماً رافع راسنا.

ثم ضرب على ذراع مسعود، ولأول مرة يتناسى ما كان يدور بينهما من جدال حول المصائر، وقال:

- من اليوم انت القائد هون.. والعيلة أمانتك.. وأنا واثق إنك رايح تتصرّف التصرف الصحيح حسب الظروف الجاية!

وانطلق مسرعاً.. ولحقه صوت أبيه المتهدّج الذي يغالب البكاء:

- حسن يابا.. بدّي أشوف حسن.

حين صار أبو صالح على بُعد أمتار من البيت توقف واستدار، وألقى عليه نظرة أخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حاول حسن أن يقاوم طلب أخيه أن يغادر موقعه، ويسرع إلى البيت في زيارة خاطفة حسب رغبة أبيه الملحّة. فماذا لو وصلت قوات العدو في ذلك الوقت؟ ولكن «أبو صالح» أصرّ عليه بنبرة صارمة آمرة، فلم يجد إلا الامتثال على مضض. وأسرع مهرولاً.

لم يكن بينه وبين البيت إلا نحو ثلاثين متراً حين أعلن الهجوم المترقّب عن نفسه بكل فظاظة القوة القاهرة.. دويٌّ بنادق ورشاشات ومدافع مورتر ومدافع هاون وقنابل وقذائف.. وهذه المرة، لم تكن أهدافها تقف عند طوق المقاومة المحيطة بالقرية، وإنما تتعداها أيضاً إلى القرية نفسها التي ارتجّت بها وجاوبها صراخ الناس ودويّ التهليل والتكبير المفعم بالرعب.. القيامة الآن!

دار حسن في مكانه مصعوقاً يقلّب بصره بين بيته وبين الجهات المختلفة وطريق العودة إلى مواقع الدفاع. ثم انطلق راكضاً بأقصى سرعته لينضم إلى أخيه وسائر المجاهدين.

دخان وغبار وحرائق وبيوت مهدّمة، ومعها مئذنة المسجد القصيرة، وقذائف متوالية تسقط في قلب القرية وأطرافها.. وصرعى وجرحى.. وصيحات الهلع والتفجّع والنداءات المتبادلة تختلط في الأجواء مع القصف المتواصل.

آن أوان الرحيل إلى منطقة آمنة قبل الفوات لمن لم يرتحل بعد، وآثر البقاء حتى آخر لحظة على أمل حدوث معجزة ما! وتولّى مسعود قيادة أسرته وترتيب الخروج، وأخذ يحث الجميع على التعجّل. ولما رأى والده متلكئاً تائه النظرات، كأنه لا يعي ما يدور حوله، هتف به مستعجلاً إياه. فسأل أبو أحمد وهو يرسل نظره في الفراغ:

- طب انتو عارفين لوين بدنا نروح؟

- يابا المهم نبعد عن القصف، من الطريق الأسلم.

ذكر القصف، وتجنب عمداً أن يذكر اقتحام القرية وما يمكن أن يفضي إليه ذلك من القتل كما حدث في دير ياسين. وردّ أبو أحمد:

- وين الطريق الأسلم؟ إحنا عارفين وين بنلاقي اليهود قدامنا.. ما همه بطوْقوا البلد من كل الجهات.

أجاب مسعود مضطراً للإفصاح هذه المرة:

- يابا مزبوط ما بنعرف شو بنلاقي قدامنا.. بس بنعرف مؤكد شو رايحين نلاقي إذا تأخرنا ودخل اليهود علينا.

هنا فوجئ مسعود بوالده يقول:

- طب اطلعوا أنتوا بالنسوان والأولاد. أنا قاعد محلّي.. أنا زلمة كبير وما فيّ طاقة على المشي والبهدلة.. يا ناس.. يا عالم.. إلي ولدين هناك بحاربوا وما بعرف شو صار فيهم والا إيش رايح يصير فيهم.. يا بطلع معهم، يا..

لم يتم العبارة إذ خذله صوته المختنق.. وتدخلت أم أحمد التي لم تكن أقل منه قلقاً على ولديها، ولكنها أقدر منه على الصبر ورباطة الجأش:

- يا ابن الحلال، هذا كله حكينا فيه قبل. كلنا هسّع في إيد الرحمن، وما بنعرف شو بصير فينا وفيهم، يا ربّ السلامة. بس إذا الله أراد بنلاقي بعض. مش هيك كان الحكي مع أبو صالح؟

أكمل مسعود عنها:

- القصد يابا.. المجاهدين راح ينسحبوا عند الضرورة.. وبعدها.. اللي الله كاتب له عمر بلاقي الثاني.. المهم هسّع النسوان والأولاد.

ما إن أنهى عبارته حتى ارتجّ البيت بفعل قذيفة قريبة. ثم استأنف مسعود:

- مؤقت يابا.. ظرف مؤقت.. إن شا الله ما بتطول غيبتنا.. يالّلا يابا.. يالّلا.. دخيلك. وإذا أصرّيت، كلنا بنقعد معك وخلّي اللي بدّه يصير يصير..

صرخت لطيفة مولولة وهي تضرب على رأسها:

- ويصير فينا زي ما صار في الناس في دير ياسين؟ وأهلي..

وضعت أم أحمد يدها على فم لطيفة تسكتها، بينما صاح بها مسعود:

- ولك ضبي لسانك هسع.. هو في حدّ صاحي على حدّ.. تلاقي أهلك صاروا برّه البلد هسّع.. وعايد بقاتل مع أبو صالح وحسن.

حين أغلقت أم أحمد باب البيت الخارجي، وضعت المفتاح في عبّها.. وعلى الرغم من ضرورات العجلة والخوف والقصف المتواصل، وضعت يدها على الباب تحصن البيت برقية قصيرة تحفظها..

أما أبو أحمد، فحين رأى الصُّرر الممتلئة بالحاجيات، علّق قائلاً:

- وليش كل هالأغراض؟ هوه قدّيش بدنا نغيب؟

بين الدخان والغبار وألسنة اللهب التي تتصاعد من بعض البيوت كان الناس يتراكضون في كل اتجاه، يحملون صغارهم ويجرّونهم.. ويرتمون على الأرض كلما سقطت قذيفة على مسافة منهم.. وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، لا يكاد أحدهم يرى الآخر.. ثمّة رجل يحمل أمه العجوز على ظهره وينوء بها.. وجرحى يتحاملون على أنفسهم.. وامرأة عاكفة على زوجها المطروح على الأرض وقد أصابته إحدى الشظايا. وهي تولول وتبكي، ويمر بها الناس ولا يرونها.. حتى هرع إليها بعض من تغلبت قيمة الشهامة عندهم على غريزة البقاء.

شقت أسرة الشيخ يونس طريقها في وسط هذا الجحيم.. فتحيّة تحمل وليدتها عائشة.. مسعود يجرّ صالح، وعليّ يجرّ صلاح ثم يحمله. ورشدي ملتصق بجدته. وفجأة تناهى إليهم في وسط الجلبة والضجيج والتدافع صوت خضرة مجروحاً ينادي رشدي.. وكان زوجها جابر المحمود وراءها يدعوها للتوقف والرجوع إليه. ولكنها لم تكن لترى في تلك اللحظة غير ولدها الذي حُرِمت منه، إلى جانب أهلها.. وكان خمارها قد سقط عن شعرها دون أن تأبه به.

انفلت رشدي من يد جدته واندفع نحو أمّه التي كانت تركض نحوه من طرفها. وصاح به مسعود أن يتوقف وركض وراءه مضطراً إلى إفلات يد صالح، بينما كانت أفواج من الفارّين تتدافع في طريقها ويتصادمون ويفرِّق بعضهم بعضاً يميناً وشمالاً. وفي هذه اللحظة دوّى المكان بصوت قذيفة سقطت في المسافة بين رشدي

وأمّه، وثارت عاصفة من التراب والحصى والدخان، أعمت الأبصار، ونصبت حائطاً من الموت بين الجانبين.. مزيد من الصراخ والفزع والتدافع المجنون وبعض الضحايا والجرحى، بينما كان مسعود الذي أدرك رشدي في اللحظة الأخيرة منطرحاً على ابن أخته بجسمه، قبل أن يبدأ بسحبه والتراجع به وسط الدخان والغبار. وكذلك فعل جابر المحمود بخضرة من جانبه. وأعقب الانفجار صليات متواصلة من رشاش منصوب على إحدى التلال المشرفة على القرية، جعلت محاولة خضرة الوصول إلى ولدها وأهلها من جديد مجازفة يائسة. وبينما كانت تلطم وجهها جذبها جابر المحمود بشدة، وأقسم لها أنه استطاع أن يرى مسعود يعود بولدها سليماً ويتوارى به مع سائر الأسرة وراء سلسلة حجرية، وأن عليهما أن يسرعا في الابتعاد عن القرية، وكانت خطته الوصول إلى قرية أم الفحم حيث يقيم بعض أقاربه. وعلى الرغم من فداحة الموقف، لم ينسَ أن يرفع خرقتها على شعرها ويقول بلهجة آمرة:

- ضبّي شعرك.

حين صارت الأسرة خارج القرية بعيداً عن مرمى النار، صرخت فتحية فجأة:

- صالح.. وين صالح؟

لأول مرة تتنبه الأسرة إلى أن صالح لم يعد بينهم!

لا بدّ أن تدافع الناس والفوضى مع سقوط القذيفة وصليات النار وانشغال مسعود برشدي قد فرّقه عن سائر أسرته التي أذهلها الموقف المفزع عن نفسها.

تولّى عليّ مهمة البحث عنه. وكلما مرّ بفوج من الفارين وصفه لهم وسأل إن كانوا قد شاهدوا صبياً في السابعة من عمره تائهاً وحده. وطفق عليّ ينتقل من مكان إلى آخر بقلب فارغ.

وصادف بعض المجاهدين الذين اضطروا إلى الانسحاب بعد انهيار دفاعاتهم في جنوب البلد مع تقدّم مصفحتين للعدو من تلك الجهة. وقد حيل بينهم وبين الانتقال إلى موقع الدفاع الذي يقوده أبو صالح غربيّ البلد، بينما تسيطر قوات العدو على القرية من التلّة الشرقية. وقد نفد العتاد على كل حال. واستشهد من استشهد. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كان الكلام يصل إلى سمعه كأنه الصدى القادم من وديان التيه، وبدا العالم من حوله كالحاً متموجاً تتداخل صوره وتتباعد ولا تستقر على حال، والأرض تسيخ من تحت قدميه. وأدركه ما يدرك النائم الذي يفتح عينيه على فراغ عدميّ يَضِلّ فيه عن نفسه للحظة قصيرة فلا يدري أين هو، ومن هو! فكان عليه أن يعتصر رأسه ويمنع عقله من الفرار مع الفارّين، وأن يرتّب في ذهنه أولويات يسابق بعضها بعضاً.. مصائر صالح وأبو صالح وحسن وخضرة على خلفية الجحيم العام الذي يحيط بمصائر البلاد، ولكن المهمة الوحيدة التي يستطيعها الآن هي البحث عن صالح الذي ترك أمه من خلفه حطاماً دونه يقين الموت. حتى لطيفة زوجة مسعود التي لم تكن تحمل لها أي مودّة قبل الآن، وجدت نفسها تشاركها البكاء والدعاء وتربت عليها وتحيطها بذراعها وتواسيها!

لا أثر لصالح..

ووجد عليّ نفسه يقترب من حدود القرية بينما لم يتوقف إطلاق النار، حتى سمع من يصيح به:

- وين يا أستاذ عليّ.. اليهود خشّوا البلد.. اللي نفد نفد واللي توخر وقع في المصيدة.. ارجع يا خوي ارجع.

كان واحداً من أواخر الفارّين مع عائلته.

ولكن عليّ تابع السير حتى وصل إلى سلسلة حجرية، ثم صعقه ما رأى على بُعد مسافة منها.. امرأة تستلقي على الأرض مضرجة بدمائها، وطفل في نحو الثانية من عمره مُنكَبٌّ على صدرها ويبكي بكاءً متقطعاً.

تجمّدت عيناه على المنظر لا يدري ما يفعل.. وفي لحظة ما التفت إليه الطفل والتقت عيناهما، لكأن الطفل يدعوه إلى نجدته! قبل أن يعود فيضع رأسه على صدر أمه ويعبث بشعرها ويتابع البكاء بلا صراخ. هَمّ عليّ أن يتسلق السلسلة وهو لا يعي تماماً ما الذي يجب أن يفعل، حين سمع أصواتاً تقترب، ثم رأى ثلاثة من جنود الهاغاناه يقفزون عن سلسلة أخرى، فارتدّ مسرعاً يتوارى عنهم خلف السلسلة الأولى. وسمعهم يرطنون بالعبرية، فيما بدا أنهم صاروا عند موضع المرأة وطفلها. هَمّ أن يرفع رأسه قليلاً ليرى ما يحدث، ولكنه ارتد من فوره إذ سمع صوت عيار ناريّ. وتوقف الطفل عن البكاء. بقي عليّ في مكانه يرتجف حتى سمع وقع أقدامهم تبتعد. وساد الصمت، عندئذ تحامل على نفسه ونظر..

لن يفارقه منظر الطفل القتيل الذي ألحقوه بأمّه، أبداً. ولن يلاحقه في كوابيسه فقط، ولا في ذكرياته السوداء فقط.. وإنما الأشدّ من ذلك أن يطلع له أحياناً في مشاهد الزهو والبهجة والاحتفال بالحياة.. حين يلاعب أحد أطفاله.. أو يراه يتأهب للخروج إلى المدرسة، ويراه عائداً منها مزهواً بنتائجه.. أو يرى صبياناً يلعبون بالكرة ويتصايحون.. فيتمثل له ذلك الطفل الذي كان يمكن أن يكبر إلى عمر الصبيان الذين يراهم في تلك اللحظة.. ويدلّه عليه تلك النظرة المحيِّرة التي التفت إليه بها وهو على جثة أمه، سيبقى يلاحقه بتلك النظرة كلما عرض له طيفه فجأة وبلا ميعاد، في موقف ما من السرّاء أو الضرّاء، ومن الخوف أو الرجاء، شاهداً على مأساة شعبه، وعلى وحشية الغزاة، وعلى.. عجزه الشخصيّ!

كيف يمكن أن ينحط الإنسان، أي إنسان يستحق هذه الصفة، إلى ذلك الدرك المظلم من القسوة والتوحّش! كيف يمكن لمن يُذَكّر العالم في كل حين بأنه كان ضحية المحرقة النازية أن يعيد سيرة جلاّده، في أرض أخرى ومع شعب آخر. كعادته سوف يعمل عقله المشحون بالتواريخ والفلسفات والمعارف والشِّعر والآداب على توليد الأسئلة والتأملات الوجودية من التأملات. وربما داهمته فكرة عارضة على عجل، بأن قتلة ذلك الطفل، ربما.. ربما اختاروا له موتاً سريعاً ورحيماً بدلاً من موت بطيء محقق.. فينفض رأسه ويطرد الفكرة خشية أن يكون فيها ما يخفف من فظاعة الجريمة ولو بقدر شديد الضآلة، ليعود على نفسه بالمحاكمة وجَلْد الذات. فلعله بمثل هذه الفكرة يريد أن يواسي نفسه ويخفّف من أثر الموقف الموجع في أعماق روحه: لم يكن لذلك الطفل أمل في الحياة في ذلك الظرف على كل حال، فلعله قد لقي أهون الموتين! وما كان بوسعه أن ينقذه وقد جاء أولئك القتلة. ولكن ذلك الطفل الذي تواطأت عليه وحشية الجلاّد الغريب،

وخذلان القريب، وعجز الضحية المسلوب، لتحرمه من الوصول إلى المدرسة وصخب الفتيان في ملاعب الصبا، والوقوع في الغرام واختبار لوعاته ولذّاته وأوهامه وأحلامه وخيباته، ذلك الطفل سيبقى يرسل إليه تلك النظرة الغريبة بين الحين والحين.. إلى أن تعرّف على صبي آخر غريب الأطوار، وقف عمره عند سن معيّنة فلا يكبر أبداً، يقف وقد ضم يديه وراء ظهره، وأدار ظهره لعالم أدار ظهره عنه، فلا يرى أحد وجهه أبداً، بينما يرى هو وجوه الجميع في بلاد العرب وفي مشارق الأرض ومغاربها، ويخترق بنظره غرفهم المغلقة وينفذ إلى ضمائرهم، ويكشف عوراتهم، ويفضح خيباتهم ومفاسدهم، ويحاصرهم بالتهكم والسخرية والهجاء. وعرف أن اسمه «حنظلة».. صبي تبنّاه لاجئ آخر وفنان غاضب مكلوم، اسمه ناجي العلي. فخطر له أن ذلك الفنان ربّما شهد كالذي شهده، ولكنه كان أقدر منه على بعث الصبي القتيل ليكون الشاهد الشهيد، وليكون المقاتل الذي لم يكنه، والسلاح الذي لم يجده في زمن النكبة. وعلى الضد من عليّ الذي شهد مقتل ذلك الصبي، وعاش بعده، فإن «حنظلة» العليّ شهد مقتل والده ناجي، وبقي حياً بعده يمارس الهجاء والتحريض، ويتبول أحياناً على جدار الخزي والتفريط والخيانة!

كل ذلك في زمان قادم. أما في تلك اللحظة حين انصرف القتلة، فقد وضع عليّ رأسه بين كفّيه، وأخذ يهتز على غير إرادة، حتى غلبه النحيب. ولكن ليس لديه الآن فسحة من الوقت ليستوفي ما تستحقه الفاجعة من الرثاء والبكاء.. فصالح ما يزال مفقوداً.. وأمه والعائلة تنتظر المصائر المجهولة في ظُلّة قاتمة من الحزن والخوف، وفي بريّة تضيق عليهم مع كل ساعة على الرغم من انفتاحها. أين صالح، وما فعل الله بأبي صالح وحسن!

في تلك الأثناء لم يكن أمام «أبو صالح» إلا أن يأمر ببدء عملية الانسحاب لمن بقي معه من المجاهدين على وفق ترتيب مسبق، على أن يغطي بعضهم بعضاً في مجموعات متتابعة، ويكون أحمد وعايد آخر المنسحبين.

على الرغم من المضي في تبادل إطلاق النار، أبى حسن إلّا أن يودِّع أخاه، فألحّ عليه أحمد بالتعجّل، فالموقف لا يسمح بطقوس الوداع، على أن يبحث عن أهله وينضمّ إليهم في الاتجاه الذي تم الاتفاق عليه مسبقاً. ولكنه فوجئ بحسن يصيح ليُسمِعه مع تتابع إطلاق النار، فيُعلِمه أنه لن يرجع إلى ما وراء خطوط البلد، ولكنه سيولّي وجهه شطر المطارح التي لم تسقط بعد، ليقاتل عنها حتى آخر نَفَس، وحتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. ولم يكن أبو صالح في وضع يسمح له بالجدال، وما كان لِيَنْهى أخاه عن أمر كهذا، على كل حال.

قبّل حسن رأسه، وكان آخر ما طلب منه أن يقبِّل عنه يدي أمه وأبيه.

ما كان حسن ليبتعد عن القرية حتى يؤدي طقوس الوداع لشخص آخر، مهما تكن المخاطرة.

وقف أمام قبر جميلة عند شجرة الزيتون التي حفر عليها اسمها، في عمارة الزيتون الخاصة بالأسرة على طرف القرية. نقّل بصره بين القبر وشاهد قبرها المحفور باسمها على جذع الزيتونة. ثم تلمس الاسم ووجد نفسه يهمس لها:

- ناس منا أخذوا حياتك يا جميلة، بس أعطيناك قبر وزيتونة خضرا.. هسع اليهود بدهم يوخذوا قبرك والزيتونة.. آه يا جميلة.. بس ما حد بقدر يوخذك من قلبي. اللي ما بتلاقى عند العبد بتلاقى عند الله.

في هذه اللحظة تناهت إلى سمعه حركة وأصوات. فقفز من فوره وتوارى وراء سلسلة حجرية. كان اثنان من جنود العدوّ يتحركان بحذر منحدرين نحو العمارة فيما بدا أنهم يمشطون المنطقة، حتى وصلا إلى زيتونة جميلة وقد لفت أنظارهما القبر المنفرد بعيداً عن مساكن الموتى. وازداد اهتمامهما إذ أخذا يتفرّسان في الاسم المحفور على جذع الزيتونة. وأخذ أحدهما الذي يعرف بعض العربية يتهجّى حروف الاسم «ج م ي ل ة». ثم تبادل ابتسامة مع صاحبه، وكأنهما يشيّدان قصة للقبر وشاهده. ثم تنحى أحدهما عن صاحبه وفتح أزرار بنطاله الكاكي ليبول في المكان. ولكن رصاصة حسن كانت أسرع منه، وانكفأ على بطنه قتيلاً مضرجاً بدمه، وقبل أن يستجمع الآخر نفسه من صدمة المفاجأة القاتلة، أدركته رصاصة أخرى فالتحق بصاحبه.

قفز حسن نحوهما متأهباً ببندقيته -بندقية العبد الغالية- وقلّب بقدمه الجنديين ليتأكد من مصرعهما. ثم ابتسم ابتسامة شاحبة وهو يرجع النظر إلى قبر جميلة، وهمس لها من جديد:

- هدية العرس اللي ما تمّ يا جميلة.

ثم تقدم بوجهه إلى اسمها المحفور وقبّله:

- وهاي البوسة اللي ما قدرت أبوسك إياها..

رفع يده مودعاً قبرها:

- بخاطرك يا جميلة.. بخاطرك.

وانطلق راكضاً في اتجاه الشمس ومواعيد البطولة.

جثتان للغزاة. وقبر لجميلة.. وزيتونة دائمة الخضرة منذورة لها، وقد حُفر عليها اسمها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عايد قد بدأ انسحابه حبواً حتى صار على بُعد ثلاثين متراً أو نحو ذلك خلف «أبو صالح» الذي يفترض أن يبدأ الآن تراجعه. ولكن «أبو صالح» كان قد استسلم لغضب جارف أمدّه بعزيمة متجددة أذهلته عن نفسه وعن صاحبه وعن دوره في الانسحاب، فلبث يطلق صليات نارية من الرشاش الوحيد الذي توفر له، حتى إذا نفدت الذخيرة، تناول بندقية مما تخلف عن أحد الشهداء، وتابع إطلاق النار وهو يصيح بالشتائم المقذعة التي غلبت على لسانه في تلك اللحظة، وهو المعروف بعفة اللسان. وإذ هَمَّ عايد أن يستدير ليستحثه على اللحاق به، دوى انفجار قذيفة أُطلِقت من جهة العدو. فانبطح عايد على الأرض وقد ثار الغبار والدخان.

وحين تمكّن من رفع جسمه قليلاً ودقق النظر من خلال الدخان رأى «أبو صالح» منطرحاً على الأرض وراء أكياس الرمل، مضرجاً بدمه. فركض نحوه حانياً جسمه حتى وصل إليه، فوجده قد أصيب بشظايا من تلك القذيفة، ولكنه ما يزال حياً.

الآن دور عايد في أن يردّ له جميله القديم حين جرح في مظاهرات حيفا، وحمله أحمد على ظهره، على ما لقي وأسرته من اضطهاد «أبو عايد» لهم في ذلك الحين.

حاول أحمد بصوت مجهد ضعيف أن يكفه عن المحاولة، لينجوَ بنفسه إن استطاع. قتيل واحد خير من قتيلين. ولكن عايد وضع يده على فم صاحبه وقائده كيلا يجهد نفسه أكثر بالكلام. فالأمر عنده محسوم، لا يحتاج إلى تقدير ولا تدبّر ولا حسابات، بل لا يحتاج إلى استدعاء قيم الشهامة وتغليبها على غريزة الحياة والنجاة. هكذا هي طبيعة الحال عند ذوي القلوب الشجاعة من رفاق السلاح في مثل تلك الظروف إذ يغيب المرء عن ذاته ليحضر في غيره.. إذن.. معاً إلى ما تقدّره الأقدار وتقرّره المصائر. وليكن ما يكون.. فلن يكون شيء أفظع مما يجري الآن على الوطن كله وشعبه!

وهكذا بدأ عايد بسحب أخيه القائد أبو صالح، ثم احتمله على ظهره.. وأمدّته شعلة الروح -روحه وروح أخيه الجريح- بقوة لم يكن يعرف أنه يملكها، حتى صادف نفراً من المهجّرين يسوقون حماراً وضعوا عليه أغراضهم التي خرجوا بها. فلم يترددوا في النزول عن الدابة ليحمل عليها القائد الجريح إلى أقرب مركز من مراكز الإسعاف الميدانيّ.

"تضيق العبارة وتتكفئ اللغة عن وصف تلك المشاعر المختلطة المضطربة التي كان على أبناء جيلنا أن يختبروها في تلك الأيام الحافلة العصيبة التي كانت تتشكل فيها ملامح النكبة.

كان لا بدّ أن ينقضي وقت ما قبل أن يعي الكثيرون منا حجم الكارثة وحدودها، وقبل أن تتحدد ملامحها ونتمثلها في نفوسنا وواقعنا المشهود.. قبل أن نصوغ لها مصطلح النكبة.. نكبة فلسطين، وندرك أننا جيلها وشهودها وضحاياها.. وأن علينا منذ تلك الأيام أن نحمل عبء الذاكرة وحراستها وتوريثها للأجيال التالية، والدفاع عن روايتنا التي لا تحيل إلى الماضي إلا بقدر ما ترفد حركة الحاضر وتحرس الهويّة، وتصوغ الحلم، وتضمر المستقبل، كل ذلك في مواجهة الروايات المضللة البديلة التي ستعمل على تزييف الحقيقة واقتلاع الذاكرة وتغييب الهوية وتقويض الروح واغتيال المعاني وتهجير الوطن من الوعي بعد تهجير الناس من أوطانهم!

أما في ذلك الحين، وفي حمأة التفاعل مع التفاصيل الشخصية المروعة التي خلّفتها تلك الظروف، كان الذهول هو الحالة السائدة.. ذهول الدوامة التي تبتلعك إلى أعماقها المعتمة، حتى لتكاد أن تشلّ وعيك وتغيب معها الشواهد والعلامات. كان زمن اللهاث المحموم بين الكارثة العامة، وبين حصصنا الشخصية منها، فمرّة نَفِرّ إلى الشخصي من مواجهة العام المفزع، ومرة نلتجئ إلى الوجع العام لنصبِّر أنفسَنا على الوجع الشخصي»"

من مذكرات علي الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

حين اهتدى عليّ أخيراً إلى مكان أسرته في عراء مفتوح كانت أفواج أخرى من اللاجئين قد توزّعت في المكان، وقد بدت وجوههم مغبرة كالحة.. كلٌّ يبكي شجوه، أو يتصبّر عليه بالدعاء وبآمال تأبى الارتحال عن نفوس المرتحلين، حتى بعد سقوط يافا وصفد قبل انقضاء شهر نيسان من عام ١٩٤٨. لم يبقَ إلا نحو أسبوعين على خروج قوات الانتداب البريطاني في الخامس عشر من أيار، لتدخل الجيوش العربية المتأهبة فلسطين.. سبعة جيوش في مواجهة المنظمات الصهيونية.. ومن يدري؟ ربّما أيّدهم جيش من الملائكة.. أليست هذه هي الأرض المقدّسة.. أرض الأقصى والأنبياء.. أرض المحشر والمنشر؟ فللبيت ربّ يحميه حين يعجز البشر عن حمايته. غمّة زائلة إن شاء الله وابتلاء مؤقت، وما يلبث النازح أن يعود إلى داره وأرضه، ليتابع حياته وعاداته وزرعه وحصاده وأهازيجه الرعوية القديمة!

لا بأس.. ولكن كم تهوّن تلك الأماني والمواعيد المشيّدة الآن عمن فَقَد حبيباً لا يعود غداً مع العائدين؟

أين أبو صالح وحسن.. وصالح؟ فها هو عليّ يُقبِل مترنحاً كالتائه.. وحده.. دون صالح!

أخذت فتحية تنوح وتنتحب وتضرب على رأسها وخديها..

- راح الولد.. راح..

كيف يمكن للآخرين أن يواسوها وهم في مثل حالها، إلا أن تحيطها أم أحمد بذراعها وتضمّها إليها. مسعود وحده كان قادراً على الكلام:

- سلّمي أمرك لله يا أم صالح.. الناس اللي دشعت من بيوتها كثيرة، واحنا طلعنا وقت الدشعة والضرب والناس مش صاحية على حالها.. يعني ممكن لاقى حاله مع ناس ثانيين.. وممكن حدا من أولاد الحلال لاقاه تايه وأخذوا معه.. وهاي عليّ بقول ما خلّى مطرح إلا دوّر فيه.. يعني لو صار فيه شي لا سمح الله كان..

هنا تدخلت أم أحمد:

- مزبوط يا أم صالح.. مزبوط اللي بقوله مسعود.. وأنا سهيت عيني شويّة قمت شفته راجع مع ناس أولاد حلال وهوه بخير وعافية.. وأنا أحلامي ما بتخطي..

كان عليّ قد هبط على الأرض بعد وصوله مطرقاً تائهاً عن نفسه. ثم سأله أبو أحمد:

- وإخوتك الاثنين.. سمعت عنهم إشي؟

أجاب عليّ بصوت مختنق:

- لاقيت واحد من اللي كانوا معهم في الاستحكامات.. بقول لما بدأ الانسحاب حسب الأوامر، سبقهم وكانوا سالمين.. بعدها.. ما فيه خبر.

سألت لطيفة:

- وأخوي عايد؟

أجاب علي:

- تأخر مع أبو صالح.. حالهم واحد.

قال أبو أحمد:

- الله يلمّ شملنا على بعض ويورينا وجوههم على خير.. يا رب.. ما إلنا غيرك يا ربّ.

تعالى صوت إطلاق النار من إحدى القرى القريبة، وكان قد بدأ منذ وقت، فهتف مسعود:

- يا جماعة حتى نشوف وجوههم على خير لازم نبعد هسّع عن الخطر.. هذي ما عادت منطقة آمنة.. سامعين؟ ولّعت هناك.. وهذا معناه هجوم واسع ومدافع ودفعات جديدة من المسلحين والإمدادات العسكرية.. وهاي الناس اللي كانوا حوالينا قاعدين يفضّوا المنطقة. يالّلا احملوا أغراضكم وخلينا نمشي.. فجأة أطلقت لطيفة صيحة فزع:

- الصيغة.. الصيغة تبعتي! ذهباتي.. نسيت صرّة الذهبات..

صاح مسعود:

- إيش؟ الله لا يعطيك العافية.. الله لا يعطيك العافية.. خربت بيوتنا؟ كيف نسيت الذهبات يا..

- شو أعمل؟ بقيت تصيح عليّ والضرب قايم.. ما صحيتش على حالي.

- ولك هذي الصيغة من دم قلوبنا.. تعب العيلة وشقاها..

- ومين اللي بقى جبرك؟ هذي صيغتي.. أنا اللي لازم أزعل. ولما أقول لك اشتري لي غيرها ابقى..

- ولك الصيغة هسّع عوزتها.. مش شايفة حالنا؟ الله أكبر.. خلتيها لليهود؟ يعني اللي ما بعمله اليهود فينا انتو بتعملوه؟

- مين إحنا؟ والله ما بحاسب على النسيان.

- طيب يا بنت أبو عايد.. الله ما بحاسب على النسيان.. بس بحاسب على غيره.. وأنا برضه بحاسب.

- يعني شو بدّك تعمل؟ تطردني من دارك وترجّعني لبيت أبوي؟

كانت عبارتها الأخيرة، على سذاجة صاحبتها الأميّة، أبلغ في سخريتها السوداء بواقع الحال، مما يمكن أن يدبّجه مثقف ساخر، وأقوى من الانفجارات القريبة التي زادت حدّتها، في التذكير بذلك الواقع.

وهنا انفجرت أم أحمد على نحو غير مسبوق في وجه مسعود:

- خلص يا مسعود.. اللي صار صار.. عمرهن الذهبات.. عمره المال كلّه.. بس تسلم الناس.. تسلم البلاد.. إحنا يعني هسّع ما نقصنا غير الذهبات! نسينا الشحار إلا إحنا فيه؟ ولد ضايع، وإخوتك اثنين ما بنعرف شو صار فيهم؟ وانت زعلان على الذهبات؟ وانسينا هاذ؟

وأشارت جهة القصف المتعالي الذي صار أكثر اقتراباً.

طأطأ مسعود رأسه وقد اختلطت في نفسه مشاعر الغضب والخجل معاً. وبدأت الأسرة بالحركة لتتابع مسيرها المضني نحو المجهول، في طريق لا تعرف أين

ينتهي بها.. طريق غير مرسوم تقرر مساره دواعي الخطر ومطالب الأمان وتتابع سقوط القرى وتمدّد كابوس الاحتلال الصهيوني من مكان إلى آخر مع قطع الطرق وعزل المناطق التي يتم اغتصابها. وكان الهدف أن تستكمل الميليشيات الصهيونية السيطرة على المناطق التي حددها لها قرار التقسيم المشؤوم قبل موعد خروج قوات الانتداب، لإعلان دولتها، وقبل وصول الجيوش العربية التي لا تستطيع دخول الحرب قبل انتهاء الانتداب فتكون حرباً ضد بريطانيا نفسها.

جموع من اللاجئين التائهين المنهكين من كل ناحية يحملون أمتعتهم القليلة وأطفالهم وذكرياتهم وأحزانهم وآمالهم العنيدة.. يجتمعون ويتفرّقون.. لا ينزلون في مكان حتى يحيط بهم الخطر من جديد، فيتابعون السير.. وما هي حتى يلحق بهم أهل القرية الأخيرة التي نزلوا في جوارها وأغاثوهم بالماء والطعام، فصاروا الآن في مثل حالهم وحاجتهم.. لم تكن في الواقع هجرة واحدة من المبتدى إلى المنتهى.. وإنما كانت هجرات عدّة، أو مراحل من الهجرة.

"لاجئون؟ لم نكن ننظر هكذا إلى أنفسنا في تلك الظروف القلقة المحمومة. بعد حين فقط ستقفز الكلمة من المعجم لتصبح هويتنا الجديدة الموصومة، إلى جانب كلمات النكبة والوطن السليب والفردوس المفقود. لم نكن في تلك الساعات ننظر إلى أنفسنا إلّا أننا مجموعات تقطعت بها سبل الدفاع عن النفس والأرض، وألجأها الحصار والقصف والتهديد والقمع الدمويّ إلى النزوح مؤقتاً من مواقع الخطر، ريثما ينتهي الكابوس الثقيل وتدخل الجيوش العربية الموعودة، لتعود الحياة سيرتها الأولى، ويعود معها الناس بمفاتيح بيوتهم التي حملوها معهم مع المتاع القليل الذي خرجوا به، وخلّفوا وراءهم أكثره على وعد الرجوع إليه.. قريباً!

لم تكن غاية النزوح الوصول إلى ما وراء حدود التقسيم، بل لم تكن تلك الحدود قد تمثلت لنا لنرى فيها الخط الفاصل بين الوطن السليب وأرض المنفى.. لم نكن نقصد الخيمة والمخيم. كان يجب أن ينقضي وقت آخر قبل أن نتبيّن أن ثمة حدوداً، وأننا صرنا وراءها في أرض الشتات والتيه والوجع والحزن والغضب، وأننا خلّفنا وراءها ذلك الجزء العزيز من الوطن والفردوس المفقود الذي لن ينحسر عن أبصارنا إلا بقدر ما يتسع ويكبر في نفوسنا وأحلامنا وأشعارنا".

من مذكرات علي الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

كيف يمكن أن يكون الربيع بمثل تلك القسوة! كيف يمكن أن تختلط رائحة الموت وعرق التعب بروائح الزنبق البريّ والزعتر الجبليّ وزهور البابونج التي لم يمنعها عسف البشر ومآسي المقهورين من التفتق كعادتها من أرض كنعان القديمة في موسم الاحتفال بالحياة، كما لم تمنع أطفال النازحين في استراحات النزول ومحطات الانتظار من اللعب والتراكض والتصايح في وسط المجموعات المشرّدة، كأنهم يأبون أن يغادروا ضواحي الطفولة المليئة بالضجيج والمتع البريئة المجانية، والتي تستعصي على الاحتلال والتدمير وتهجير من فيها، فتماشيهم أنى ارتحل بهم آباؤهم.

أربعة أيام مضت على رحيل أسرة الشيخ يونس. وفي هذه الأثناء لم يكف مسعود وعليّ عن البحث عن صالح المفقود، بين أفواج المهجّرين. وها هم الآن يفترشون الأرض في ذلك البسيط الواسع الممرع الذي تنتشر فيه مجموعات أخرى. ومنهم من حط رحاله هناك في جوف الليل.

وحين صحت شمس الصباح، وجدت فتحية صاحية قبلها إذ لم تذق طعم النوم، وقد تورّمت عيناها بالبكاء حتى جفّت ينابيعه الحارقة، فقد غدا قلبها فارغاً ولسانها مشلولاً وسمعها وعقلها غائبين عما حولها، حتى شقّ غلاف العماية السميك صوت مألوف ينادي «يمّه.. يمّه». وفي لحظة واحدة تبددت الظلمة السوداء التي لم تستطع شمس الصباح الربيعيّ أن تبددها، على صوت صالح وطلعته وهو يركض نحوها، يلاحقه رجل وامرأة وفتاة في مثل عمره. ودبّت الحياة في ساقيها وركضت نحوه حتى قذف نفسه في حضنها. وبدا، وهي تعصره وتشدّه إلى صدرها وتهزّه دون توقف، أنها تريد أن تردّه إلى منبته الأول فيها محجوباً من عوادي الدهر وصروفه وتقلباته. وعادت ينابيع الدموع تتفجر وتجري بسخاء حتى وضعت أم أحمد يدها على كتفها وقالت:

- دورنا يا فتحيّة!

قصّ عليهم الرجل «الغانم» أبو محمود كيف لقي صالح تائهاً باكياً فضمّه إلى أسرته: زوجته وابنته الصغيرة صبحيّة، وأنه حمل همّه أكثر من هم نفسه وأسرته. فكيف له ولزوجته أن يواسيا صبياً تائهاً عن أهله.. ولكنه أوكل الأمر لله عسى أن يتوصّل به إلى أهله ورجا ألا يكون ذلك شديد الصعوبة بعد أن عرف منه أنه ابن القائد أبو صالح المعروف. فإن تعذر ذلك بسببٍ ما اتخذه ولداً مكان ولده الذي مات في بواكير عمره.

ولم يخطر له حين وصلوا في الليل إلى ذلك المكان وغلب عليهم تعب المسير وحاجة النوم أن أهل الصبي يستلقون غير بعيد عنهم.

رفعت أم أحمد كفّيها إلى السماء:

- الحمد لك يا ربّ.. الحمد لك يا رب.. يا رب كمّلها علينا وورينا وجوه الثانيين واجمعنا فيهم زي ما جمعت بين يوسف ويعقوب.

أمّن الآخرون على دعائها..

منذ اليوم لن ينقطع الحبل بين أسرة الشيخ يونس وأسرة أبو محمود. لم يطل الوقت حتى جاءهم الخبر عن أبو صالح وحسن مع عايد الذي اهتدى إليهم أخيراً عملاً بوصية صاحبه وقائده إلى جانب أسبابه العائلية الأخرى. فقصّ عليهم ما كان من إصابة أبو صالح غير القاتلة، وأنه تمكّن أن يصل به إلى مجموعة مرتحلة تنازلت عن حمارها التي كانت تحمل عليه متاعها ليحمله عليه، حتى وصل به إلى طريق عام. ولحُسْن الحظ مرّت به سيارة تحمل بعض جنود جيش الإنقاذ المنسحبين، فتوجهوا به إلى بلدة طولكرم حيث يوجد مركز ميداني للإسعاف تابع للصليب الأحمر. ثم تمكّن من الوصول إلى القرية التي التجأ إليها أبوه وسائر إخوته وعائلاتهم ودعاهم إلى التحوّل إلى طولكرم ليلتقوا جميعاً هناك، فهي ما تزال خارج نطاق العمليات العسكرية دون الكثير من القرى التابعة لقضائها، لا سيما القرى الغربيّة التي تنتشر حتى ساحل البحر وحتى حدود قضاء حيفا. ويبدو حتى الآن أن البلدة نفسها ليست هدفاً لعمليات الاحتلال والتهجير. وهي وإن كانت على بُعد خمسة عشر كيلومتراً فقط من الساحل الذي تمت السيطرة عليه من يافا إلى ما بعد عكا، فإن وراءها إلى الشرق مدينة نابلس وعمق الأرض الممتدة إلى نهر الأردن. وقد بدأت البلدة منذ وقت تستقبل أفواج المهجّرين من قراها الضائعة وبعض قرى حيفا الجنوبية، وتنشط فيها عمليات الإغاثة من الصليب الأحمر والجمعيات الأهلية التطوعيّة. والأرجح كما يتناقل العارفون أن يتوقف خط النار عند حدّها الغربي وأن تكتفي العصابات الصهيونية بالسيطرة على الجزء الأعظم من سهلها الساحليّ وقراها فيه، حتى تحررها الجيوش العربية القادمة في بضعة أيام كما هو المأمول، وإلّا -لا قدّر الله- وقفت على حدّها الغربي في أسوأ الأحوال، وهي على كل حال مركز قضاء عامر. والتحوّل إليها هو الخيار الأفضل الآن قبل أن تبدأ الحرب النظامية فينحصر المتخلفون في وسط المعمعة وتقاطع النار والمواجهات الكبيرة.

لم يكن عايد في حاجة إلى سرد كل تلك الأسباب والتفاصيل ليعزم الجميع على التوجه إلى طولكرم. يكفي أن أبو صالح هناك الآن يتلقى العلاج.

وفي أثناء كلامه المتدفق السابق، غفل الجميع عن حقيقة أنه لم يذكر أن حسن رافقه في نقل أخيه أبو صالح، ومضى معه إلى طولكرم، إلّا أم أحمد الذي نبّهها قلب الأم، فقاطعته بصوت واجف:

- ما قلت إنه حسن كان معك لما نقلت أخوه وظل معه.

أطرق لحظة وانشدّت إليه الأنظار، حتى ذكر لهم ما كان من قرار حسن أن يمضي إلى المناطق التي لم تسقط بعد وما تزال تقاوم، حتى لا يبقى له عذر.

أطلق أبو أحمد تنهيدة عميقة حرّى وقد غامت عيناه. وارتجف صوته ببكاء مكتوم: «ما لحقت أودعه.. كنت بدّي أودعه..».

قال عايد مواسياً:

- إن شا الله بنشوفه على خير قريب يا عمّي. وكْلُه لرب العالمين.

أما أم أحمد ففزعت إلى الدعاء وهي تشخص ببصرها إلى السماء الربيعية الصافية التي لم تكن زُرقتها في ذلك الظرف أقل قسوة من زهور الربيع وروائحه!

وأما عليّ فتنحّى عنهم، ولحق بأخيه ورفيق طفولته وقسيم أحلامه، حتى أدركه يمشي في الوديان ويصعد التلال ويقذف نفسه في الخنادق ووراء أكياس الرمل

ويكتب برصاص بندقيته ما يزري ببلاغة ما يكتبه هو في أوراقه، أو قرأه في كتبه، حتى إذ أُغلِقت أبواب الجحيم وصُفدت شياطين الإنس، رافقه في طريق العودة إلى الدار التي خرجوا منها وإلى أرض الزيتون وحقول الذرة وأشجار الجمّيز وأزجال الحصادين وإلى البيادر يحرسان غلّتهم فيها ويدوران على لوح الدرس، ويتناوبان على ركوب حمار يتحول بلمسة سحرية.. إلى جواد مطهم يخوضان به شاطئ البحر مع الفاتحين، مع طارق بن زياد نحو الأندلس.. ولكن الأندلس غدت منذ مئات السنين فردوساً مفقوداً يقيم في الذاكرة، ويلوّنه الخيال، وتحيط به أسئلة لا تنتهي عن أسباب فقدانه!! على أنه الآن في صحبة حسن يعيدان ترتيب الزمن حتى ردّه صوت مسعود في لحظة واحدة من رحلة الخيال والأمل، وتلك عادة مسعود المستفزة المزعجة، ليدعوه إلى بدء الرحيل إلى طولكرم التي لا تحتاج إلى أكثر من مسيرة يوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في خيمة المستشفى الميداني المقامة في فسحة بين قرية ذنابة القريبة وبلدة طولكرم، وقفت الأسرة على سرير أبو صالح بعد أن قبّله والداه وأخواه، وزاد عليّ أن قبّل يده، وكذلك فعل ولداه صالح وصلاح وابن أخته رشدي.

أما فتحية فقهرت رغبتها العارمة في أن تنكب عليه وتحضنه في وجود الشهود. فحتى ظروف الحرب ووحشية الاقتلاع ولهفة المفجوع لا تقوى على تقويض السدود التي نصبها الناس المقهورين أنفسهم لقهر عواطف المحبين وتعبيرهم عنها.

فاكتفت بأن تجيبه بدموع المودة والرحمة التي جعلها الله بينهما. ولكنها فوجئت كما فوجئ الآخرون به يمدّ يده ويأخذ بيدها ويشدّها إليه. فاحمرّ وجهها خجلاً وإن ضجّ صدرها بغناء لم يكن ليطوف بها حين كانت الحياة أكثر هناءً وسكينة، ولم يكن هو نفسه ليرضى أن يسمعها تدندن به وإن قصدته به.

أعلمهم الطبيب أنه سيكون بخير، ولا خطر على حياته من الشظايا التي أصابته، إلا أن شظية واحدة لم يتمكنوا من إخراجها إذ هي في مكان يصعب الوصول إليه دون تعريضه للخطر. ولكنه يستطيع أن يعيش بها، وإن كانت ستنغّص عليه بين الفينة والأخرى إذا بذل جهداً كبيراً. فعليه منذ اليوم أن يتجنّب الأعمال الصعبة المرهقة. وعلى أي حال لم يكن في الإمكان أحسن مما فعلوا في ظلّ تلك الظروف الاستثنائية مع نقص الخبرات والأدوات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«نام يا حبيبي نام. لاذبحلك جوز الحمام. اهدى يمّه يا سالم اهدى.. هسّع بيجي أبوك.. نام يا حبيب نام».

كان هذا أول لقاء لهم بهذه المرأة الريفية العشرينية التي ترتدي ثوباً متسخاً وتضع خرقة مثقوبة يتناثر من تحته شعرها الأشعث الذي يبدو أن المشط لم يعمل عليه منذ وقت.

كانت تكرّر «ترويدتها» لطفلها وهي تهزّه في حضنها وتنظر فيه بمحبة غامرة، لتحمله على الهدوء والنوم. ليس في ذلك ما يستوقف أحداً أو يلفت النظر في العادة، فذلك شأن الأمهات، إلّا أن الطفل لم يكن يبكي ولا يتحرّك ليدعوها إلى تهدئته.. لأنه.. لم يكن طفلاً! إنما كان وسادة! وسادة فقط.. لا أكثر!

سيعرفها الناس على مرّ سنين قادمة باسم أم سالم المجنونة. ولسوف تصبح جزءا من المشهد اليوميّ العام، فيراها الناس هائمة في الطرقات أو جالسة على الأرض غافلة عمّا حولها إلّا من الوسادة التي تحتضنها وتهزّها، أو يطاردها الصبيان الأشقياء القساة يصيحون من ورائها بإيقاع مكرور رتيب «أم سالم المجنونة» وقد يرجمها أضلهم طريقة بالحصى، فتسب آباءهم وآباء آبائهم، حتى يتدخل بعض أولاد الحلال فينهروا الصبيان ويطردوهم عنها. وسوف تعيش على ما يقذفه لها أهل الخير من طعامهم أو بقايا طعامهم. ولن تتساها أم أحمد الأصيلة فتصنع لها ما تتجنبه أطيب النساء الأخريات، فتُدخِلها البيت وتعمل على غسلها بالماء الساخن، وربّما غسلت لها «سالم!!» الذي يكتسي بسواد التراب وقاذورات العراء الذي تقيم فيه، بل ربّما كسته وكستها معاً بثوب جديد، كلما اهترأ ثوبه وثوبها. امرأة مجنونة تائهة في داخل عالمها وخارجه؛ لا زوج ولا قريب ولا نسيب. وما يمكن أن تغفل عنه أم أحمد من أمرها حين تغيب عن الأنظار سوف يتولّاه رشدي، ابن خضرة، يذبّ عنها الصبيان ويأتيها بطعام وشراب، ويبحث عنها كلما اختفت عن الأنظار حتى يجدها، ويمسك بيدها ويقودها إلى بيت جدّيه وأخواله لتعتني بها جدته ساعة من الزمان، قبل أن تنفلت من جديد إلى طرقات التيه.

صبيّ فُصِل عن أمه مبكراً قبل الهجرة القسريّة، ثم انفصل عنها في الهجرة، وقريباً ينتصب خط الهدنة القاتل بينهما: هي وراءه في بلدة أم الفحم في الأرض المغتصبة، وهو في طولكرم على الطرف الآخر في الضفة الغربيّة.

لم يكن من الغريب إذن حين رأت الأسرة أم سالم المجنونة لأول مرة على ذلك النحو، تتجوّل على غير هدى، أن يتخلّف رشدي عن أهله يتأمّلها ويلاحقها بأنظاره، حتى تنبّهت جدته، وعادت تمسك بيده وتقوده معها، وهو يتابع التفلّت نحو المرأة المسكينة.

لن يطول الوقت حتى تشيع قصتها التي لن يعرف أحد مصدرها وشاهدها كشأن الحكايات الشعبية الشفوية التي تنسب روايتها إلى الجميع، وكشأن الكثير من حكايات النكبة والتهجير الغريبة العجيبة الحزينة الفاجعة التي ستصير جزءاً من الرواية الفلسطينية التي تتوارثها الأجيال. وما عليها لو غابت مصادرها الأولى وشهودها؟ حسب الرواة أنهم عاينوا آثارها ومآلاتها. فشيّدوا على ذلك بداياتها وحبكاتها ومساراتها.. وقاسوا غائبها بحاضرها ومجهولها بمعلومها. ففي جحيم النكبة اللامعقول، يصبح كل شقاء شخصي معقولاً، وكل ما يحتلّ الوعي هو حقيقة بقدر ما يوجع القلب. وفي بعض الظروف تشيّد النهايات قصة البدايات!

في غمرة الفزع والوجع والقصف والخوف وتعجّل النداء، ركضت أم سالم لتخطف طفلها الرضيع وتفرّ به من الجحيم المطبق.. لتكتشف بعد أن صارت القرية أنقاضاً وراءها وخلف خط النار أنها حملت تلك المخدّة بدلاً من طفلها. فألزمها الألم الذي لا يطاق أن تفرّ الآن من جحيم وعيها إلى ملجأ جنونها المريح الذي ردّ عليها طفلها سالم في تلك الوسادة!

هكذا تقول الحكاية. أما زوجها فكان قد قُتِل وهو يقاتل مع المجاهدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان لقاء أبو عايد بأسرة أصهاره عند أحد مراكز الإغاثة فاترا على غير المتوقع في مثل تلك الظروف التي يصير فيها كل غريب للغريب نسيباً، فكيف إذا كانوا أبناء قرية واحدة وبينهم صهر، وتوحِّدهم المصيبة! وحّدتهم المصيبة!! هذه هي المشكلة حقاً، وهذا هو السبب الذي جعله يستقبلهم واجماً عابساً منقبض الملامح، ويشيح بوجهه حتى لا تلتقي نظراته بنظراتهم.

أبو عايد، كبير وجهاء القرية وملّاك الأرض، والذي كان يحكم ويرسم ويأمر وينهى ويتيه على الناس بماله وعزوته، قد صار وإياهم على صعيد، ينتظر أن يقوده عامل الإغاثة مع الآخرين إلى إحدى الخيام الكبيرة المضروبة لإيواء اللاجئين. وكان مسعود أول من أدرك ذلك منه. وكان عليه أن يغالب شعوره بالتّشفي. ولكنه لم يملك إلا الإفصاح لأهله حين انتحى بهم:

- عزّت عليه نفسه الكبيرة.. مش طايق حدّ يشوفه بعيد عن عزّه ورزقه وعلاليه ويصير سعره سعر المقاطيع اللي كان يعيرهم.. وشايف حاله عليهم.

اعترض عليه أبو أحمد:

- له يابا.. بتتشفى بالزلمة وإحنا واقعين وقعته؟ كيف لو ما بقى نسيبك أبو مرتك.

تنهد مسعود وقال:

- لو بقيت عارف شو بدّه يصير، كان بقت سيرة ثانية.. شو بتنفعه هسّع أراضيه؟ حملها معه؟

قال الأب بلهجة مشوبة التأنيب:

- خاف الله يا مسعود. بعدين شو الخرّاف اللي بقطع القلب. إيش اللي أيام عزّه وأراضيه؟ هيه صارت أيام وتواريخ قديمة؟ قول إن شا الله نرجع كلنا قريب، ويرجع الزلمة لعزّه وأراضيه وإذا بدّه فوقها كمان نور وبخور.. وعند اللزوم يرجع يتأمّر علينا..

هز مسعود رأسه هزّة المتشكك، وإن كان الآن يرغب حقاً في التمسك بشيء من الأمل.

قادهم عامل الإغاثة إلى خيمة واسعة نُصِبت مؤقتاً مثل كثير غيرها، بعد أن ضاقت المدارس والمساجد بمن سبق من المهجّرين.

وكان قد سبقهم إليها الزوجان الطيبان: أبو محمود وأم محمود، اللذان عثرا على صلاح في تيهه وردّاه إلى أهله، وابنتهما الصغيرة صبحيّة. وكان ثمة زوجان آخران سيظهر أنهما من أصل بدويّ: أبو عطية وأم عطية، ومعهما ولدهما عطية الذي كان في مثل عمر صلاح، الابن الثاني لأبي صالح. والآن تنضمّ إليهم أسرة الشيخ يونس، وأبو عايد مع ولده حمدان وزوجته، وتخلف عنهم عايد وزوجته مع بقية إخوانه وأسرهم، ليتوزعوا على أماكن إيواء أخرى، حسب المتاح.

وكانت الخيمة قد قُسِّمت قسمين: أحدهما للحريم، والثاني للرجال، وبينهما ستارة.

توقف أبو عايد ينظر بوجه شديد الانقباض، ثم صاح بعامل الإغاثة بأنه لن ينزل مع كل أولئك الناس في خيمة واحدة وطالب بخيمة منفردة له ولولده وزوجة ولده. أفهمه عامل الإغاثة بأسلوب متأدّب أن هذا ما يستطيعون تدبيره في الوقت الراهن

مع كثرة المهجّرين، وأنه وضع مؤقت على كل حال، حتى تصل شحنات جديدة من الخيام مع مساعدات الأمم المتحدة. هنا صاح أبو عايد:

- شو قصدك هذي مؤقتة؟ يعني هيه مطولة وبدنا نظل مشردّين عن دورنا ورزقنا لحتى توصل خيم جديدة من بلاد برّة؟

هز عامل الإغاثة رأسه هزة غامضة المغزى. وانصرف مبتعداً، ولاحقه أبو عايد بصوت أجش:

- وين رايح يا شاب. ما سمعتش شو قلت إلك؟

أجاب عامل الإغاثة وهو يبتعد دون أن يلتفت إليه:

- والله إذا بتعرف مطرح ثاني أحسن بتحب تروح له، الله معك.

ردّ أبو عايد بعصبية جارفة وهو يلاحق الشاب:

- آه بعرف مطرح ثاني بحب أروح له.. داري.. مضافتي.. أرضي.. انت مش عارف أنا مين؟ أنا أبو عايد زعيم بلدنا كلها.. أنا قاعد مع أكبر طربوش بفلسطين. حسينية ونشاشيبية وغيرهم وغيراتهم.. روح راجع مديرك الأفندي واشرح له عني.. يمكن بقدّر المقامات أكثر منك.

ارتسمت على وجه مسعود ابتسامة ساخرة أخفاها من فوره حين التقت عيناه بعيني أخيه عليّ. ومع ذلك همس:

- أصحاب الطرابيش اللي بحكي عنهم بطلعوا بفلوس ومؤهلات يشتغلوا فيها ويصير إلهم مناصب ومصالح كمان. التاجر تاجر والحكيم حكيم والمحامي محامي.. واللي زي أبو عايد كانت زعامته في أراضيه.. وظل يشتري اللي بقدر عليه للأخير.. وهسّع ما فيه أراضي هون ولا مصاري للّي زيّه.. ولسّه مش فاهم الطبخة.. لاجئ عن لاجئ بفرق يا خوي.. واحد بروح لبيت يشتريه أو يستأجره، وثاني زي حالاتنا بروح لهالخيمة!

وقبل أن يدخلوا الخيمة ليضعوا متاعهم، سُمع الصوت الذي سوف يصبح مألوفاً يستدعي من الآخرين العبارة المأثورة: «اللي بشوف مصايب الناس بتهون مصيبته»، لولا أن المصائب تتزاحم وهي أعظم من أن يهوِّن منها شيء أو تعزّي عنها المقارنة! وإذا كان الشائع بين الناس أن «في عموم البلوى بعض السلوى»، فلا سلوى منذ الآن ولا عزاء.

«نام يا حبيبي نام. لاذبحلك جوز الحمام. نام يمّه يا سالم نام.. ريتك سالم يا سالم.. ريتك تصير عريس وأرقص بزفتك يمّة».

أم سالم المجنونة تجلس على الأرض بالقرب من الخيمة وتضم طفلها إلى صدرها وتهزه.. طفلها الذي لن يكبر أبداً، إذ يكبر الأطفال الآخرون، ويشبّون عن الطوق ويسيحون في طرق الحياة.. أو الموت!

ما إن اجتمعت النساء داخل شقّهن من الخيمة حتى بدأ التعارف والحديث.. كل منهن تقصّ حكايتها. وعلى الرغم من الأوضاع الحالكة التي جمعت بينهنّ وغموض المصير، لم يسع أم أحمد إلا أن تتحدث بشيء من الاعتزاز عن ابنها القائد أبو صالح الذي دوّخ الإنكليز وقاد الدفاع عن قريتهم والقرى المحيطة حتى آخر «طلق»، وأنه يرقد الآن جريحاً في أحد مراكز الإسعاف. وبالطبع تحدثت عن ابنها

الأستاذ عليّ الذي أكمل دراسته في القدس وكان الأوّل دائما، حتى صار معلما في إحدى المدارس الكبيرة في حيفا.. ولم تنسَ أن تذكر مسعود الذي علّم نفسه بنفسه حتى صار يبز المتعلمين بكلامه ومعلوماته، وأنه جمع بين الفلاحة ومهنة النجارة، وتحدثت عن «شطارته» في تدبير الأمور وحلّ المشاكل في الظروف الصعبة. ثم أطرقت وقد اكتسى وجهها بالحزن وسالت دموعها، قبل أن تحدّث عن حسن الذي ما يزال غائباً في ميادين الجهاد، وارتفعت أصوات الأخريات بالدعاء أن يردّه الله سالماً غانماً عن قريب.

أما أبو عايد فآثر أن يتنحى بنفسه وراء الخيمة بعيداً عن سائر الرجال الذين جلسوا أمامها يتبادلون الحديث وما تيسّر لهم من التبغ الرديء. إلا أن مسعود وعليّ خرجا يتجولان ويستطلعان المدينة التي ستكون مقامهما الجديد إلى أجل غير معلوم.

ولكنهما كانا يطويان الصدر على مأرب آخر يتجنبان الإفصاح عنه، لأنه يصطدم بواقع الحال، وتقصيه الاحتمالات القائمة. ولكن الأماني المتسلّطة واللهفة الجارفة على المفقود العزيز، تعمل على تقريب القصيّ، وتخليق الاحتمال العصيّ، على الضدّ من كل الظروف المعاندة، حتى ليَتصوّر ذو الحاجة الملهوف، أن توافقات خارقة يمكن أن تُهدِيَه غايته، أو تهديه على نحو غامض إليها!

حسن! هل يمكن أن يحف به دعاء الجميع ويأتي به إلى طولكرم على غير علم منه أن أسرته قد صارت فيها بعد سقوط كل تلك القرى والمدن؟ ليس ذلك على الله بعزيز. وطولكرم على كل حال مع أختها جنين من أقرب المراكز التي يفد إليها اللاجئون. وها هما الأخوان مسعود وعليّ، يتجوّلان في المدينة القائمة على تلة، يحاذيها من شمالها وغربها سهل مفتوح ينتهي إلى البحر الذي اختطفه الغزاة ولو إلى حين، وينظرون في وجوه الوفود الجديدة من اللاجئين المنهكين القادمين من الحقول القاتلة. ولكن النهار ينقضي، وحسن ما يزال غائباً في المجهول.

«نام يا حبيبي نام.. لاذبحلك جوز الحمام..».

ثم توقف الصوت أخيراً وساد الصمت. وكانت عتمة المساء قد هبطت، وبدأ سكان الخيمة يراودون النوم المراوغ الذي لا يقرّبه التعب والإنهاك، حتى تطرده كوابيس الواقع والأفكار المختلطة المرهقة والصور الشائهة المختلطة.

فجأة حلّ محلّ «الترويدة» نشيج طويل، أعقبه صراخ متفجّع، حمل سكان الخيمة على الخروج واستطلاع حال أم سالم المجنونة التي كانت تجلس في العراء إلى جانبها. كانت تتمعّن في الوسادة هذه المرّة وقد رفعتها أمام عينيها، وبدا أنها في حالة صدمة جاءت بها لحظة وعي مفاجئ، وكانت تصرخ وتنتفض وتنتحب بشدة:

- هاذ مش سالم.. وين سالم؟ بدّي ابني سالم..

ثم قذفت الوسادة إلى الأرض، قبل أن تلتقطها من جديد وتضمّها إلى صدرها وتقبّلها بحرارة:

- سالم.. حبيب أمك يا سالم.. سامحني يا روح قلبها لأمك.. أنا وَقَعْتَك يا حبيبي.. غصبن عني يمّه.. لا تبكيش.. أنا فِداك يا سالم.. نام يا حبيبي نام.. نام يا حبيبي نام، لاذبحلك..

هنا سُمِع صوت أبو عايد يتفجر ضيقاً وغضباً:

- يعني وآخرتها مع هالمجنونة.. يعني مش مكفينا اللي فينا.. ولِك قومي من هون وحلّي عنا..

بدا أنها لا تسمعه، فتابعت ترويدتها وهي تهز سالم. وأمام صدمة الجميع اندفع أبو عايد نحوها وخطف منها «طفلها» وهو يصيح بها:

- ولك يا مجنونة هذي مخدّة.. لا سالم ولا ساخم.. مخدّة.. شوفي.. مخدّة. اصحي على حالك حتى نعرف ننام.

في لحظة واحدة خاطفة تحوّلت إلى قطة بريّة متوحشة، وقامت إليه وخمشت وجهه، واستردّت «طفلها». وإذ غلب عليه الألم والغضب حتى ذهب بعقله مع عقلها، هَمَّ أن يصفعها، لولا أن امتدت إليه قبضة شديدة أمسكت بيديه. كان ذلك أبو عطية البدويّ الأصيل. وصاح أبو عايد به:

- ولك يا بدوي يا مقطّع، انت بتمد إيدك عليّ.

أرخى أبو عطية قبضته:

- بدوي والّا فلاح والّا مدني والّا زفت.. الكل صار مقطّع في هالخيم. وبعد، ما تخاف الله في هالمسكينة.. وين الشهامة.. وين المروءة.

ردّ أبو عايد لاهثاً:

- ما ظلّ إلّا اللّي زيك يعلمني الشهامة.. انت عارف مين اللي قدامك يا..

- عرفنا.. زعيم وأراضي.. يا خوي مش عاجبك تقعد مع البدوي المقطّع، ارجع لأراضيك ومليها بعيالك ورجالك، وإذا شفت بدوي بخبط فيها طخّه..

تدخل أبو أحمد:

- يا جماعة الدنيا ليل، وعندنا حريم وأولاد.. ما بصير هالحكي.

ثم توجه إلى أبو عايد:

- بهالحرمة وبدون هالحرمة مين اللي عارف ينام زيّ الناس. يعني ما ظلّ عندنا هموم غير المسكينة؟ ابني مصاوب.. وابن ثاني ما بنعرف وين أراضيه.. وبنت مقطوعة عنا جوّة في أم الفحم ورا خطوط النار. الله يعين كل واحد على بلاويه.. هدّي يا أبو عايد.. هدّي الله يهديك.

قال أبو عطية:

- يسلّم ثمّك يا ابن الأجاويد.

قال أبو عايد مخاطباً أبو أحمد بلهجة لوم وتأنيب:

- هسّع بتلف مع البدوي على أبو عايد.. نسيت مين أبو عايد يا نسيب الهنا؟ آ آخ.. اللهمّ لا تجعلنا من النادمين.

أمّن مسعود على دعائه بأسلوب لم يفت مغزاه على العارفين:

- اللهمّ آمين!

لم يجد أبو عايد من يتعاطف مع سلوكه في ذلك الموقف، حتى ولده حمدان الذي شعر بالحرج والخجل، وارتد الجميع داخلين بينما اختفت أم سالم بولدها في الظلام بين الخيام الأخرى التي كان بعض سكانها قد خرجوا يستطلعون الجلبة. وتخلّف

مسعود عنهم أمام الخيمة يقلب بصره في السماء، ويحدّث نفسه بحديث نبوي يحفظه (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة. خياركم في الجاهليّة خياركم في الإسلام إذا فقهوا). وأغراه واقع الحال أن ينزله على الموقف الذي شهده مع تعديل مناسب: «خِياركم أيام البلاد، خِياركم في أيام الخيام»!

"أخيراً خرجت قوات الانتداب البريطاني في الخامس عشر من أيار عام ١٩٤٨، ورقص الصهاينة في المدن السليبة على دماء الضحايا الذين أخرجوهم من ديارهم بالنار والدم والحديد. وتحقق وعد بلفور لهم ووعيده لنا. وأعلن الغزاة قيام دولتهم التي لم تتأخر الأمم المتحدة عن الاعتراف بها، بعض أعضائها طوعاً وبعضهم كرهاً تحت ضغط الدول العظمى. وفي المقابل أعلن أصحاب الأرض نكبتهم التي ستصير عنوانهم.. إسرائيل منذ الآن.. أو الكيان الصهيوني.. أو الدولة العبريّة.. تعدّدت الأسماء والنكبة واحدة!

جاءت الجيوش العربية ولم تنجز وعدها في تحرير فلسطين، بل عجزت عن الوقوف عند الحدود التي رسمها قرار التقسيم، فما إن سكت السلاح ونطقت الهزيمة المنكرة، وفُرضت الهدنة بقرار دولي، حتى كانت القوات الصهيونية قد سيطرت على ٧٨٪ من أرض فلسطين بدلاً من ٥١٪ كما نصّ قرار التقسيم. وتم اقتلاع نحو ثلثي الشعب الفلسطيني من أراضيه ومن قراه، بقوة السلاح والتهجير القسريّ والتطهير العرقي. ولم يكن اليهود يمتلكون من الأرض إلا نحو ٦٪ فقط، على الرغم من كل سياسات الانتداب السابقة التي عملت بين عام ١٩١٨ و١٩٤٨ على تسهيل عملية تمليك اليهود لأراضي الوطن الفلسطيني.

ولسوف يستمر الجدال السياسي عبر السنين التالية حول أسباب الهزيمة والنكبة.

وسيظهر من يتهم الضحيّة، ومن ينسب الهزيمة إلى خيانة القيادات العربية، ومن يلجأ إلى جَلْد الذات وكرهها. وسوف يغيب عن وعي الكثيرين حقيقة اختلال موازين القوى، وأن جماع عدد الجيوش العربية كان أقلّ من نصف الهاغاناه والمنظمات الصهيونية، أو كان ثلثها في بعض التقديرات، إلى جانب التفوّق الهائل للصهاينة في مستوى التدريب والسلاح الذي قُدِّر بعشرة أضعاف السلاح العربي، ومع ذلك كله الدعم الدوليّ وقراراته السياسية. ومن الطبيعي أن مسعود كان أقلّنا شعوراً بصدمة الهزيمة، إذ كان أسرعنا في توقّعها من قبل حين كان يردّد الحقيقة الفظّة التي كان بعضنا يدافعها وإن كان يعلم صدقها ولا يملك ردّها إلا بطلب السكوت والكفّ عن التشاؤم، وهي أن القوى الاستعمارية التي خططت للمشروع الصهيوني ومكّنت له في فلسطين، هي نفسها التي ما تزال تتحكم بالقرار العربيّ وتديره سرًّا وعلانية. ولكن ذلك لم يمنع الجنود المأمورين عن القتال ما وسعهم ذلك، بل مخالفة بعضهم للأوامر التي تصلهم بالكف عن القتال، حتى صارت عبارة «ماكو أوامر» باللهجة العراقية جزءاً من الذاكرة الفلسطينية المفعمة بالخيبة والمرارات.

نعم، يجب ألا تصرفنا مرارات النكبة على عظمها ونزعة جَلْد الذات، عن استذكار بعض المعارك البطولية المشرفة التي خاضتها بعض فِرَق الجيوش العربية، وفي مقدمتها معركة باب العامود في القدس التي خاضها الجيش الأردني بقيادة عبدالله التلّ، ومعارك الدفاع عن جنين التي قادتها قطعة من الجيش العراقي ضد الأوامر

العليا.. يجب ألا ننسى شهداء الجنود والمتطوعين العرب الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وانزرعت أجسادهم في أرض فلسطين إلى الأبد. لمثل أولئك يجب أن يُرفَع نشيد المراثي، وألا يضيع في زحمة الأهاجي التي يستحقها المجرمون والضالعون والمتآمرون والمتواطئون والخونة".

من مذكرات علي الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زمن مسعود وعودة حسن

(النجوم لا تزور الخيام)

1

انتهت الحرب إذن.. وارتسمت حدود النكبة على خطوط الهدنة مع الكيان الصهيوني الجديد.

في تلك الأثناء، وبينما كان الآخرون يتجرّعون آلامهم ويصطنعون آمالهم المعلّقة على شرط المستقبل، لم يتوقف مسعود عن الحركة، وقد صار الآن رجل العائلة وعماد الخيمة الجديدة، مع أخ أقعدته إصابته، وأخ متعلّم منسحب داخل نفسه الموزعة بين أطلال الماضي القريب ووديان التيه الممتدة إلى مستقبل يختفي وراء الغيوب بلا شواهد ولا علامات، وتطوف فيها أحلامه المنكسرة الجوانح التي كانت تحلق قبل ذلك في فضاءات العالم والمدن البعيدة وجامعاتها المعتبرة. ويقضي الوقت صامتاً شارداً في أسئلته التي تبدأ بمصير حسن والوطن الضائع وتنتهي إلى أسئلة الوجود والمصائر الإنسانية وطبائع البشر ونواميس التاريخ والكون! وفي ذلك كلّه يستدعي شخصيات الروايات العظيمة المغتربة وكتب الفلسفة التي قرأها، والأشعار التي درسها بالعربية والإنكليزية، وتستبِطن الوجود الإنساني المركب. ثم لا تسلمه الأسئلة إلا إلى أسئلة أخرى، ولا تخلف إلا شعوراً بالفراغ والحسرة والضياع، أو السقوط الحرّ في هوّة سحيقة ليس لها قرار.

لا، ليس مسعود كذلك. وعليه الآن أن يتولّى أمر عائلته كلها، وأن يحاول جهده أن يلملم الأجزاء المتناثرة التي عَصَفت بها ريح السموم. لا وقت لأن يقعده الحنين الذي يحترفه البائسون منذ اليوم، وإن كان مليئاً به مثلهم، ولا وقت لأن تعتقله الحسرات، وإن كانت تستوطن روحه. بل ينبغي أن تكون هذه كلها حافزاً له على الحركة والعمل والنشاط في وجه العواصف. ذهب الوطن إلى أَجَل غير منظور. ولكن يجب أن يظل أصحابه المشرّدون أحياءً ليبقى الوطن حياً في نفوسهم ومعه أحلامهم بالعودة وعزائمهم. فليس أشد من اغتصاب الوطن إلا اغتصابه من الذاكرة، شرطاً لتغييب أهله ومحو هويتهم.

نعم، ذهبت الآن الآمال التي بقيت تراود الناس بمنع قيام «إسرائيل» واغتصاب الوطن، وانهزمت تلك الآمال مع هزيمة الجيوش العربية. ولكن، حلت محلها أحلام العودة، بل يقينها الذي لن يتلاشى أبداً. أما متى؟ فينقسم الناس بين من يراها قريباً ومن يراها بعيداً على وفق تصوراتهم لأشراطها. يبقى المهدي المنتظر احتمالاً قائماً عند البعض. ولسوف يكرر الكثيرون الحديث عن أن توافد اليهود إلى فلسطين من كل أصقاع العالم والتفافهم فيها وكثرة نفيرهم بالسلاح والمال هو مقدمة القضاء عليهم في المعركة الكبرى الفاصلة بين الحق والباطل، بعد أن يعود الناس إلى إيمانهم الصحيح ويستقيموا على الطريقة ليستحقوا تلك العاقبة. وبذلك يكون انتصار الغاصب المؤقت العاجل فخاً لهزيمته المدمّرة الآجلة على أبواب القيامة!

أما الأقرب إلى شروط الواقع المادّي والسياسي فسوف يعلّق الحلم نفسه على حتمية تغيير الشروط التي أدّت إلى الهزيمة والنكبة: تحقيق النهضة العربية والوحدة والتحرر من التبعيّة، وسيزيد عليها آخرون العدالة الاجتماعية، والتحالف مع قوى التحرر العالميّ ضد الاستعمار والإمبريالية. تعدّدت التصورات والحلم واحد. وستجد من يجمع بين هذه التصورات ويرفع التعارض بينها في وعيه ووجدانه!

ربما لم يكن مسعود قادرا على التعبير عن تلك المفاهيم بلغة المحلل السياسيّ المحترف. ولكنه كان يعلم شيئاً واحداً: لا مجال لانتظار الآتي من حساب ضرورات الراهن الشخصيّ. والهروب إلى الأمام ليس إلا هروباً من واقع الحال.. بل من الزمن كله: ماضيه وحاضره ومستقبله. وليس الانشغال بمطالب الخلاص الشخصي والخروج من البؤس بالذي يصرف عن مطالب الخلاص الوطني العام. فالحياة يجب أن تستمرّ كي تستمرّ القضية مع الأحياء. ولذا كان ينظر إلى أخيه عليّ نظرة ملؤها الإشفاق والاستنكار معاً، بقدر ما كان عليّ ينظر إليه نظرة اتهام واستنكار أيضاً للأسباب المعاكسة. كيف لأخيه مسعود أن ينخرط مبكراً في تدبير أمور الحياة اليومية والسعي الموصول المحموم في وقت لا يتسع لغير التفجّع والتأمّل والحزن والشعور الحارق بالفقد. انتهت الحرب واكتملت صورة النكبة ولم يرجع حسن. نعم، لم يكف مسعود وعليّ عن السؤال والبحث، وهما يحملان صورة فوتوغرافية له يعرضانها على المجاهدين القادمين من ميادين القتال. جلّهم كان يهز رأسه بالنفي، ولكن بعضهم شبّه عليه دون يقين. وكيف يشبِّه عليه قادم من الشمال وآخر من الوسط وثالث من الجنوب! ومن يدري؟ إن كان آخر مواقعه في الشمال، فلعله قد التجأ إلى لبنان أو سوريا، أما إذا كان آخر مواقعه في الجنوب، فلعله قد صار في غزّة أو شَرّق إلى منطقة الخليل. وأسوأ الاحتمالات أن يكون قد حجزه خط الهدنة القاتل وراءه في الأرض المغتصبة. فإن كان ذلك فلا بد له من أن يلتحق بأخته في بلدة أم الفحم هناك، فقد كان يعلم وجهة زوجها قبل الرحيل. وأسوأ الاحتمالات؟ لماذا يتجنب الجميع ذكر الاحتمال الأكثر فجعاً وإن كان الأكثر تبجيلاً في الدين والمراثي الشائعة؟

ولكن مسعود كان يغالب نفسه كلما همّ بتذكير أسرته بذلك الاحتمال ويكتفي بالتحديق في عيني أخيه عليّ الغائمتين كأنه يستعينه. ولكن عليّ كان أكثرهم ميلاً إلى الاحتجاب عن ذكر الاحتمال أو سماعه.

وما عسى مسعود أن يفعل وهو يرى أباه صامتاً غائباً عن نفسه، يشهق بالبكاء بين الفينة والأخرى، ويرى أمه تتجبّر على نفسها ويعلم من تعبير وجهها أنها تنتحب في داخلها بلا دموع، ثم تتعلل بالأماني التي يرفدها حلم مكرور تراه وتقصّه على من حولها إذ ترى فيه «حسن» حياً مبتسماً يُقبِل بوجه أبيض منير يقطر حبباً من العرَق. وأحلامها، كما تردد دائماً، لا تخيب. ألم تَصْدُق رؤياها في لقاء صالح من قبل، حين كاد الآخرون أن يسلموا أنفسهم لليأس؟

إذن، لماذا يتعجّل مسعود قتل الأمل؟ بل هو أيضاً أبقى في نفسه على بعض الأمل على الرغم من ضعف الاحتمالات، بعد أن استنفد مع أخيه عليّ طرق البحث الممكنة، فسجّل اسم حسن في كشوف المفقودين عند الصليب الأحمر ولجان الإغاثة، وألحّ عليهم أن يخاطبوا مراكزهم في كل المنافي الجديدة: فيما بقي من فلسطين غرب الأردن، وفي غزة والأردن ولبنان سوريا.

ومع ذلك لم يصرفه ذلك عن الحاجات العاجلة الأخرى. فهو الذي يقف في الطابور الطويل ساعات لتلقي إعانات الإغاثة وحملها مع ابن أخته رشدي. وهو الذي أحضر ثلاث خيمات جديدة وعمل على نصْبها لتكون واحدة لأحمد وأسرته والثانية لأبويه والثالثة له ولزوجته. واختار لها موقعاً مناسباً مرتفعاً ومستوياً على أرض صلبة في آن، في المساحة التي بدأ يتشكل فيها المخيم.

وحين شرح أسباب خياره لذلك الموقع، علق والده متبرَّما:

- أحسن شقفة والا أزفت شقفة.. مين داير هسّع على هالخراريف؟ هوه إحنا جايين نتملّك ونثبّت حقوق هون؟ وين ما كان.. بس ندبّر حالنا لحتى الله يفرجها.. هيه بدها تطول هالعيشة، الله يقطعها من عيشة.

علّق مسعود وهو يرسل بصره إلى أخويه عليّ وأبو صالح الذي خرج أخيراً من المصحّة وانضم إلى أسرته:

- إي الله.. الله يقطعها من عيشة.. بسّ هذي علينا.. إحنا وعملنا..

وأرسل نظرة خاصة أخرى إلى أخيه عليّ، تحمل معنى اللوم والعتاب والتهمة. ولم يلبث طويلاً حتى بدأ يعمل على إحاطة الخيمات الثلاث بسور وطيء من الطين وشحف الحجارة التي التقطها وجمعها لهذه الغاية، يعينه رشدي كالعادة.

- هيك أحسن ما ييجي حدّ جديد يلز خيمته على خيماتنا.. وهيك بنضمن يكون إلنا حوش نتنفس فيه، إذا قررت وكالة الغوث اللي شكلتها الأمم المتحدة انها تبني لنا. ما هيه قريب تصل ويبدا شغلها.

لا شيء يزعج «أبو أحمد» أكثر من التخطيط لمستقبل يكون هنا. فهو عنده نذير شؤم. سمعه مسعود ينفخ ويطلق تنهيدة عميقة. ولكن الأشد من ذلك عليه أن يرى «عليّ» يهز رأسه متبرَّما وهو يجلس وحده وينظر في الجريدة. هذه المرة شعر بالاستفزاز، فلم يتردد في الكلام المباشر القويّ اللهجة:

- يعني مستغرب؟ هاه؟ في بالك بتقول بلاد ضاعت وهاذ على إيش داير. بتفكر إذا ثبتنا الخيمة بنثبت النكبة. إذا نطقنا بلسانّا اسم الخيمة والمخيم والنكبة بتصير حقائق، زيّ اللي بخاف يذكر اسم الحيّة خوف ما تطلع له، والا اسم الشيطان خوف ما يلمسه. إذن اسمعوا وقولوا اللي بدكم تقولوه... اصحوا يا عالم.. الحية طلعت ولفّت علينا وخلّصت.. وأنا مش أقل منكم زعل.. وانت يا علي.. يا أستاذ علي، مش أكثر مني فِعِل.. إذا عندكم طريقة بترجع بلادنا بكرة هسّع برفع إيدي عن الطين وبحط إيدي بإيدك وحرام عليّ النوم والزاد.. ومين قال الخيمة وأكم متر حواليها بدل الوطن.. بس اللي بقوله إنه الوطن ما برجع إلا بالطريقة اللي كان ممكن تمنع ضياعه.. وما أظن بأكم أسبوع اللي كان مش موجود بصير موجود.. ولا بظن أن موتنا هون في بركة الوسخ بنفع وَطَنّا ومستقبل قضيتنا..

هنا ردّ عليّ لأول مرة:

- ما بتخاف نلتهي بعيشتنا عن قضيتنا؟

أجاب مسعود دون تردد:

- لما نكون مخيّرين بين إنا نعيش وتموت قضيتنا.. أو نموت وتعيش قضيتنا.. بس مش هيك الأمور يا أبو الفهم.. القضية أكبر من حط خيمة أو رفع خيمة.. أكبر من إنا نعيِّش أولادنا أو نخلّيهم يذبلوا قدّامنا.. أكبر من الشهادات اللي كنت تخطط إلها أو تدفن حالك في الطين والجريدة اللي في إيدك.. الفرق بيني وبينك مسألة وقت بس.. مش رايح تظل قاعد قعدتك هذي تتأمّل باللي بصير وتستنى طاقة القدر. بس أنا اللي بقوله: على قد ما نسرع ونِصْحَى على حالنا ونشتغل عليها حتى نطلع من بركة الوسخ، بكون أحسن.

نهض عليّ واقفا وقد اكتسى وجهه بصرامة غير معهودة، وقال:

- يعني في ظروف مختلفة كان ممكن أحسدك على هالهمّة.. بس انت بتحكي وكأنه ما إلنا أخ مفقود.. حسن يا مسعود.. حسن.. كيف بدنا نمضي في حياتنا زي ما بتقول قبل ما نعرف طريق أخونا.. يا رجل أنت لما أجوا الجماعة يحصونا نسيت تذكر اسم حسن، لوما ذكرناك.

أطلق الأب شهقة بكاء.. ورانَ صمت الأسى على الآخرين.. ولكن مسعود قرّر أنه قد صار عليه الآن أن يواجههم بحقائق الأمور مهما تكن موجعة. فذلك أفضل من أن يقعدهم أمل قد يكون كاذباً عن النظر إلى الأمام. صاح بهم جميعاً:

- اسمعوا يا جماعة.. ما حدّ يدّعي أنه قلبه محروق على حسن أكثر مني.. والله العالِم.. واللي قدرنا عليه عملناه.. والباقي عند الله.. المهاجرين صاروا تحت كل سما.. وانتوا دايرين تقولوا ليل ونهار، وأنا بقول معكم، يمكن غزة.. يمكن سوريا.. يمكن لبنان.. يمكن الأردن.. يمكن اتسكرت الحدود وهوه بعده جوّه قام انقطع عنا.. يمكن مصاوب في مصحّة من مصحات الإغاثة أو الصليب الأحمر.. نعم.. كلّه ممكن.. وممكن برضه استشهد!

ذهب الأب في النشيج.. وشهقت الأم، وصاحت مستنكرة:

- لع.. لع..

لم يثْنِ ذلك كله مسعود عن المضي بالكلام:

- ليش لع يمّه.. يعني لما حمل بارودته وطلع يجاهد ما خطر لكم إنه ممكن يستشهد؟ هاي أبو صالح.. قديش بقى بينه وبين الموت؟

صاح عليّ بقوة مفاجئة:

- لا.. لا.

- ليش لا.. ليش لا.. يا جماعة لوينتا بدكم تظلكم تتهربوا من الحقائق..

ردّ عليّ بغضب متصاعد لم يعهده أحد منه قبل اليوم:

- ما اعرفناش إنه استشهد.. ما سمعناش.

قال مسعود:

- وما عرفناش إنه بعده حيّ.. يا جماعة، اللي عرف إنه ابنه استشهد أخذ فيه العزا وسلّم أمره لله، وانتو..

قاطعه عليّ بغضب متصاعد:

- اسكت انت.. بقول لك اسكت.

- بدّيش اسكت.. آن الأوان إني أحكي.. أخوي زي ما هوه أخوك. وقلبي محروق عليه زيّك.. بس أنا..

- شو اللي عرّفك انت شو اللي بقلبي حتى تقول زيّي.. انت شو عرّفك بحرقة القلب.. شو عرّفك بالعواطف.. طول عمرك قلبك بارد والحياة عندك حسابات!

- أنا قلبي بارد.. أنا..

- أنت النكبة دمرتك..

- مين اللي دمرته النكبة؟ اللي داير على مصلحة الكل، والا اللي قاعد لا شغلة ولا عملة، بس يتطلع في الفضاء مرة وفي الجريدة مرة.

- معلش.. فيه ناس تشوهت أجسامهم، بس انت اتشوهت من جوه.. داير تقيس أشبار حوالين الخيم.. ظل تزرع حواليها خيار وبطيخ.. أو احفر فيها بير ارتوازي واعمل فيها بيارة..

أطرق مسعود وقد اكتسى وجهه بملامح المرارة وخيبة الأمل.. وبعد لحظة صمت، قال بصوت خفيض هذه المرّة، كأنه يحدِّث نفسه:

- لو بطلع بإيدي كان بعمل هيك.. عالأقل أحسن من اللي شفته اليوم.. هذا الولد اللي كان زيّ الوردة..

وأشار إلى صلاح الابن الثاني لأبي صالح، وتابع:

- لقيته اليوم بقرط قشرة بطيخ وسخة عند مسيلة الميّ!

جذبت فتحية ولدها صلاح وضمّته إليها، بينما أطرق أبو صالح ووضع رأسه بين يديه.. أما الوالدان أبو أحمد وأم أحمد ففاضت عيونهما من الدمع! وهيمن الصمت على الجميع.. حتى قطعه لغط من مكان قريب.. كان ثمة رجلان يتشاجران على الحدود بين خيمتيهما، وتجمع آخرون حولهما يحاولون تسوية الخلاف وتهدئة الرجلين.

أرسل مسعود نظرة جديدة إلى عليّ كأنه يقول: «ما رأيك الآن؟» طأطأ عليّ رأسه وحدَّث نفسه:

«إذن فقد صار للخيمة حدّ. صارت الخيمة حقاً.. صارت الخيمة حقيقة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

رفع رأسه إلى السماء يلاحق رفاً من طيور السنونو يتجه نحو الغرب حتى غاب في حمرة الأفق حيث الشمس قاب قوسين من المغيب.. ثم حدّق في اللافتة التي كُتِب عليها خط الهدنة. أبينه وبين الأرض السليبة ذلك الخط غير المنظور الذي يبدو وهمياً وإن كان واقعاً ويقيناً كيقين الموت الذي يكمن وراءه. غلبت عليه غواية العشق القاتل والحنين المتسلّط وحسده لرفوف الطيور التي لا تحتكم لغير حريتها، أو ربّما رغبة خفية بالموت، فوجد نفسه يفز من مكانه ويركض كالمجنون حتى جاوز الحد بخطوة واحدة سريعة، ثم ارتد عنها إلى أمان المنفى الجديد بالسرعة نفسها، قبل أن تبصره الرصاصات المتربّصة. ثم جلس يلهث وينتفض وقد تدفق الدم في عروقه، وأخذ قلبه يخفق في صدره حتى شعر بأنه يوشك أن يقفز من بين ضلوعه. وما إن سكنت جوارحه حتى سمع صوت مسعود من ورائه يناديه برفق. وكان يعلم عادته في الجلوس بالقرب من الحدّ الجديد ربما إمعاناً في تعذيب نفسه أو معاقبتها على ذنب لم يقترفه.

لم يلتفت لنداء مسعود، فعاد يخاطبه:

- يالّلا يا خوي.. هذي منطقة خطرة.

قال عليّ:

- يعني هذي الإشارة بتقسم بلاد؟ شو الفرق بينها وبين الحدّ اللي كان بين عمارة الزيتون تبعتنا وأرض أبو عايد؟

- الفرق إنه ورا هذي الإشارة رصاص بقتل.. هذي الإشارة أمريكا وبريطانيا وإسرائيل والدول اللي تواطأت علينا. يالّلا ياخوي قوم معي.. الدنيا برّدت والشمس قرّبت تغرب.

صمت مسعود لحظات قبل أن يتابع:

- إذا كان بعدك ميخذ عخاطرك مني، حقك عليّ.. يمكن معك حق.. النكبة غيرتني.. بجوز أنا زي ما وصفتني..

قال عليّ:

- أنا اللي بتأسف لأني غلطت عليك ورفعت صوتي.. مش طبعي.. بجوز النكبة غيرتنا كلنا.

- بالطبع لازم تغيرنا.. ورايحة تغيرنا وتغيّر غيرنا أكثر.. بدنا وقت حتى نفيق تماماً من الصدمة.

- ممكن اللي قلته مزبوط.. ممكن استشهد.. بسّ..

قاطعه مسعود:

- أنا ما نفيت الأمل نهائياً.. بس مش لازم نغرق في الأماني.. هالمرّة بقولها بدون خجل ولا تردد.. مش لازم تكون الخيمة محطتنا الأخيرة أو مقبرتنا.. انت أول واحد فينا.. إحنا ما تعلمنا.. انت عندك شيء مش لازم تفرّط فيه.. ولا حسن بدّه إياك تستسلم.. هوه ما استسلم.. انت وضعك محير.. أكبر من الخيمة، وأقلّ من حال اللي

برّه المخيم.. ما فيش قدامك غير تكمل تعليمك.. منشانك ومنشان الكل.. وإذا كنت زمان بتفكر بشهادة واحدة، هسّع صرت تحتاج لأربعة حتى توصل للي بوصله غيرك بشهادة واحدة.. قصدي اللي ما صفّوا في المخيم زينا.. الأمل يا خوي في اللي قدامك.. في اللي جاي.. في اللي بنقدر نعمله بإيدينا.. ياللّا ياخوي.. بلاش أمك وأبوك يظلوا خايفين عليك.. بكفيهم الهمّ اللي همّه فيه.

"منذ ذلك الحين بدا كأن العائلة قد توصلت إلى اتفاق صامت على أن نتجنب الكلام في مصير حسن، وأن نترك للأقدار أن تقضي بأمره. كنا نريد أن نحتفظ بالأمل، ومن أجل ذلك كان لا بد أن نبقيه طيّ الجوانح كيلا نعرّضه لاختبار الأسئلة والمواجهة، فنخسره نتيجة ذلك. وقد بدا كأن لدينا إحساساً غامضاً أن استسلامنا لفكرة استشهاده بغير خبر قاطع يساوي استعجالنا لموته. ولذا كان يجب أن نبقي شبحه ماثلاً أمامنا في كل حين.. يعترض طريقنا أنّى مشينا.. ذاك هو الأمل حين يكون أثقل وأشد ألماً من اليأس".

من مذكرات علي الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

أم سالم المجنونة

أم سالم المجنونة

أم سالم المجنونة..

أخذت تدور على نفسها في وسط الصبيان الذين أحاطوا بها يتقافزون ويتضاحكون، وهي تضمّ الوسادة إلى صدرها بشدّة خشية أن يصاب سالم بأذى في تلك المعمعة. ثم قادهم صبي آخر إلى عبارة أخرى يكررونها على إيقاع رتيب:

سالم مات مات مات

سالم مات مات مات

زعقت زعيق القطة الجريحة:

- إن شا الله انتو والله خلفوكم يا أولاد الحرام.

فجأة قفز أحدهم واختطف منها سالم، فصاحت صيحة منكرة وركضت وراءه وقد زادها الفزع جنوناً على جنون. وبينما كان يراوغها دون أن يبتعد ليطيل اللعبة القاسية تلقّى لكمة شديدة لم يدرِ من أين جاءته فطاح أرضاً، والتقط صاحب اللكمة «سالم» منه، ومضى مسرعاً بهَ إلى أمه..

كان ذلك رشدي.

أخذت جدته تمسح وجهه المعفر بالتراب بخرقة مبلولة، وقد ترك الضرب الذي تعرّض له من الصبيان كدمات واضحة في وجهه.

- الله يكسر إيديهم واجريهم.

ثم استغفرت الله، وعدلت إلى نبرة أخرى:

- شو بدنا نقول.. أولاد جاهلين ما بعرفوا الصحّ من الغلط.. يالّلا.. الله يهديهم.. بس أهلهم.. أهلهم اللي ما بعرفوا يربّوهم ويعلموهم يرحموا خلق الله.. كيف الله بده يرحمنا إذا ما رحمنا بعض..

تدخّل أحمد الذي كان يضطجع على حشية على باب خيمته:

- سلّم إيديك يا خالي يا رشدي. هيك دايماً بدي إياك لما تشوف الغلط.. الله يقطع عيشة الظالم وعيشة الجبان.

لن ينسى رشدي نظرتها إليه حين أعاد لها ولدها - وسادتها. لم تكن نظرة جنون.. إنما كانت نظرة محبة وامتنان عميقة نفذت من خلال دمعتها إلى روحه، بل مدّت إحدى يديها إليه تلمس خدّه برفق.. ربما كانت منفصلة عن الواقع في أمر سالم.. ولكنها ما زالت تميّز بين عمل الخير وعمل الشر.. بين القسوة والرحمة، أكثر مما يميز بعض الصبيان..

علّق مسعود متهكماً:

- وبقولوا لك براءة الأطفال.. يقطع هيك براءة!

براءة الأطفال! كالعادة ذهب عليّ الصامت في التفكير.. والتأمل.

براءة الأطفال، نعم هي أحسن ما فيهم وأقسى ما فيهم. فهي براءة الطبيعة والغرائز البدائية التي تجمع بين نوازع الخير ونوازع الشر، قبل أن تسمو بها خيارات النفس الواعية أو تنحط بها حسب التربية والتجارب والظروف والأمزجة.

هذا ما خطر لعليّ وهو يستمع دون أن يفصح عنه. وبعض كلام المثقفين يمكن أن يبدو سمجاً ومتحذلقاً في غير مقامه! ومن هنا قولهم: «قاعد يتفلسف علينا».

قالت أم أحمد:

- وهالمشحّرة بدها تظلّ دايرة من محل لمحل زيّ البسّة اللي ما إلها صاحب؟ الدنيا بدت تبرّد، والشتا داخل. وهاذي ما بتعرف وين الله حاططها حتى تروح تسجّل وتدوّر إلها على خيمة تنضبّ فيها.

أرسل رشدي نظرة خاصة إلى خاله مسعود، ففهم مغزاها. وقد صار رشدي بمثابة ذراعه اليمنى في شؤون البيت على صغر سنّه.

لم يكن أصعب ما في المهمة تدبير خيمة لأم سالم ونصبها على الرغم من اعتراضات البعض على جوارها. ولكن الأصعب إقناعها بالنزول فيها.

- هذي مش دارنا.. دارنا مطروشة إلها عليّة. رجِّعني عليها يا خوي، أنا بعرفش الطريق.

هز مسعود رأسه أسفاً وتغضنت ملامح وجهه وقال كمن يحدِّث نفسه:

- واللي سمعك.

ثم خاطبها مباشرة:

- هسّع ما حدش بقدر يرجع لداره القديمة. فاهمة عليّ؟ فيه يهود بطخّوا.. هسّع انت اقعدي في هذي الدار، ولما الله يفرجها أنا بوخذك على دارك الثانية.. المطروشة وإلها عليّة.

لم تفلح محاولاته، حتى أدركه اليأس، وهمس:

- يعني البهدلة والتعب راحت كلها بلاش..

هنا تقدّم رشدي منها، ونظر إليها بتعاطف، فبادلته نظرة مثلها. وبدا أن عيونهما تتخاطب بلغة عاطفية صامتة تخترق حجب العقل، ثم قال بصوت هادئ رقيق وهو يشير إلى «سالم»:

- أم سالم؟ يمّه! حرام سالم يظلّ هيك في الهواء والبرد والشمس.. بعدين بصير له إشي.. بمرض..

نقلت بصرها بين «سالم» والشمس ويد رشدي الممدودة لها، ثم ناولته يدها، ليقودها إلى داخل الخيمة، ثم يخرج لها بعض الأغطية من «البقجة» التي جاء بها مع خاله من مركز الإغاثة. بينما كان مسعود ينظر مع ابتسامة خفيفة تجمع بين الحزن والإعجاب بابن أخته الذي يبدو منذ الآن بأنه يحمل ميراث أبيه الشهيد وأمّه الصابرة وخاله القائد المجاهد، وخاله الآخر الغائب الحاضر في أناشيد الأرض والبطولة.. وشيء من عقل خاله عليّ وحساسيته.. و.. لِمَ لا؟ شيء من نشاط خاله مسعود وصموده في عين العاصفة!

كان يحيطه بذراعه وهما عائدان من خيمة أم سالم، ثم قال:

- يعني اللي ما قدرش عليه خالك مسعود، أنت قدرت عليه!
هزّه وتابع مداعباً:
- وأنا اللي بقولوا عني شاطر وحربوك وحلّال المشاكل! هه! يعني هيك بهدلتني..
أخيراً وجدت الضحكة طريقها إليهما في وسط خيام البؤس..
وإذ غابت أزجال نوح إبراهيم القديمة في زمن الثورة.. ارتفعت أزجال الحنين والأمل معاً:

يا دار يا دار لو عدنا كما كنّا
لأطليك يا دار بعد الشيد بالحنّا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يا دار وين احبابنا ظلّوا
يا دار عنا احبابنا تخلّوا
ضاعوا بهالدنيا وسابونا
وبضياعهم ضاع العمر كلُّه
يا بيتنا يالكنت بالعالي
مزيون بجنينة على اقبالي
أصبحت مهدوم وصرت أطلال
ما دريت يا هالبيت في حالي
يا دار يا دمعة ع خدّي تقول
يا دار يا جنح الوفا الميمون
يا دار وين السهل والمرعى
بكيَتْ علينا شجرة الزيتون
يا دارنا يا دمعة المسكين
يا دارنا يا بسمة الحلوين
يا دارنا يا رمز للإنسان
يا دارنا يا زهرة بفلسطين
يا بيتنا المبني على التلّ
قل لي حبيبي إن كان غيري حَلّ
يا بيتنا هالغربة ذلتنا
وحُكْم الزمن بالويل ويلي حلّ
يا دار ليش الغربة ذلتنا
والبوم ينعق بأرض قريتنا
صرنا طيور بهالسما بنعيش

ونحلم بجمعتنا وعودتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

ضباب ثقيل يغلّف المكان، كالضباب الذي يملأ صدره وروحه، وهو يجلس كعادته وحيداً أمام الحدود التي تقطع سهل طولكرم، في عصر ذلك اليوم الشتائيّ، ويصغي إلى نداء البحر الأسير على بُعد خمسة عشر كيلومتراً فقط، حيث قرية «أم خالد» التي سيزيلها العدو الغازي عن الوجود ويترجمها إلى بلدة جديدة مستعارة من البلاد البعيدة التي جاء منها اسمها «نتانيا». صمت مطبق إلا من رنين الكون في أذنه. وفجأة بدا له طيف يقبل من وراء الحدود عبر الضباب.. تنبهت حواسه كلّها ولم يدرِ هل يفرّ من مكانه أم يجازف بالبقاء والنظر. ولكن شيئاً ما جعله يتسمّر في مكانه ويمعن النظر في الطيف القادم الذي ما يزال الضباب الكثيف يخفي ملامحه. حتى صار قريباً من خط الهدنة وبدأ الضباب ينجلي عنه..

حسن! أهذا حسن؟ هل حدثت المعجزة أخيراً واستطاع حسن أخيراً أن يتسلل من حقول الموت إلى حدود طولكرم؟ وأي توافق عجائبي هذا الذي أقعده أمام الحدود في لحظة وصول أخيه الحبيب! أم هو الآن في حلم؟ فمثل هذا لا يحدث إلا في الأحلام. ولكن، لو كان حلماً حقاً لما وقع في نفسه ذلك السؤال. فالإنسان السادر في حلمه لا ينفصل عن الحلم ليراقبه ويتساءل عن حقيقته وهو في داخله! والحدود على كل حال ما تزال سائبة بقدر ما، والسيطرة عليها ليست محكمة تماماً، وما زال بعض الناس يتسللون عبرها في الاتجاهين.

فزّ من مكانه، وبدا أن الأخوين قد ميّز كل منهما الآخر، وتبادلا صيحة مكتومة ومدّ كل منهما يديه في اتجاه الآخر.. وإذ بلغ حسن لافتة «خط الهدنة» وبقي أن يتجاوزها بخطوة واحدة فقط عاجَلْته الطلقات النارية من خلفه، فانكبّ على اللافتة وتدلت ذراعاه عليها. وصرخ عليّ صرخة متفجّعة صعدت من أغوار روحه ورجّت الكون.

فزعت إليه أمه وأبوه ورشدي من ورائهما، وأخذت أمه تهزّه على فراشه لتوقظه مما بدا كابوساً مفزعاً:

- اسم الله عليك يمّه!

فتح عينيه منتفضاً، بدت نظرته تائهة في فراغ عدميّ لا شواهد فيه.

- تلاقيه كابوس يمّه.. تف على شمالك واتعوّذ بالله من الشيطان.

بلى، لم يكن غير حلم وكابوس في آخر المطاف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

أما كابوس المنام، فلا يلبث الإنسان أن يفيق منه..

وأما حقائق الواقع الجديد المرير، فيحتاج بعض الناس إلى وقت أطول وإلى أكثر من هزّة ليفيقوا عليها، من أسر عالمهم القديم.

وها هي لطيفة تأبى أن تنسلخ من ماضي الوجاهة التي كانت عليها أسرتها في قرية لم يتأخر الغزاة في مسحها عن الوجود، ومعها وجاهة وجهائها الذين وحّدهم شتاء المخيم والمنفى مع من كانوا يكدحون في أراضيهم، ومع من كانوا يصفونهم بـ «الغربيّة المقطعين»!

ذهبت الدار والتنّور والبئر الخاص الذي يملأه ماء الشتاء.. وصار على أهل المخيم أن ينقلوا الماء من الصهاريج العامة أو الآبار التي تسقي المزارع وأباحها أصحابها لأهل المخيم تقرباً إلى الله واحتساباً. فكان على النساء أن يمشين مسافات ذهاباً إلى مصدر الماء وعودة منها، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، وعلى رؤوسهن الأوعية والتنك. وذهبت المزارع الخاصة التي كانت تمدّ أصحابها بطعامهم من زرع أيديهم، وحلّت محل ذلك طوابير الإغاثة المذلّة التي يتزاحم عليها المنكوبون، وتلجئهم الحاجة وغريزة البقاء اليوميّ إلى أن تسوء أخلاقهم فيدافع بعضهم بعضاً حتى الشجار الذي ينتهي بالدعاء على من رمى بهم هذه الرمية. وإذ لم تكن مُؤَن الإغاثة كافية لسدّ حاجاتهم، فقد صار المال الآن الوسيط الضروري بين الناس وحاجاتهم بعد أن كان المنتج والمستهلك الريفي واحداً في أيام البلاد في معظم الأحوال. والمال الآن عزيز، ولا بدّ من البحث عن العمل في مزارع طولكرم وفي غير ذلك من الأعمال مهما تَبْدُ وضيعة. وإذ تكاثر الباحثون عن العمل فوق حاجة السوق، فقد كان لا بدّ أن تنخفض الأجور، حتى أن عمل النهار كلّه لا يأتي بأكثر من قروش قليلة.. وهذا لصاحب الحظ الذي يتم انتقاؤه قبل أن يُصْرَف الآخرون بالخيبة.

كل هذا ولم يفق أبو عايد بعد على واقعه البائس الجديد، ولم تفق معه ابنته لطيفة. وبقيت المقامات القديمة تطاردهما. بينما لم يتأخر مسعود عن الانخراط في أي عمل يومي يتاح له: السقي في المزارع، والقطف، وتحميل صناديق الخضار، وأعمال البناء، وحتى «العتالة». ثمة أفواه كثير تعتمد عليه: أسرة أخيه «أبو صالح» الذي ما زالت إصابته تقعده، وأبواه، ونفسه وزوجته لطيفة، ورشدي ابن أخته.. و.. أخوه عليّ الذي لا تنفعه شهادته الآن إلى أن تستقر الأمور وتعمل وكالة غوث اللاجئين القادمة على فتح مدارس لأبناء اللاجئين.

وبدلاً من أن تفخر لطيفة بزوجها الذي يتولّى رعاية الجميع دون شكوى ويصل الليل بالنهار، ليجنّب أهله الجوع والمذلة ما وسعه ذلك، ويجنب الصغار أن يقضموا قشر البطيخ الملقى عند مجاري الماء والغسيل، وأن يبحثوا في التراب عن سقط التمر الذي جادت به معسكرات الجيش العراقي قبل أن يرجع إلى دياره، بدلاً من ذلك، كانت تشعر بالغيظ أن يوزّع زوجها حصاد تعبه وعمله على الجميع، فلا يبقى له ولها إلا القليل. فإن كان ذلك ولا بد، فلا أقلّ من أن تجزيها أم أحمد ورشدي بأن يحسبا حسابها في نقل الماء، أسوةً بالمدنية الحيفاوية التي تسهر على زوجها المصاب وأولادها الثلاثة، وبينهم طفلة صغيرة من مواليد النكبة. وها هي «حليمة،

قد عادت إلى عادتها القديمة»: فما إن عادت أم أحمد ورشدي من النقلة الثانية للماء، وقد أنهكهما التعب، حتى برزت من خيمتها، وطلبت من رشدي بلهجة آمرة أن يعود فيحمل لها نقلتين على الأقل.

ردّتها أم أحمد بنبرة رادعة:

- الولد انقطع ظهره.. وليش حضرتك ما هزيتِ طولك واطلعتي معنا ونقلت زي كل الخلق!

ثم توجهت إلى رشدي بالكلام:

- فوت يا ستّي.. فوت اتريّح الله يرضى عليك.

ولكن لطيفة قرّرت أن تواجه هذه المرّة:

- زيّ كل الخلق بتقولي؟ ومرة ابنك أبو صالح مش من الخلق؟ ليش ما طلعت الثانية معك تناقل؟ وليش الغَوَز والتفريق.. بهز طولي لما بنت الحسب والنسب بتهز طولها.. والا محمد يرث ومحمد لا يرث؟

قالت أم أحمد:

- طب ضبي لسانك وريحينا.. يا إما بتطلعي تناقلي ميّة لحالك، يا إما بتنضبي بخيمتك. والا يعني عشان الولد لا أم ولا أبو بدّك تشغليه خدّام عندك؟

ردّت لطيفة:

- هاي جوزي خدّام للجميع!

صاحت أم أحمد:

- جوزك ابني قبل ما يصير جوزك.

هنا سُمِع صوت مسعود عائداً:

- شو فيه؟

صمتت أم أحمد واتجهت إلى خيمتها، فلاحقها مسعود بالسؤال:

- ما فيه شيء يمّة. خير إن شا الله..

ارتدّ إلى خيمته، وبعد لحظات سُمِع صوت لطيفة مرتفعاً غاضباً متحدياً:

- إذا بدّك انت روح ناقل ميّة إلك ولأمك وأخوك ومرة أخوك.. إذا المدنية مش متعودة، أنا برضه مش متعودة.. انت عارف أنا مين وبنت مين..

تصاعد صوت مسعود:

- ولك وينتا بدك تفيقي وتفهمي.. كلنا صرنا أولاد خيمة.. طلّي برّة واطلعي، وين إحنا؟ شوفي إذا فيه خيمة بتفرق عن خيمة.. هوه إذا فيه إشي مليح في هالزفت اللي إحنا فيه، إنه صار أبوك واللي كانوا يبوسوا إيده في خرج واحد.

- بحق لك يا مسعود. بس الحق مش عليك، الحق على اللي رضي فيك.. خصم الحكي ابن أختك بدّه يناقل لي ميّة.

- ابن أختي مش خدّام عند اللي خلفوك.

- سيده وسيد سيده بقى خدّام عند اجرين اللي خلفوني..

- الله يقطع اجريك واجرين اللي خلفوك.

- الله يقطع اجريك انت وإيديك.

طفح الكيل، وآن أوان تصريف الغضب المتراكم منذ زمن.. وهو لم يغفر لها نسيان مصوغاتها الذهبية التي بذلت فيها الأسرة مدخراتها حين صارت أحوج ما تكون إليها.. وأخذت تولول وتصيح وهو يتابع صفعها دون توقف، حتى وصلت أمه وأبوه اللذان هرعا إلى خيمة مسعود على الصياح والشتائم والضرب. جذبت أم أحمد مسعود وحالت بينه وبين لطيفة التي كانت منطرحة على الأرض.

- له يمّه.. له يمّه.. سمّعْتوا الخلق علينا.. إحنا مش هيك.

قال مسعود لاهثاً:

- بدّي أنعل أبو منين أجت.. أنا صابر صابر من يوم ما اتشحرت واتجوزتها. بدّي أفش نار قلبي فيها وفي أبوها واللي خلفوها.

هرولت لطيفة إلى خارج الخيمة لتذهب إلى خيمة أبيها، ولاحقتها أم أحمد:

- فوتي يا لطيفة على بيتك وبلاش فضايح واخزي الشيطان.

مضت لطيفة مسرعة في طريقها وهي تهدد بصوت مرتفع:

- والله لأوريك يا مقطّع.. استنى لما يجيك الزلام اللي بوكلوا الحجر.

صاح مسعود من ورائها متهكماً:

- هه.. بوكلوا الحجر! زمان ياختي.. هسّع بوكلوا التمر المدوّد وسمن الكوكز تبع الصليب الأحمر.

قالت أم أحمد تهدّئه:

- له يا مسعود.. إلحق مرتك رجّعها.. عيب.

- خليها تتجهنم لحتى تفيق على الشحار اللي صرنا كلنا فيه.

تحامل أبو صالح على نفسه ونهض من فراشه وقف على باب خيمته، وقالت أم أحمد:

- فوت يمّه فوت خليك متريّح.. إحنا بنُدخل عندك.

وحين التفت العائلة حوله، قال معاتباً مسعود:

- إحنا مش هيك يا اخوي.. إحنا ما بنضرب النسوان.

- ما هي مش قابلة تفهم إنه عز أبوها راح وقاعدة تتأمّر..

قاطعه أحمد:

- يا ريت ما راح عزّه. وما راح إلا لما راحت البلاد.

- خلّيها تتهنّا هسّع بخيمة أبوها.

قال أحمد:

- لا تظلك تقول أبوها.. أنا أكثر واحد ذاق من أبوها.. وانت من بينا كنت داير عالسلامة.. هسّع لما صار تاريخ قديم وانت نسيبه صرت..

قاطعه مسعود:

- لا والله ما يوم من الأيام نسيت اللي عمله فينا هذيك الأيام. «غربيّة مقطعين»!! وهسّع بنته جايي تقول: خدّامين عند اجرين أبوي؟.. طيب هاذ وقت الحساب.

- اللي رضي يناسبك أيام عزّه، لازم هسّع تراعيه.. مش لما ضعف تتذكر الثارات القديمة. وأخوها عايد صار بيني وبينه أكثر من العيش والملح.. وانت عارف.. حاربنا بخندق واحد، واختلط دمي بدمه. ومليح إنه هالمشكلة صارت وهوه هسّع في الزرقا طالع يشوف قرايبه.. كرمال عينيه بدك تتحملها..

أطرق مسعود، ثم قال:

- كلامك على عيني وراسي يا أبو صالح.. بس هيه لازم تعرف إنه الحال تغيّر.. بدها تناقل المية على راسها زي كل الخلق.. زي أمي وإمك الكبيرة.. وبدها تنزل تلقط في المزارع بالأجرة.. ما فيه حد كبير عالشغل.. غير هيك ما بنقدر نعيش.. ما حدّش بوكل وبشرب من قصص الماضي.. كنا وبقينا.. هسّع بسّ وين إحنا وشو اللي قدامنا وشو بنقدر نعمل لحتى نطلع من هالوحل اللي إحنا فيه..

ثم التفت إلى أخيه عليّ الصامت، وأرسل إليه نظرة ذات مغزى. ثم تنبهوا جميعاً إلى «أبو أحمد» يطلق تنهيدة طويلة وقد غامت نظراته:

- يعني هالعيشة بدها تطول؟ خلص!! راحت أيام البلاد؟

ردّ مسعود بأسلوب اجتهد أن يكون متلطفاً:

- يابا.. إن شا الله بترجع.. بس ما بنقدر نظلنا قاعدين مطرحنا نستنى طاقة القدر، والا اللي تآمروا علينا تصحى ضمايرهم ويخافوا الله فينا.. أينعم، ببعثولنا شوية مساعدات.. مش هيك بترجع البلاد يابا.. ولهذاك الوقت لازم نتعب ونجتهد حتى هذول الأولاد يشوفوا أيام أحسن من أيامنا هذي.. والحيّ ما بنسى..

لم يتأخر أبو عايد في القدوم مسرعاً وهو يتنفّخ غضباً، ووقف على الحاجز الوطيء الذي رفعه مسعود ورشدي حول خيام الأسرة، وصاح ينادي مسعود بعكس معنى اسمه:

- متعوس!

بينما تجاهله مسعود وتوجه إلى برميل الماء ليغترف منه ويشرب، تلقته أم أحمد:

- أبو عايد.. أهلاً وسهلاً.. تفضل يا خوي، تفضل.

- أنا مش جاي أتفضل أنا جاي أعلم هالهامل كيف يمد إيده على ستّه وبنت سيده.. ولَك أنا ما أنذرتك من قبل إذا عمرك بتغلط عليها؟

استدار مسعود وتقدّم نحوه وصاح متحدياً:

- آه، شو بدّك تعمل يا أبو عايد؟ بتحرق الطابون تبعنا؟ بتقوّر زتوناتنا؟ بتحرمنا من عصر الزيتون تبعنا في معصرتك؟ تايخرب الزتون ونبيعه بتراب المصاري؟ بتسمّ الحمار تبعنا؟ والا بتحرق الغلّة تبعتنا؟ خلص يا أبو عايد.. العصاه اللي بقيت تضرب فيها راحت، إلّا يمكن عمود الخيمة تبعتك. بس في هالحال اتذكّر إنه عمود خيمتك مش أكبر من عمود خيمتنا..

أطلّ أحمد متحاملاً على نفسه:

- بس يا مسعود.. تعال اقعد يا أبو عايد.. التفاهم أحسن.

رد أبو عايد:

- التفاهم؟ مع مين؟ سامع الهامل شو بقول؟ سامع؟

تابع مسعود:

- إذا بنتك بدها تظلّ على حكمك، قعّدها عندك، وطعميها من حصتك من مؤن الإغاثة.. أما إذا بدها تقعد هون بدها تكون على حكمي.. على حكم المخيم. بدها تنقل الميّة على راسها.. ومش بس هيك، بدها تنزل تشتغل في المقاثي والمزارع، تقلع عشب وتلقط بندورة وخيار.. وبدها تنسى تماماً أيام زمان.. وانت برضه يا أبو عايد، بدك تنسى أيام زمان.

- اخسه.. اخسه يا قليل الحيا.. أنا أبو عايد طالت والا قصرت، راحت ولا أجت.

- ابشر يا خوي ابشر.. طالت. بس انت اللي مش صاحي.. في مثلك في هالمخيم.. أبو أسعد اليحيى.. بلده كانت كلها إله، وكان يضرب الفلاحين بالكرباج.. هيّو طلعت خيمته لزق واحد من اللي انجلدوا بكرباجه. شو رايك؟

- أي والله لأدفْعَك إياها من جلدك يا متعوس.. والله ليجي اليوم.

- اليوم اللي جاي إلي مش إلك يا أبو عايد.. انت بقي راس مالك في أرضك.. والأرض طارت.. إحنا راس مالنا واحد متعلّم، وصنعة بإيدي.. وهذول بدُوروا مع صاحبهم وين بدُور. هون والا هناك.. وفوق هذا اللي زينا ما بهمّه يعتل على ظهره وينزل عالمقاثي يحرث ويدرس ويقلّع للناس.. انت لا.. وجاهة الأيام الماضية ثقيلة على كتافك. صعب عليك تشتغل للناس بأكم قرش في اليوم بعد ما كان جيش يشتغل في أرضك وانت قاعد تؤمر وتنهى وتحلّ وترسم. بدك سنين حتى الشقا يكسر نفسك زي ما كَسَرْت نفوس العالم.. بس لما هذا بصير في الأخير، وصدّقني رايح يصير، بنكون إحنا صرنا قدامك بكثير.. روح.. روح لخيمتك وفكّر باللي سمعته.. يمكن ينفعك.

أحقاً هذا مسعود الذي كان يؤثِر السلامة والوداعة وتجنب المواجهات؟ من أين جاء هذا الغضب الجارف الذي انفجر كالبركان مرة واحدة؟ هل كان يختزنه ويكتمه في أعماق نفسه كل تلك السنين حتى سقطت الروادع أخيراً فأطلقه كزخات الرصاص الذي لم يستطع أن يطلقه على العدوّ الغازي وهو يقضم وطنه، إذ وقف يعدّد على أبو عايد كل تلك الجرائم القديمة التي اقترفها في حق أسرته! على أنه أمسك نفسه عن ذكر الجريمة الكبرى. ولم يردعه عن ذكرها إلا خشية أن يثير مواجع أهله. وتلك تواطؤه مع المختار لتحريض أبناء عمومة جميلة، حتى انتهى ذلك بمقتلها ظلماً وبهتاناً، وكسر قلب أخيه الغائب المجهول المصير: حسن. فعلى الرغم من أنه لم يتدخّل في مجرى تلك الوقائع العاصفة في ذلك الحين، ونأى بنفسه عن المشادّات والمواجهات التي صحبتها، فإن المأساة التي نتجت عنها ظلت وجعه الأكبر الذي يطوي عليه جوانحه، وإن أخفى به وكتمه، حتى ظن إخوته أنه لم يكن ليعبأ بالأمر كثيراً على عادته. والآن تضاعف ذلك الوجع واتسع جرحه النازف مع الأسى المقيم على غيبة حسن ومصيره المجهول وطيفه الحاضر. فاليوم يظهر للأسرة وجه آخر لمسعود كانوا يجهلونه.

وحدّث عليّ نفسه أن الإنسان كائن معقّد، تعرف منه وتجهل، مهما يكن قريباً منك، ولا يعلم دواخله إلا الله، وربّما لا يحيط هو نفسها بها كلها حتى تخرجها الظروف

والاختبارات. ألم يقل الله عن نفسه: (يعلم السرّ وأخفى)؟ لعل مثل هذا مما يخفى على الإنسان من نفسه! وهل الإنسان شخصيته واحدة ثابتة أم هو جملة من الشخصيات يغالب بعضها بعضاً، أو تغلّب الظروف بعضها على بعض في الوقت المناسب؟ مهما يكن.. فقد بدا لعليّ في تلك اللحظة أن هذا زمن مسعود الذي يحتمل الآن مسؤولية الأسرة جميعها بكل إقبال وتفانٍ، وتختلط المشاعر نحوه بين الإعجاب بنظرته العملية في وسط الظروف العامة المعتمة المحبطة، وبين شيء من النفور من سبب الإعجاب نفسه!

أصابت طلقات مسعود مقتلاً من أبو عايد فحين رجع إلى خيمته لم يلتفت إلى ابنته لطيفة التي كانت تنتظر نتيجة المواجهة، ومضى إلى زاوية معتمة من الخيمة وجلس مطرقاً. وفجأة ذهب في نشيج طويل لم يستطع أن يحبسه!

ولم يطل الوقت حتى عاد عايد من الزرقاء. وأصرّ أبو صالح على أن يمضي معه بنفسه على الرغم من وضعه الصحيّ الهش، إلى خيمة «أبو عايد»، ليعيد لطيفة إلى زوجها. وقد أدركت الآن أنها امرأة مسعود في المقام الأول، وأن خيمته خيمتها!

وكان على فتحية، ابنة حيفا المدنية، أن تتكيف أيضاً، وأن تشارك بكل نشاط في أعمال «البيت»! فتعلمت الخبز على الصاج، وأخفقت محاولاتها الأولى ووجدت لطيفة سبباً للضحك المعذور التي شاركتها أم أحمد وفتحية نفسها به، حتى أتقنته أخيراً، ونافست بجودته لطيفة، وكانت أم أحمد حَكَماً عدلاً بينهما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

بينما لبث عليّ على حاله من الصمت والتأمّل وانتظار ما يأتي ولا يأتي، تابع مسعود نشاطه المحموم في كل أنواع العمل المتاح والمزاحمة عليه دون ترفّع عن شيء، ليسد حاجات الأسرة.

سبق سائر الحمالين إلى الكيس الثقيل وهَمّ أن يرفعه على ظهره، فأسرع صاحبه إلى المساومة:

- قبل ما تشيل.. قدّيش بدّك.. اللي أوله اتفاق آخره رضا.

قال مسعود:

- لوين بدّك؟

- دكانتي عند المنشية.. تلا المقبرة.

- قرش.

- لأ. تعريفة.

- المقبرة في آخر البلد، وجاي على طلعة. يعني ما بِصَل الواحد إلّا وظهره منقطع.

- ما بدّك. خليني أشوف غيرك.

أسرع حمّال آخر إلى عرض نفسه.

- تعريفة تعريفة.

أزاحه مسعود، ورفع الكيس:

- يالّلا.. أمرنا لله..

قال صاحب الكيس مؤكداً:

- تعريفة.

- يا سيدي تعريفة.. وإذا بدك بحملك فوقه. شغل قليل وشغّيلة كثير يساوي استغلال.

قال الرجل متهكماً:

- عتّال والّا فيلسوف الأخ؟

أجاب مسعود:

- لاجئ.

أضاف حمال آخر ضاحكاً:

- بعيد عنك!

ضحك الحضور، وضحك معهم مسعود، ومضى بالكيس الثقيل.

"نهار آخر، ولم يعد حسن بعد! ولا جاءنا خبر عنه. نهار آخر، ولم تطل علينا تلك الجبهة العالية التي استعارت صلابتها من صخر البلاد، وهيبتها من جبالها.. لم يعد حسن، ولم يعد معه الصوت الذي أعار الخيول الجامحة صهيلها، والبحر هديره.. ولم ينفلق عنه الصباح حيًّا، ولم يطوِه المساء مَيْتاً.. فلا نحن نستطيع أن نعلنه حياً يُرجَى، ولا ميتاً يُنعى.

نهار آخر، ثم يسقط المساء في قلبي وأضل طريقي إلى نفسي. وأحاول عبثا أن أصطاد نجمةً ضلّت طريقها إلى الخيمة.. عبثاً أحاول، فالنجوم لا تزور الخيام.

أطفال شبه عراة يتراكضون ويتصايحون بين الخيام، وقد علا وجوههم قذر الفقر والأوساخ، مع قلة الاستحمام.. فالماء عزيز.. ومسيلات الماء القذر تحاصر المشاة.. وطوابير طويلة تقف أمام المراحيض القليلة العامة التي حُفِرت هنا وهناك ورفعت جدرانها من الصفيح، وكلٌّ ينتظر دوره وقد حمل بيده إبريقاً أو كيلة ماء. وأكوام القمامة تتراكم هنا وهناك.

كانت الظروف البيئية المزرية تتفاقم بسرعة. لم تكن خشونة العيش جديدة علينا. ولكننا نختبر الآن أوضاعاً جديدة من البؤس، ونضطر إلى فعل ما لم نكن نتصوّر من قبل أننا يمكن أن نفعله. إننا ننحدر بسرعة إلى حيث لا يبقى غير غريزة البقاء بأي ثمن. علينا أن نتخلى عما نصفه بالمشاعر المرهفة لأنها الآن تعوق قدرتنا على التكيف والبقاء. ولكن إلى أي حدّ نستطيع أن نفعل ذلك دون أن نخسر إنسانيتنا.. دون أن نتخلّى عن احترام الذات؟!". ■

من مذكرات علي الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

«شغل قليل ولاجئين كثير يساوي استغلال».

صارت هذه عبارة أثيرة عند مسعود، أشبه بالشعار، كلما وقف بين العُمّال الذين يتجمعون في سوق الدواب القريب من المخيم منذ مطلع الصباح حتى يأتي أصحاب العمل وينتقوا منهم حاجتهم، بالأجور التي يفرضونها دون مجال للمساومة. لم يكن مسعود في حاجة إلى أن يكون يسارياً أو شيوعياً ليكتشف هذه القاعدة. وبالطبع فإن عُمّال المدينة من غير اللاجئين، وهم الذين ستلحق بهم صفة «الوطنية» تمييزاً لهم عن أهل المخيم، قد وجدوا أنفسهم يعانون من تناقص فرصهم وأجورهم مع زيادة العرض في اليد العاملة والتنافس على سوق العمل. فتوزّعت مشاعرهم تجاه إخوانهم اللاجئين بين التعاطف التي تفرضه الروح الوطنية والإنسانية، وبين التبرّم والضيق اللذين يدفع إليهما التنازع على رزق العيال. فليس كل «الوطنية» في حال أفضل بكثير من اللاجئ. إلا أن وصمة «اللاجئ» المتنامية لا تلحق به، وسيرجع في آخر النهار إلى غرفة مهما يبلغ تواضعها أو بؤسها فلن يبلغ حال الخيمة والمخيم.

ثلاثة قروش أجرة يوم كامل في العمل في «صبّة» الإسمنت لعقد البناء. فمن شاء فليأخذ ومن شاء فليدع. كان هذا شرط صاحب «الورشة» في صباح ذلك اليوم. وحين مضى مسعود مع جملة العُمّال الآخرين الذين قبلوا بالعرض، سمع أحد العُمّال الوطنية يقول:

- هاللاجئين قطعوا نصيبنا من الشغل في بلدنا.

بلدنا! أليست هذه البلدة في الجزء الصغير الذي تبقّى من فلسطين خارج الدولة الصهيونية الجديدة.. الجزء الذي سيُعرَف بالضفة الغربيّة؟

تلفت مسعود وعلّق قائلاً:

- قول الله يلعن اللي قطع نصيبنا ونصيبكم..

ثم تابع سيره وهو يهز رأسه أسفاً وقال متهكماً:

- لا والله محسودين.

ولكن مسعود كان قد خرج من ترديد شعاره الذي يصف واقع العمل وما ينطوي عليه من الاستغلال، إلى إرادة تحدّيه والتمرّد عليه، ولو كان ذلك بأسلوب قد يوصف بالمكر والالتواء. فما إن انتصف نهار العمل وانزوى العُمّال في استراحة قصيرة لتناول الطعام الذي جاؤوا به معهم، وجلّه خبز وبصل، حتى بدأ خطته في فرض الأمر الواقع على صاحب الورشة وتغيير قواعد اللعب في وسطه، لإلزامه رفع الأجرة. فصبّة الإسمنت الآن في منتصفها، ولا يسع صاحب الورشة أن يتوقف العمل فيها الآن حتى يبحث عن عُمّال آخرين قد تفرّقوا وانفضّ جمعهم. فلو ساوموه على رفع الأجرة إلى خمسة قروش وإلا تركوه، فلا بد أن يخضع مضطراً. اعترض أحد العُمّال بأن هذا عيب وحرام بعد أن وقع الاتفاق والتراضي. والذي أوّله شرط آخره رضا. فردّ مسعود بأن العيب والحرام هما في استغلال حاجة التعساء المضطرين، والدواء النجس للدمّل الخبيث!

كانت لهجته القوية المفعمة بالثقة والتصميم هي التي أقنعت الآخرين في الانقياد لخطته، في المقام الأول. وحين ناداهم صاحب الورشة لاستئناف العمل وإبداء الهمّة، تقدّم إليه مسعود:

- يا بو علي.. الله يمسّيك بالخير.

كانت هذه المقدمة الظاهرة البراءة كافية ليتوجّس صاحب العمل بأن وراء الأكمة ما وراءها. فقد علّمته التجارب الكثيرة ودواعي الجشع والتغالب على المصالح أن يقرأ كتب النفوس من عناوينها! وتابع مسعود:

- إحنا لما اتفقنا على ثلاث قروش ما بقينا حاسبين إنه الورشة كبيرة هالقد.. يعني قد ورشتين من اللي تعودنا نشتغل فيهم.. والشغيلة الوطنية ما بقبلوا عليها أقل من سبع قروش.. إحنا يا سيدي بنقبل خمسة.. خلّي الله يباركلك فيها.

هز صاحب الورشة رأسه مع ابتسامة خبيثة:

- زي ما توقعت من أول ما بديت تحكي.. هالهيلمات مرّت عليّ من قبل. بتقولوا الصبّة في نصها والزلمة مضطر. يعني بدكم تلووا إيدي. كان غيرك أشطر.. طب عليّ الطلاق بالثلاثة ما بتشموا فلس فوق الثلاث قروش اللي اتفقنا عليها، لو بكسر الصبّة وببدا من جديد. بس لا تخافوا على أبو علي عند الحاجة أولادي وإخوتي وأولاد إخوتي وأولاد عمي جاهزين.. هيك بتكونوا وفرتوا عليّ.. يالّلا توكلوا على الله.

بدا شيء من التردد على وجوه العُمّال، واتجهت أنظارهم إلى مسعود الذي أومأ لهم برأسه أن يلحقوا به إذ ارتد منسحباً عن المكان.. ووقف صاحب الورشة يراقبهم وهم يبتعدون ببطء، بينما همس لهم مسعود ألا يتوقفوا، وأنها حرب أعصاب، وما يلبث صاحب الورشة أن يلحق بهم إذ يرى عزمهم.

ولكن صاحب الورشة لم يفعل، حتى بدأ بعض أصحاب مسعود يبطئون ثم يتوقفون على الرغم من إلحاحه، ثم بدأ بعضهم يرجع إلى الورشة ولحق بعضهم بعضاً، حتى بقي مسعود وحده. تردّد بين كرامته وحاجته، حتى غلبت الحاجة، فارتد وراءهم منكسراً.

خاطبهم صاحب الورشة وقد اكتسب قوة جديدة فوق قوته، بأن في وسعه أن يطردهم لأنهم كسروا الاتفاق وأخّروا الشغل، ولكنه يذكر بأنهم أولاد بلد وعندهم أولاد. ثم نظر إلى مسعود:

- انت لأ. مش ناقصني هون زعما. ومنشان أوريك إني زلمة حقّاني وبخاف الله، هاي قرش ونص عن نص نهار. وروح توكل على الله.

كان يغلي غضباً وهو عائد بخيبته.. على الزعماء وأصحاب العمل والعُمّال الجبناء الذين خذلوه فخذلوا أنفسهم..

وحين وصل «حوش» خيمات الأسرة تلقته أمه وقد أحسّت ضيقه وغضبه:

- ما لك راجع من نص النهار.

رفع عقاله وقذفه إلى الأرض وهو يصيح بانفعال عارم:

- خنازير.. خنازير.. عالم خنازير.

ثم التفت إلى أخيه عليّ الذي كان يجلس مستندا إلى جدار الحوش الوطيء ويتصفح الجريدة وقد طال شعر ذقنه وبدا في حالة مزرية:

- وانت يا أفندي.. لوينتا بدك تظل قاعد في هالقرف. شو اللي داير عليه في الجريدة؟ أخبار الأمم المتحدة؟ تصريحات الزعما عن حقوق الشعب الفلسطيني واللاجئين؟ الدولة المزعومة؟ العودة القريبة؟ اصحى يا غافل.. اصحى يا متعلم.. شوف حالك كيف صرت.. شوف حالنا.

ثم هرول بسرعة إلى خيمة الأبوين وعاد بفرشاة حلاقة وصحن فيه قطعة صابون وماء ومرآة صغيرة. وأمام أعين الأسرة كلها أخذ يرغي الصابون بالفرشاة متقدَّما نحو أخيه الذي بقي صامتاً دون أن يرفع رأسه عن الجريدة، وتابع مسعود:

- أنا زهقت منك ومن قعدتك ومن سلبيتك.

وبدأ يطلو ذقنه بالصابون، دون أن يتوقف عن الكلام الذي كان يتفجّر من فمه وصدره:

- آن الأوان تصحى من أوهامك وأحلامك.. هذي الدنيا ما انخلقت للحالمين..

وضع آلة الحلاقة والمرآة في يد عليّ بعد أن سحب منه الجريدة.

ولم يجد عليّ إلا أن يقول:

- وين بدّي أروح؟ هوه فيه معارف والا دولة ومدارس؟

- دروس خصوصية.. أي شي لوقت ما يصير فيه شي.. لوقت ما تيجي وكالة الغوث أو وكالة الزفت.

ردّ علّ بنبرة مفعمة بالمرارة:

- هه! دروس خصوصية! خليت الدنيا من المعلمين حتى يدوّر الناس على ابن مخيم يدخلوه دورهم؟ إحنا طاعون.. عِشْرة وسخة.. إحنا أولاد المخيم والناس «الوطنية».

صاح مسعود بكل ما أمدّته المرارات من قوة كأنه يخاطب العالم كله:

- ما هذا اللي صار لي شهور بحال أفهمك إياه يا أبو الفهم. انت من بينا كلنا، كل ما عجّلت في الطلوع من المخيم كل ما كان أحسن إلك وإلنا.. الدنيا كلها موجودة برّا المخيم.. مش رايحة تجيك هون. بتخاف من القمل وريحة المجاري الوسخة والمسبّات.. مش رايحة تفتح لك إيديها.. العالم كلّه تآمر علينا ورمانا للخيمة.. عشان هيك صار كلّه حقنا.. اللي ملوش بيت كل البيوت بيته؛ اللي مالوش حق كل الدنيا حقه.. اللي ملوش عنوان كل العناوين عنوانه.. اطلع برّه يا أستاذ.. اطلع من القرف. بدال ما تتلقح تحت عمود الخيمة اخلعه واطلع فيه.. خذ حقك فيه بالمليحة والا بالعاطلة.. تقولّيش بصير وبصيرش.. إذا إسرائيل قامت كل شي بصير.. اللاجئ الأفندي اللي طلع من دار لدار ومعه مصاري، غير اللاجئ اللي انتهى في المخيم.. الخيمة اللي خلّتنا غُربا حتى هون في وطنّا.. ما هذي برضه من فلسطين.. واحنا فلسطينية.. ومع هيك وطنيّة ولاجئين! ولاجئ بخيمة ولاجئ بدون خيمة.. إذن كل شي بصير.. كل شي بصير.

ما إن انتهى من تلك المرافعة حتى كان قد أنفق طاقته، واتجه مسرعاً إلى خيمته لاهثاً، مخلَّفا الجميع في حالة من الصمت والذهول والأسى والتفكّر.

مسح عليّ الصابون عن ذقنه بالجريدة، وقذف آلة الحلاقة والمرآة أمامه، وأشاح بوجهه عن الجميع، وبنفسه عن نفسه!

بعد تلك الواقعة، قرّر مسعود أنه لن يكرر أي عمل من أعمال التمرد والاحتجاج على أرباب العمل مهما يبلغ استغلالهم. ولم يكن ذلك استسلاماً وإذعاناً واعترافاً بالضعف والانكسار. وإنما أمدّه ذلك بعزيمة أخرى: في يوم ما سيصير هو من أرباب العمل، ولكنه حين يحقق ذلك، فلسوف يعامل عُمّاله وموظفيه بالعدل والفضل. وحتى ذلك الحين سيعمل بالمَثَل الشعبي: «بوس الكلب على ثمّه تاتاخذ حاجتك منّه»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

حين فرغ مسعود من زرع شتلة تين في مكان من حوش خيام العائلة، نظر إليها متأمًّلا، وقال معتزاً:

- تينة احماضية من تين قرية اكتابة.

وكانت قرية «اكتابة» القريبة من طولكرم والقائمة على رأس جبل، مشهورة بتينها المشطّب الذي تقطفه النساء القرويات وتنزل به للبيع في السلال في أول الصباح، حين يكون الندى ما يزال عليه.

كان عليّ يقلب بصره بين كتاب بيده وبين أخيه مستغرباً كالعادة من حماسه. وعلّقت أم أحمد وهي تتابع نشر غسيلها على الحبل:

- يالّلا السلامة، وينتا تطعم. ما بدها سنين.

في تلك اللحظة أتمّ أبو أحمد صلاته وعلّق قبل أن يبدأ بأذكار الصلاة:

- إن شا الله نرجع لبلادنا، وبدناش هالنصيب من تينتك.

ردّ مسعود:

- يا سيدي نرجع، وخلّيها هديّة وذكرى لإخوانا «الوطنية».. حلال زلال عليهم. التينة مليحة في الدار، خُضرة وفَيّ وثمر.. الله ذكرها في القرآن.. وشرشها قوي بتضرب بالصخر وبتعيش عالقليل.

هنا فقط لم يستطع عليّ إلا أن يعقب بنبرة ذاتية عميقة المغزى:

- بس لأنه شرشها قوي وبتمدّ في الأرض والصخر، بقولوا مش مليح تنزرع جنب الدار.. بتمد للأساسات وبتفسّخها.

أرسل إليه مسعود نظرة متمعّنة ثم تحوّل ببصره إلى الخيام، فاستدرك عليّ من فوره:

- قصدي ما دامك بتطلّع للمستقبل، ممكن يصير فيه بيت محلّ الخيمة.

هَمّ أبو أحمد أن يعلّق من جديد، لولا أن قطعه صوت شاب غريب وقف على مدخل الحوش المكشوف، وألقى التحية:

- العواف.

ردّ الحضور له التحية وهم يتفحصونه، إذ كان يحمل معه بطانية لُفّت على غرض مستطيل. وسأل:

- هذا بيت أبو أحمد، صالح اليونس؟

تحرّك مسعود نحوه وهو ينفض يديه من آثار التراب:

- إذا بتسمّي الخيمة بيت.. أينعم.. أهلاً وسهلاً.. تفضّل.

أطلّ أحمد من خيمته ينظر القادم الغريب وتقدّم خطوات، بينما وقفت فتحية عند باب الخيمة تسترق النظر وتستطلع الخبر، وقد أحكمت الخمار على رأسها. وتسمّرت عينا عليّ على الضيف غير المتوقع، وعلى الغرض الملفوف الذي يحمله.

أسرع مسعود وبسط له بطانية ودعاه إلى الجلوس، وقد حدّثته نفسه أن وراءه خبرا ما، وإلا كيف يسأل عنهم وهم لم يروه من قبل. ولكن الشاب توجّه أولاً إلى حيث يجلس أبو أحمد عل مُصَلّاه المصنوع من جلد الخروف، وقبّل يده بكل إجلال أمام دهشة الجميع الذين ازدادوا حيرة وترقباً:

- العواف يا عمّي.. كيف خاطرك.

ثم جلس حيث فرد له مسعود البطانية، وسأل مسعود:

- لا تآخذنا.. ما تعرفناش على الأخ.

أجاب:

- أنا صبحي الحسن.. من شفا عمرو.

ثم أشار إلى مسعود متسائلاً:

- وأنت مسعود والّا..

- أنا مسعود.

تحوّل الغريب ببصره نحو عليّ وقال:

- وانت الأستاذ علي..

ثم ذهب ببصره إلى أبو صالح الذي كان قد جلس على تنكة اتخذها كالكرسي، وقال الغريب:

- إذن أنت بالتأكيد أبو صالح.. القائد أبو صالح.. كنا نسمع فيك أيام الثورة واحنا صغار.. الله يرحم هذيك الأيام.

ما شأن هذا الشاب الذي يعرف أسماء الجميع؟ وما الذي جاء به إليهم في عصر ذلك اليوم الغائم؟ شيء ما تحرّك في نفوس الجميع.. شيء من الخوف والتوجّس والأمل، وكالعادة كان مسعود أسرعهم إلى الاستفهام المباشر:

- ما دام ذكرت أسماءنا كلنا، وما ذكرتش حسن.. معناها..

هتفت أم أحمد من مكانها وقلبها يخفق بشدّة:

- عندك خبر من تلا ابني حسن؟ قول يا خوي.. دخيلك.

ولكن الغريب سأل:

- وين رشدي؟

هتفت الأم من جديد:

- عندك خبر من بنتي خضرة.. شفتها مع جوزها في أم الفحم قبل ما..

قاطعها الغريب:

- صبرك عليّ يا عمتي..

نادى مسعود رشدي الذي وقف حائراً ينظر. وناداه الغريب أن يجلس إلى جانبه، وقال:

- أنا من يوم ما ضاعت البلاد وأنا بدوّر عليك وعلى جماعتك.. إلك عندي أمانة يا رشدي، تعهّدت إني أوصلك إياها لو بقيت بآخر الدنيا.

ثم أخذ يفرد البطانية التي كانت في حضنه، حتى انكشف ما كان طيّها: بندقية العبد، والد رشدي الشهيد، التي آلت إلى حسن!

اهتزت جوارح الجميع، بينما وضعت أم أحمد يدها على رأسها، وسألت بصوت مرتجف سؤال من أدرك الموقف، ولكنه لا يريد أن يفلت من يده خيط الأمل الأخير:

- واللّي كانت معه البارودة يمّه؟ شو صار فيه يمّه!

أخيراً جاء الجواب الذي سينهي زمن الحيرة الموجعة:

- الله يطعم كل مجاهد زي ما أطعمه.. كسبها عند ربّه يمّه.. واحنا ظلينا وراه تانشرب الحسرة!

نزلت الأم على الأرض تنوح وتضرب على ركبتيها.. وجاوبها نشيج أبو أحمد وهو يهز رأسه بوقع رتيب بين الأعلى والأسفل:

- آخ يا بوي.. آخ يا بوي..

أغمض عليّ عينيه وهوى في جب سحيق لا قعر له، وانكفأ برأسه على الجدار الوطيء المحيط بالحوش.

وعلى الرغم من كل النذر المسبقة بمصير حسن.. الشهيد حسن.. ومن كل المعاني المستقرّة في الوجدان الديني عن الشهادة والشهيد وما ينتظره عند ربّه من المقام العالي والحياة الأبدية، فإن ذلك كلّه لم يخفف كثيراً من هول الصدمة الأولى في لحظتها.

وجاهد الشاب نفسه في ذلك الموقف الصعب، ليقول:

- احتسبوا لله يا جماعة.. هذي وصيّة الشهيد إليّ قبل ما دبّ عالموت زيّ السبع.. قول لأمي وأبوي ما ينوحوا ولا يلطموا عليّ إذا الله كتب لي الشهادة..

وما هي حتى بدأ الجيران يتقاطرون على المكان.

واستعادت الأرض صوتها بالنشيد مرّة ثانية لتلك البندقية التي تعاقب عليها شهيدان:

طلّت البارودة والسبع ما طلّ

يا بوز البارودة بالندى منبلّ

- بارودة يا مجوهرة شكّالك وين؟

- شكالي ع عادتو سرى بالليل

- بارودة يا مجوهرة شكِّالك راح؟

- شكّالي عَ عادتو سرى مصباح.

وقبل ذلك حين شهدت الأرض مشهد شهادته، غنّت له إذ ضمّته إلى صدرها:

شفت السبع في البراري ممدّدا

حوله العساكر ناحية الميدان

شفته على تخت الردية ممددا

والدم جاري يبلّل القمصان

يا حيف سبع الغاب كرم أمجدا

يصبح دفين بتربة الوهدان

شواربه جنح الغراب مرقّدا

وعيونه تلمع كبرق نيسان

كل البلد تبكي عليه وتتمجّدا

تبكي الرجال وتنحب النسوان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- الله يهنيه يا خيّة.. الشهيد حبيب الله..

قالت أم عطية البدوية وهي تحضن أم أحمد وقد تجمعت حولها النساء، وتابعت:

- الشهيد زي الزتونة.. بموت واقف وبظل جِرحه أخضر.. يا ريت نابنا اللي نابه.. يا ريت كلنا متنا في بلادنا ولا اطلعنا للمذلّة. حقك تزغرتي له يا خيّة.. أنا بدّي أزغرت وقولوا أم عطية انجنت.

أطلقت زغرودة وإن كانت الدموع تترقرق في عينيها، ثم هتفت في النساء من حولها أن يزغردن مثلها ففعلن.. وأخيراً دعت أم أحمد نفسها إلى أن تزغرد احتفاءً بعرس الشهيد. وصعدت زغرودة أم أحمد ضعيفة متهدجة يخنقها البكاء وترشح منها حرقة القلب الثاكل.

وقالت أم عطية وهي تمسح عينيها المبللتين بكُم ثوبها:

- نبكي عحالنا مش عاللي راح عند ربّه.

ثم أخذت تغنّي بأسلوب نواحيّ مؤثر:

وابكي لكم وابكي لروحي

وأكثر بكاي لجروحي

[redacted] "حسن، ذلك الشاب النبيل الذي قاسمني وقاسمته قمر الطفولة وشراع السندباد. ذلك الطفل الذي كان يمتطي الريح ويترجم همس العشب وهدير العواصف.. ذلك الطفل الذي كان يقتنص الغيوم ويعيد تشكيلها على صورة المدن التي طالما حلم بها.. ذلك الفتى.. عرف كيف يحلّ لغز الأرض وطلاسم المساء.

كنت أتعلم لغة الكتابة وقواعد النحو، حينما كان يتعلم لغة النهر والصخر والسنبلة..

كنت أمتطي المعجم، حين كان يمتطي الريح والعواصف..

كنت أكتشف الأسئلة، حين كان يعيش الأجوبة.

كان يظن أني الجزء الذي لم يكنه.. والآن أعرف أنه كان الجزء الذي لم أكنه.

هناك في مكان ما أجهله، وتعرفه النجوم، يرقد أخي حسن. يلبس جلد الأرض التي أحبها، ويستعير منها نبضه الجديد..

أنا هنا أبحث عن الوطن الضائع في موّال شعبيّ، وهو هناك يكتشف الأرض فيه.. على عينيه ينمو عشبها وزعترها، ومن جرحه تتفتح شقائق النعمان وعروق الشومر البريّ.

هناك هو، تكتبه الأرض وتعيد كتابته في كل فصل من فصولها.. وأنا الذي سرقت منه الكتاب والمدرسة والمحبرة، أنا هنا أبحث عن الكلمة التي تصفه.. أستعير جلده لأكتب عليه شعري فيه، ولأشعر ببعض الرضا، لعلّي أتابع حياتي من جديد.

حسن! أيها الشاب النبيل الذي ظلمناه وأنصفته الأرض".

من مذكرات علي الشيخ يونس

أجلس أبو صالح رشدي إلى جانبه ووضع بندقية أبيه وخاله في حضنه وقال:

- هذي بارودة أبوك يا رشدي.. أبوك الشهيد الله يرحمه.. اشتراها من صيغة عرس أمك.. أيام الثورة.. استقرضها خالك حسن وحارب فيها حتى استشهد.. هذي ورثة أبوك وريحة خالك. واتذكر، هذا صراع طويل، ما إله غير نهاية وحدة.. كانوا يخرفونا عن طير اسمه العنقاء كل ما انحرق في النار بتجمّع وبهبّ من جديد من الرماد. هذا إحنا.. هيك لازم نكون.. الحق ما بضيع ما دام إله مطالب. يا بنقوم زي العنقا، يا بتقوم قيامة البشر كلهم. فاهم عليّ يا خالي؟

هز رشدي رأسه وهو يتأمّل في البندقية ويتحسسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحزان الثائر القديم

(لقاء موجع)

1

١٩٥١

ثلاث سنوات عجاف على النكبة. وهذا يوم توزيع بطاقات المؤن على اللاجئين المجتمعين أمام مركز وكالة غوث اللاجئين، يدافع بعضهم بعضاً، بينما ينادي الموظف الأسماء واحداً تلو الآخر لتسلّم بطاقته التي تخوّله تسلم المعونة الشهرية. وثمة من يستعين على الهمّ والشقاء بالسخرية.. وذلك هو سعيد، الشاب الذي عُرِف بخفة دمه وسرعة بديهته، وقدرته على إضحاك الناس في كل الظروف، حتى وَهم يتبادلون الشتائم أو يشتمون الدنيا والحظوظ. وها هو في زحمة الجموع التي تنتظر منذ الصباح الباكر أن تسمع أسماءها يملأ الجو ظرفاً وسخرية، فيهنئ أحد الذين تسلّموا بطاقاتهم ومرّ بموضعه دون أن يرفع نظره عن البطاقة كأنه يريد أن يحتفي بمنظرها واسمه عليها أطول وقت ممكن.

- مبروك.. اقضب على الكرت مليح.. أوعى يضيع منك، بعدين ما حدّ بصدّق إنك لاجئ على سنّ ورمح لو حلفت مليون طلاق.

ثم تلفت فيمن حوله وهم يتضاحكون:

- ليش بتضحكوا؟ اللي ما لوش كرت مؤن ما لوش بلد ضايعة.. واللي ما لوش بلد ضايعة ولا بلد مش ضايعة، شو بصفّي؟ بِسّه سايبة. اللي بستلم كرته يبوسه ويعبطه.. ترى هذا أبوه وأمّه.. مش هوه اللي بطعميه وبكسيه وبحكم فيه؟ طب والله أبوي الله يرحمه ما بقى يطلع بإيده يعمل لي اللي بعمله كرت المؤن.

أخذت امرأة تلكز الناس ليفسحوا لها حتى تصل إلى الموظف الذي نادى اسمها حتى وصلته:

- انت فضّة؟

أجابته وقد أخرجتها الزحمة وطول الانتظار عن طورها:

- فضة.. تنك.. سخام.. زي ما بدّك.. بس خلّصني.. روحي طلعت.

صاح سعيد:

- ما بهمش ياختي.. هسّع كرت المؤن بردّ إلك الروح.

وصاح الموظف في الناس بغلظة أن يكفوا عن الفوضى والتزاحم. فلن يقدّم ذلك اسماً على اسم. ولم يترك سعيد ذلك دون تعليق ساخر آخر.

- سامعين شو بقول الزلمة الغانم؟ ترى قاعد بقول جواهر.. كل واحد بدّه يصله كرت المؤن. وكالة الغوث والأمم المتحدة ما بتنسى حدّ من خيرها.

ثم هتف:

- تعيش وكالة الغوث.. تعيش الأمم المتحدة.

وعاد إلى لهجته السابقة:

- هيه الأمم المتحدة ليش عملت وكالة الغوث؟ مش منشان اللاجئين المقطّعين اللي زينا؟ بس عاد حتى تغيث اللاجئين لازم يكون في لاجئين أول. عشان هيك صوّتت

لإسرائيل منشان تعملنا لاجئين.. منشان بعدها تدير بالها علينا.

مزيد من الضحك. وعلّق أبو محمود (الذي وجد صالح في ضياعه):

- ولك انت لسانك ما بنضب بثمّك؟

- وشو ظلّ إلنا غير هاللسان يا أبو محمود؟

- ومين بتمسخر عحالته؟

- اللي ما بدّوش يطق ويموت من القهر يا أبو محمود.

قال عبارته الأخيرة بصوت مختلف.

أخيراً نودي على سعيد يوسف عبدالرحمن. وحين عاد ببطاقته أخذ يتقفز ويترقّص:

- يا حلالي يا مالي.. يا ربعي رُدّوا عَلّي.. الله يخلف على الوكالة.

قال له مسعود الذي كان ينتظر دوره:

- مبروك.

- عقبالك يا خوي.. هسّع عاد بقدر أمشي رافع راسي.. إذا حدّ وقفني وسألني مين انت بَطَلِّعْها.. هذي هوية إثبات شخصية.. هسّع بس أنا صرت لاجئ رسمي.

بقيت العبارة عالقة في ذهن مسعود، حتى عاد ببطاقته وبطاقات أسرته: لاجئ رسمي!

2

لا تسل عن سلامته
روحه فوق راحته
بدّلته همومه
كفناً من وسادته
يرقب الساعة التي
بعدها هول ساعته
شاغل فكر من يرا
ه بإطراق هامته
بين جنبيه خافقٌ
يَتَلظّى بغايته
هو بالباب واقفُ
والردي منه خائفُ
فاهدأي يا عواصفُ
خجلاً من جراءَتِه

ذهب الفدائي القديم الذي قيلت فيه أيام البلاد وأيام الثورة الكبرى ضد الإنكليز، والآن يرددها بصوت جماعي تلاميذ مدرسة الوكالة التي استقبلت أيامها الأولى في خيمة كبيرة، وعُيِّن عليّ معلماً فيها. لم تكن في حجم طموحاته ووعود الحياة له أيام البلاد. ولكنها أفضل ما يمكن تحصيله في الظروف الراهنة إلى أن يشاء الله. تستطيع العائلة أن تفاخر به كما كانت دائماً، وتجدّدت آمالها في مستقبله، ومستقبل العائلة معه.

وفيما تابع مسعود نشاطه في العمل اليوميّ هنا وهناك فيما يتيسّر له من الفرص في المزارع وأعمال البناء، كان أبو صالح قد استعاد بعض قوته. وما كان ليرضى أن يبقى خاملاً قعيد البيت ينفق أخواه عليه وعلى أسرته. وقد حاولا جهدهما ثنيه عن العمل خشية أن تنكأ عليه إصابته، ولكي يهوِّنا عليه الأمر، ذكّراه غير مرّة بكل ما بذله سابقاً من أجل العائلة، وأنه لولاه لما بلغ عليّ ما بلغه من التعليم والوظيفة. وهما الآن يردّان له بعض جميله ووقفاته، ولا مِنّة. بل إنهما مهما يبذلا فلن يبلغا حقه على الأسرة كلّها. والحقيقة التي لم يبوحا بها أن ثمة سبباً آخر غير وضعه الصحي، كان يدعوهما إلى صرفه عن العمل، وهو مركزه القديم في الثورة أولاً، ثم مشاركته في مصلحة تجارية مع موسى في حيفا. فما عساه الآن يعمل غير أعمال الزراعة بالأجرة اليومية. وهل يليق هذا بالقائد أبو صالح الذي كانت الزغاريد تحفّه كلما دخل في قرية مع المجاهدين، وكان يأمر وينهى ويحكم ويرسم، ويعمل له مساعدون من الأفندية الوطنيين وأهل العلم والمهن الراقية. ولكن ترفّع أبو صالح عن أن يكون عالةً على أخويه بعد أن كانت العائلة كلها تحت جناحه، غلب على ترفّعه عن العمل بيده على خلفيّة ماضيه السابق في القيادة والثورة. ولم يكن بطبيعته

أسير الأوهام والمظاهر. فليس بعد المنفى والمخيم من أوهام وادعاءات. وإنه ليدرك أن مجده صار قديماً، وأنه كان مؤقتاً أمدّه به سلاح الثورة، وقد صارت تلك الثورة تاريخاً، وسكت السلاح منذ زمن يبدو الآن بعيداً، وإن لم يكن كذلك حقاً، وسكتت معه الزغاريد. وإن كان ما يزال حاضراً في الذاكرة الشفوية بقدر معلوم، فإن من طبع الذاكرة الشفوية أن تخفت حكاياتها مع الزمن ومع ذهاب الشهود والرواة، أو انشغالهم بمستجدات الحياة وتحدياتها الجديدة، وظهور فرسان جدد، مزيفين أو غير مزيفين، يملؤون الدنيا ضجيجاً وعجاجاً. أما الروايات التي يدوّنها المثقفون والسياسيون فتقف عند النخب والزعامات السياسية المعروفة تمجيداً أو تجريحاً، بحق أو بغير حق، وهي أكثر بقاءً وأبلغ بياناً من الروايات الشعبية التي يقصّها الشهود البسطاء في مجالسهم عن أمثال أبو صالح إذ يستذكرون أيام البلاد.

لا، لم يكن أبو صالح ليغفل عن هذا الواقع فيعيش في صيت الماضي منصرفاً عن الحاضر. وهو على كل حال لم يجاهد من أجل الصيت. كان فلاحاً وما يزال، إلا أنه الآن في المخيم وقد ذهب بيته القديم وقريته وأرضه، فلا بدّ أن يعمل لغيره بأجرة اليوم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ولما كان وضعه الصحيّ لا يسمح له بأكثر من نكش الحدائق المنزلية وتقليم أشجارها، فقد كان يدور على بيوت «الوطنيّة» الميسورين يعرض جهوده، فيستعملونه حيناً ويردونه أحياناً.

طرق مدقّة الباب الخارجي لحديقة أنيقة تحيط ببيت حجري متميّز بضع طرقات، حتى أطلّت فتاة أنيقة تبدو عليها مظاهر اليسر، في نحو الخامسة عشر من عمرها. وقبل أن يذكر لها غرضه طلبت منه بلطف أن ينتظر حتى يخرج له جدها. فلما خرج أخيراً غاص قلبه في صدره وهو يحدّق في الرجل ولا يصدِّق عينيه. هَمَّ أن يتوارى بسرعة قبل أن يميّزه الرجل الكهل، ولكن الرجل كان أسبق منه إذ هتف مندهشاً:

- أبو صالح؟ القائد أبو صالح!

كان وصفه بالقائد أشد عليه، ولكنه ردّ بصوت حاول إخفاء اضطرابه:

- أبو أكرم بيك؟

أقبل أبو أكرم السويدي عليه مسرعاً وهو يمدّ ذراعيه وقد أخذته المفاجأة.

- شو هالمفاجأة السعيدة؟

ثم استدرك:

- هذا إذا بصح نحكي عن السعادة في هالزمن.

سلّم عليه أبو أكرم بحرارة ودعاه إلى الدخول دون أن يخطر له أنه جاء يسأل العمل في الحديقة. وظنّ أنه سمع بنزوله في طولكرم فقَدِم لزيارته على ما كان بينهما من العلاقة القديمة.

جلس أبو صالح دون أن يزايله الشعور بالحرج الشديد. وانطلق أبو أكرم في الكلام عن آخر أيامه في حيفا بعد افتراقهما. وأنه نزل في نابلس أولاً قبل أن يقرر الهروب من معارفه الطامعين في المناصب والوزارات بعد اتحاد الضفتين في المملكة الأردنية الهاشمية. فقد طلق الرجل السياسة وأهلها وثرثرات الصالونات السياسية وزهد في المناصب كلها، فآثر أن يشتري أرضاً واسعة في طولكرم ليجعلها بيارة

برتقال تذكره ببرتقال يافا، ويريح رأسه في مدينة صغيرة هادئة تنام مع غروب الشمس، ويشم فيها رائحة البلاد القادمة من وراء الحدود. وله مع ذلك مصالح تجارية في عمّان مع بعض إخوته. وعرف منه أبو صالح أنه قد انتقل إلى بيته هذا في طولكرم منذ زهاء شهرين فقط. ثم قال:

- آه يا أبو صالح. وانت كيف الحال؟ أنا والله لو عارف إنك هون كان أنا دوّرت عليك وإجيتك. واجبك كبير علينا.. وأنا ما بنسى فضلك عليّ شخصياً في موضوع.. ابني.. الشهيد أكرم الله يرحمه ويحسن إليه.. وهاذي البنت اللي فتحت الباب سلمى بنته. تصوّر إنها ظننتك.. قصدي.. لا تآخذها.. ظننتك جاي تدوّر على شغل في الحاكورة.

أطرق أبو صالح لحظة قصيرة، ثم رفع رأسه وقال:

- اللي ظننته صحيح يا بيك، والصدفة وحدها جمعتنا بدون ميعاد.. آه.. كانت قيمتنا في سلاحنا.. راح السلاح.. وراحت الأرض.. واحنا انتسينا.

كان صوته مفعماً بالمرارة والوجع. ولم يعرف أبو أكرم كيف يواسيه، وذهب بصره إلى الحائط حيث صورة كبيرة لولده أكرم. فعلى الرغم من اختلاف أحواله عن الحال التي انتهى إليها أبو صالح، فإن ذلك لم يكن ليهوّن عليه ذكرى ولده الفقيد. وقد بعث لقاء أبو صالح والكلام معه ذلك الأسى كأن فجيعته بولده كانت البارحة.

كل امرئ يبكي شجوه!

تجاهل كلاهما موضوع العمل في حديقة البيت.. فقد كان الأمر ثقيلاً عليهما سواء.

عاد أبو صالح إلى بيته منقبضاً صامتاً، وقبل أن ينطرح على الحشية توجه إلى صندوق في ركن الخيمة، واستخرج منه صورته التذكارية في زمن الثورة مع العبد ومصطفى وحمد العربيات والأستاذ محمود المحامي وآخرين. ولبث طويلاً يتمعّن فيها. وآثرت فتحية ألا تسأله عمّا أهمّه في تلك الساعة، فالهموم مقيمة. ولكنها خرجت من الخيمة وعادت مع مسعود وعليّ والأبوين.

قصّ عليهم ما كان من أمر لقائه غير المتوقّع بأبي أكرم، قالت الأم:

- عزيز، وبتظل عزيز يا أبو صالح.

رفع أبو صالح رأسه وتوجه بنظره إلى عليّ:

- متذكر يا علي أيام البلاد وانت صغير، وبعدين قبل ما تروح تكمّل في القدس؟ بتتذكر كل الحكي اللي حكيناه عن ضرورة التعليم حتى ينشل الواحد حاله وعيلته من الظروف الصعبة اللي وضعنا فيها الإنكليز؟ هالوقت صارت الحاجة للتعليم أكبر.. وين شقا الفلح اللي كنا فيه من شقا المخيم؟ اللي راحوا للجامعات مش أشطر منك.

هز عليّ رأسه بوجوم، وقال:

- مش أشطر مني، بس أقدر منّي.. كانوا أقدر مني في هذاك الزمن، كيف الآن وإحنا في..

قاطعه أحمد وقد استرجع صوته القديم المفعم بالعزيمة والإصرار:

- بالعكس.. لأنا في هذا الوضع، ما فيه أمامنا إلا التعليم حتى نخرج منه.

تدخل مسعود:

- سلّم ثمّك يا أبو صالح.. هذا اللي صار لي وقت بقوله. يمكن مش بكره ولا بعده، بس لما يحين الوقت لازم تسافر لبرّه وتكمّل زي ما كنا مخططين أيام البلاد وأكثر. ما فيش حد في هالمخيم وضعه مثل وضعك.. لا انت عارف تعمل أصحاب هون يفهموا عليك، ولا عارف تعمل أصحاب برية المخيم. والوحدة بتجيب الهم والغمّ..

قال عليّ:

- لحينها الله بهوّنها.

ردّ مسعود:

- والنعم بالله. بس لازم نخطط من اليوم لحتى ييجي الحين. وإحنا كلنا بنتعاون إن شاء الله. يا سيدي اعتبره استثمار إلك وإلنا كلنا.

ثم أحب أن يرطب الجو بشيء من الدعابة:

- «استثمار».. حلوة، مش هيك؟ الكتب اللي قريتها ما راحت خسارة!

فجأة انفجر أبو أحمد باكياً أمام حيرة الجميع. فخفّ إليه مسعود وعليّ وأم أحمد، يسألون عما أبكاه. ولكنه مشى خارجاً من الخيمة. وعلّق مسعود:

- والله ماني عارف شو بدنا نعمل لهالختيار. أنا خايف عليه يا جماعة من هالسهوة وطول القعود لحاله.. قصدي خايف على عقلاته.

نهرته أم أحمد:

- عقله أحسن من عقلك. بس انت اللي مش فاهم. خرافكم قدّامه ذكّره أيام ما كنا نقعد نتخرّف عن تعليم حسن وعليّ.

مسحت دموعها وتابعت:

- بس يا حسرة على حسن. ظلت الحرقة بقلبه لآخر يوم. لو تعلم زي أخوه كان صار معلم وانشغل بالشهادة والوظيفة.

قال أحمد:

- حرام هالحكي يمّة.. ينشغل بشهادة العلم عن إيش يمّه؟ عن الجهاد وشهادة المجاهد؟ إذا كان العلم هيك بعمل بدناش إياه.

استغفرت الأم، وقال مسعود:

- الحياة كلها جهاد.. بالسلاح وبالعلم والشغل.

لم يكن أبو صالح وحده الذي دفعه لقاء أبو أكرم إلى نبش صندوق الذكريات والتأمل في صورته القديمة مع رفاق السلاح. فما إن خرج أبو صالح من عند «أبو أكرم» حتى مشى إلى صندوق قديم أنيق، استخرج منه البيان الذي أصدره القائد أبو صالح في نعي ولده القتيل وتبرئته من شبهة الخيانة واعتباره شهيداً من شهداء الثورة. وأخذ يعيد قراءته مرة تلو الأخرى بوجه متأمّل. ثم رفع رأسه وأرسل نظرة إلى هدى، أرملة أكرم وابنتها سلمى اللتين كانتا تراقبانه وقال بنبرة الأسف:

- مين بصدّق إنه الزلمة اللي أجانا يطلب شغل في الحاكورة هوّه نفسه القائد أبو صالح، قائد فصيل حطين في الثورة الكبرى، اللي كان أكبر طربوش يضرب له

سلام، واللي.. بيّض صفحة المرحوم بهذا البيان..

وهزّ بيده الورقة القديمة التي يحرص على حفظها حرصه على سمعة ولده وتاريخه المشرّف. ثم أردف:

- وين العدل في هالدنيا؟

نعم، أين العدل؟ وأين القائد أبو صالح من هذا الرجل الذي يعمل الآن في حقول الخضار في سهل طولكرم مع الآخرين في قطف الخيار وتصفيفه في الصناديق الخشبية، وحمله. وإن تناسى ماضيه ذكرته شكّة الشظية التي تسكن جسمه به. وكل ما يحيط به يذكره. وفي استراحة الغداء وقف يجيل بصره في السهل والجبال التي تحدّه من الشمال وبين الأفق الغربي والأفق الشرقي. واقترب منه عايد وقد أحس ما في نفسه، فقال:

- بتذكر يا أبو صالح هذي المناطق اللي كنا نجيها ثوار نربط للإنكليز مع المرحوم أبو كمال، عبدالرحيم الحاج محمد.. المعارك اللي خضناها فيها.؟ بلعا وعنبتا وجبال نابلس.

هز أبو صالح رأسه وقال متأمَّلا:

- ما كان يخطر على بالنا إنا راح نجيها بعدين لاجئين. هاذيك ذنابة على حفة طولكرم وجنب المخيم.. قرية المرحوم أبو كمال.. الله يرحم أيام الثورة.

ردّ عايد:

- ويعيدها!

التفت إليه أبو صالح بنظرة متفحّصة. فاستأنف:

- ما بتنام القضية يا أبو صالح، وما بتنام الناس وقلوبها بتغلي.. ومين عارف، يمكن هسّع فيه ناس بتخطط للمقاومة والتحرير وبتعدّ العدّة.. بس بدها وقت وحسابات وإعداد مزبوط وفِهم.. وقيادات متعلمة بس من ثوبنا، حتى يكون اللي بحمل السلاح هوه اللي يقود في السياسة. مش زي حالاتنا.. زعما السياسة في مطرح، واللي بقاتل في مطرح.

- على الله.. يسمع منك.

- على الله.

قطع عليهم الكلام والتأمّل صاحب المزرعة إذ صاح بالجميع:

- يالّلا يا جماعة. بدنا نخلص شغلنا..

صاح سعيد متهكماً كعادته:

- عليش مستعجل يا زلمة.. البلاد راحت.

أجابه صاحب الأرض:

- رجعها يا خوي.. حد موقفك؟ والا لمّا بتأخروا مصلحتي بترجع؟

ثم توجه إلى أبو عايد الذي حكمت عليه الأيام أن يعمل كغيره في أراضي الآخرين، وإن اختاروه مختاراً للمخيم احتراماً لسنّه وعزّه القديم.

- قول كلمة يا مختار، خليهم يشدّو الهمّة.. المختار إله كلمته.

هز أبو عايد رأسه بوجه منقبض ولم يقل شيئا.

وأنشد سعيد وهو يعود إلى عمله:

يمّا مويل الهوى

يما مويليّه

ضرب الخناجر ولا

حكم النذل فِيَّه

لم يأخذها صاحب الأرض على نفسه، وإن كان قد خالطه بعض الشكّ أن سعيد أراده بها. فصفة الأنذال في حالة الفلسطيني اللاجئ تتسع للعالم كلّه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أين هذا من برتقال البلاد؟

(نداء الأرض القاتل!)

1

كان سعيد الساخر دائماً، يتمتع بصوت جميل مؤثر، وعنده ذخيرة لا تنضب من الأزجال الشعبية لكل المناسبات، ما يضحك منها وما يبكي.

جيت أودعك يا دار شملاي

غريب امسح دموعي بشملاي

وأنا إن طال الزمان وما ردّ شملاي

عيوني من البكا بترشح دما.

يا بوي يا بوي، يا بوي، يا بوي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جيت أودعك يا دار رايح

غريب وعَ بلاد الناس رايح

يا عين ابكي وزيدي من النوايح

وعلى فراقك حزين القلب أنا

يا بوي، يا بوي، يا بوي، يا بوي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يا دار يا دار لو عدنا كما كنا

لاطليك يا دار بعد الشيد بالحنّا

قطع مسعود عليه استرساله:

- ولك إحنا ناقصنا هم تاتفتح جروحنا؟

كانوا مجموعة يتسامرون في خلاء سوق الدواب المجاور للمخيم.

وردّ سعيد:

- يعني لما نضحك وبنتمسخر على حالتنا بتقولوا مجنون قلبه خالي. ولمّا.. طيب بلاش، بدكم شي يزهزه عن القلب خذوا هالشعر الحلمنتيشي الذي رواه متعوس عن خايب الرجا:

لو متّ جوعاً لم أذق فتّ العدس

حتى ولو حكمت بشنقي أمتي

ناديت من لهفي وحيداً في الدّجى

يا أيها الملفوف آنِس وحدتي

واحلف لكم يا سامعين بأنني

أهوى المحاشي مع قشور اللبِّة

يا صاح إني في الطبائخ مولَعٌ

إن كنتَ تبغي المدح فاعزم حضرتي

ضحك الجميع، وعلق أبو محمود:

- يا خوي مرحبا بك.. اللي بتلاقي عندنا دلنا عليه، إلنا وإلك.

قال سعيد:

- أخ على هذيك الأيام.

ثم بدأ وصلة طويلة من الحنين والمديح في ذكرى خيرات البلاد الضائعة، فطعم البطيخ الذي كانوا يأتون به أحمالاً على ظهور الجِمال، غير طعمه خارجها، وكذلك البرتقال الذي كانت رائحته تصل الأنوف من علىَ بُعد مئات الأمتار.

أطلق مسعود ضحكة قصيرة ساخرة مستجيباً لطبعه في مصادرة الأوهام الجميلة وردّ الأمور إلى نصابها الواقعي:

- يا جماعة وين إحنا؟ ما إحنا برضه في فلسطين.. والا شو هيه الضفة الغربية؟ وشو هيه طولكرم؟ أرض واحدة.. والبرتقال هون والا هناك واحد..

اعترض أبو محمود:

- لع يا عمي، كل شيء هناك «غَربا» بقى أحسن.. الزيت والزتون.. أي والله نسمة الهوا اللي بقينا نتنفسها أحسن.

قال مسعود:

- يعني الحدود برضه بتقسم الهوا يا أبو محمود؟ ما هوه الهوا بشرّق وبغرّب.

ردّ أبو محمود:

- أي والله نسمة الهوا اللي بتهب من «غربا» بتختلف وتشم فيها ريحة البحر. من هون شو بدها توخذ معها يا خوي؟ ريحة المخيم؟

قال مسعود:

- هذا هو يا أبو محمود. الهوا هوا فلسطين.. والبرتقال هون وهناك برتقانها.. بس إحنا هون مش اللي بقينا هناك.. هذا بس الفرق.

أطلق أبو محمود تنهيدة حرّى طويلة:

- آ آخ.. يا ناس برجع أشوفها قبل ما أموت وبقطف برتقانها عن أمّه؟

ثم التفت إلى سعيد مؤنِّباً:

- كلّه منك يا وجه الغم.. يعني لازم تفتح جروحنا؟

اعتدل سعيد من ضجعته:

- أنا؟

أجاب أبو محمود:

- شو اللي وصلنا لها السيرة وغمّها غير أشعارك عن الأكل؟

- الله أكبر.. يعني ما ظلّ غير الأكل والبطيخ والبرتقان يذكرنا ببلادنا؟ هاذ اللي ما بقدر عالحمار بقدر عالبردعة. غنيت عن مفارقة الدار قلته: همّ وغم. بعدين قلت شعر عن الطبايخ منشان تضحكوا..

قاطعه أبو محمود:

- ما هوه هاذ من هاذ. كله بودّي على بعض.. والا من وينتا صرنا نشتهي حبة البرتقان وشقحة البطيخ؟

- على هالحكي لازم نخيط ثمامنا.. ما هوه كل شي ممكن يودّي هناك. يعني فكركم لو غنيت إلكم عن البنات اللي نازلات عالعين، وخدودهن حمر زي الرمان، وين بروح فكركم؟ لخزان المية التنك المصدّي تبع الوكالة اللي بتتدافش عليه نسوان المخيم، وما بتصله الوحدة إلا بعد ما بتخبص في مجاري الوسخ، أجلّكم الله؟!

لأول مرة يُسمع صوت «أبو عطيّة» الذي لبث مضطجعاً صامتاً متفكراً طوال الوقت:

- ابشر يا سعيد ابشر. وأنا أخوك.

اتجهت إليه أنظار الجميع، فاستأنف مخاطباً سعيد:

- مش قلت بقصيدك: «إن كنت تبغي المدح اعزم حضرتي؟» انت وهالجماعة الغانمة ألفوا عليّ بعد بكره، إذا ظليت عايش، بتوكلوا إن شاء الله من برتقان البلاد!

لبثوا لحظات يُحدقون فيه، حائرين في مغزى كلامه. وحين تبيّنوا القصد أخذتهم الدهشة. هل يفعلها حقاً؟ هل يتسلل عبر الحدود إلى «غَرْبا» التي صارت الوصف الذي يطلقه الناس في طولكرم على ما وراء الحدود، ليعود بكيس من برتقال البلاد المنهوب، يقطفه عن أمّه الثاكل في جوف الليل متخفياً عن عيون اللص القاتل، ومجازفاً بحياته؟

لم يكذّب أبو عطية البدوي خبراً. فبعد يومين كانت المجموعة عند أبو عطية وأمامها كوم من البرتقال.

- قشروا.. قشروا، جيرة الله عليكم.

على الرغم من كل الحماس الذي كانوا يتحدثون به عن برتقال البلاد وتشهّيهم له، فإنهم لم يسرعوا إلى تخطّفه، ولكنهم لبثوا لحظات وقد تسمّرت أعينهم عليه كأنهم ينظرون إلى كرات سحرية تشعّ في وجوههم. وحين مدّوا إليه أيديهم لم يتعجلوا إلى تقشيره حتى أخذوا يتلمسونه أولاً، ووضعه سعيد على خدّه يتمسّح به، ثم همس كالمسحور:

- معقول يا ناس! برتقان البلاد؟ ريحة البلاد؟

وقال أبو محمود وهو ينظر إلى أبو عطية بإعجاب:

- وخشيت جوّه يا أبو عطية؟ خبطت في البلاد؟

رد أبو عطية:

- ما خبريش البيارات بتمشي على إجرها وبتقطع الحدود.

- إي والله يا أبو عطية.. الأرض مطرحها.. بس الرجال اللي إلها اجرين. وأشهد إنك زلمة سبع يا أبو عطية.. خرفنا يا خوي، خرفنا.. خطوة بخطوة..

- قشروا أول. قشروا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان لا بد أن يخبر مسعود أحد أفراد أسرته بالمخاطرة التي سيقدم عليها مع أبو عطية وأبو محمود فلم يجد غير عليّ يسرّ له الأمر. وحاول عليّ أن يثنيه عن عزمه بلا جدوى.

- يعني شوال برتقان محرز المخاطرة؟

رد مسعود:

- مش مسألة شوال برتقان.

- وإلا إيش؟ يعني فجأة صابتك هبّة شوق وحنين..

قاطعه مسعود معترضاً على مغزى الكلام:

- فجأة؟

- قصدي.. مش طبعك.

- قصدك مش راكبة على شخصيتي.. لو كان أخوي أبو صالح بتركب. أما مسعود، طول عمره بمشي الحيط الحيط وبقول يا ربّ الستيرة. أبو صالح تاريخه معروف.. وحسن الله يرحمه حمل دمه على كفه حتى استشهد.. وعلي أبو العلوم، عاطفي وحساس وكاتب حامل هم البلاد والعباد في قلبه.. أما مسعود!! مسعود بس شاطر في الحسابات، بطرح وبجمع وبقسم.. تقول عاد حسابات بنك تحت إيدي.

قال عليّ معتذراً:

- العفو.. مش..

قاطعه مسعود من جديد:

- لأ مزبوط، أنا هيك. ما فيه إشي أستحي منه. بس أنا مش جبان، ولا بلادي رخيصة عليّ..

- هذا هو إذن.. بس يا اخوي ما بتحتاج تتسلل عبر الحدود وتعرّض نفسك للموت منشان تثبت لحد إنك مش جبان، وإنه بلادك عزيزة عليك.

قال مسعود بنبرة تأمّل:

- يمكن بدّي أثبت لنفسي مش لغيري.

ثم نظر في وجه أخيه متفحصاً، وأردف:

- يمكن بتقول في نفسك ليش ما حاول يثبت هالحكي لنفسه لما كان فيه حرب وجهاد وكان الموت إله معنى وقيمة؟ صحيح.. كان الموت إله معنى وقيمة في هذاك الوقت.. بس هسّع بعد حياة المخيم الحياة هيّه اللي ما صار الواحد يحرص كثير عليها.

توقف وأرسل نظرة إلى الأفق الغربي، ثم تابع مسترسلاً:

- الحدود اللي قسمت بلادنا واللي خايف عليّ منها مش هيه كل الحدود اللي رايح اللاجئ يصطدم فيها.. صدّقني يا علي.. هناك الحدّ اللي بين المخيم وبيوت المدينة.. والحد اللي بين اللاجئ وبين الاحترام والتقدير وفرص الحياة.. يعني الحد اللي قطع بلادنا خلق معه كل هالحدود. وانت أكثر واحد فينا بتحسّها..

قال عليّ بنبرة تأملية:

- قصدك إنك إذا قطعت الحدود لبلادنا المحتلة وخبطت في ترابها وحطيت إيدك على شجرها وثمرها، معناها بتقدر تقطع الحدود الثانية اللي ذكرتها!

هز مسعود رأسه:

- عليك نور.. عبّرت عن اللي في نفسي.

ثم أردف مستدركاً مع ابتسامة:

- ومع ذلك، أينعم.. بدنا برتقان للأكل.. وهذي مجرد تدريب واستطلاع.. الهدف الأهم بقرة هولندية من واحدة من مزارع الكلاب وحظايرهم القريبة.. البقرة بتجيب مصاري مليحة.. خبطة خبطتين بنفرّج عن حالنا شوية.. بس أوعى يطلع منك إشي لأي واحد في العيلة. وادعي لنا يا خوي.. ما بدنا غير الدعاء. والله الحفيظ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في تلك الليلة، لم يذق عليّ طعم النوم خوفاً على أخيه الذي لا يتوقف عن إثارة دهشته في كل يوم. وكان مسعود قد ادّعى أنه سيقضي الليلة ينطر في المزارع.

لم يبدأ الرجال الثلاثة رحلتهم المحفوفة بالمخاطر، حتى ألقى عليهم أبو عطية درساً طويلاً من حصيلة تجاربه؛ يجب أن يتعلم أحدهم مشي القطة وسمعها ونظرها، ويقلّب نظره بين القريب والبعيد، ويدرّب عينيه على علامات المنطقة في العتمة ثم يحفظها في عقله: تلة عالية، تلة صغيرة. وليعطها أشكالاً تناسبها: تلة كرجل نائم، وأخرى لها رأس السبع، وأخرى مثل امرأة جالسة تحضن ولدها. أضواء المستعمرات المتناثرة: خط طويل، وخط قصير.. أضواء متفرّقة وأخرى كثيفة.. تجنب الأعشاب الجافة.. امشِ على رؤوس أصابعك.. الزم حفوف التلال والشجر أينما وجدتها قريباً منك.. وإذا تفاجأت بضوء سيارة قادمة عن بُعد، أو سمعت صوتاً ما فلا يحملك الخوف على الركض فتنبّه عن نفسك، ولكن تجمّد في مكانك وانزل ببطء على ركبتيك وتجمّد واصغ وراقب حتى يغيب الضوء أو الصوت تماماً. ثم تحوّل عن تلك الوجهة. وأهم من ذلك كلّه ألا تأخذك رائحة البلاد وحجرها وشجرها فتغيب فيها عن نفسك. بلادنا المغتصبة ليست فقط تلالاً ووديانا ونسمة هواء وذكريات.. بلادنا أيضاً يربض فيها عدو وضباع ذوات أنياب زرق وعيون كالجمر.

كما ألقى عليهم تعليمات التسلّل، وضع لهم خطة العودة ونقطة التجمّع وطرق التصرف في الأحوال المحتملة المختلفة.

خرج عليّ من أول الفجر يتمشّى في حوش المخيمات الثلاث، ويرسل بصره في كل الجهات مترقباً بقلق ظاهر لم يستطع إخفاءه، حتى أثار تنبه الأسرة وتساؤلاتها، ولكنه تهرّب من الإجابة، حتى رأوه قد تأخر عن الخروج إلى المدرسة على غير عادته. فتعلل لهم بمغص في أمعائه. فأسرعت الأم لتغلي له بعض البابونج. ثم برزت لطيفة من خيمتها وألقت تحية الصباح وكان حملها قد صار ظاهراً. وتساءلت عما أخّر زوجها عن العودة من بياته في المزارع ناطوراً.

أحب أبو صالح أن يمازحها فقال:

- لا يكون حط عينه على وحدة ثانية واتجوزها من ورا ظهورنا، وبروح يبات عندها.

ردّت لطيفة:

- يا خوي إذا بلاقي واحدة مضروبة على عينها تتجوزه على هالحال، الله يهنيها ويهنّيه.

هنا سمع صوت مسعود:

- اللي بقدر يروّح وبإيده كيس برتقان بلاقي مين تتجوزه.

نسي عليّ نفسه وخفّ إلى أخيه يحتضنه أمام دهشة الحاضرين. لِمَ هذا الاحتفاء كأنه عائد من سفر؟ وهمس له مسعود محذّرا:

- تفضحناش دخيلك.

وتساءل أبو صالح:

- الزلمة راجع من نَطْر الزرع مش من سفر.

لم يجد عليّ إلا أن يقول:

- لا.. بس، شفت حلم مزعج فيه.. ظل صدري مقبوض. الحمد لله، وأعوذ بالله من الوسواس الخنّاس.

وسألت أم أحمد:

- كيس برتقان؟ منين يا خوي؟

- تخافيش يمّه.. حلال زلال.. من عرق جبيني.

أسرع عليّ خارجاً ليلحق بالمدرسة، وصاحت الأم من خلفه:

- البابونج!

- راح المغص يمّه..

قشر مسعود لأبيه حبة برتقال.. ثم قشر له أخرى قبل أن يكمل الأولى، فقال أبو أحمد:

- خلص يابا.. أنا بس أقدر أكمل اللي بيدي.

سأل مسعود:

- كيف شايف هالبرتقان يابا؟

أجاب بغير حماس:

- مليح.. بس وين هذا البرتقان من برتقان البلاد اللي الحبّة مِنُّه تبقى رحيتها تفحفح من دار الجيران.

كتم مسعود ضحكته واكتفى بابتسامة غامضة.

الغربة تلقي على كل متعلقات الوطن السليب معاني عاطفية.. أو رمزية تتعدّى حقيقتها المادية كما يقول عليّ.. حتى الطعام والشراب. كل شيء وراء الحدود أجمل وأطيب.. وفي غمرة الحنين تغيب عن مخيلة الغرباء كل صور الشقاء القديم الذي عاشوه في ديارهم، ويشيدون مكانها عالماً رخيًّا نديًّا يطوّقه قوس قزح.. عالماً من الصحة والعافية والرضا وصلاح البال.. فلا قلة ولا مشاحنات ولا صراعات..

بعد أن أكل الجميع من البرتقال، قالت لطيفة بلهجة صاحب الدعوة، إذ هي زوجة من جاء بهذه الغنيمة:

- زيدوا يا جماعة.

قالت أم أحمد:

- الحمد لله.. كلي انت.. ما انت بتوكلي لاثنين.. إلك وللّي في بطنك.. عالسلامة إن شا الله.

أخرجت لطيفة عدداً من حبات البرتقال من الكيس ووضعتها أمام الآخرين ثم حملت الكيس بما بقي فيه وعادت به إلى خيمتها.

تابعها مسعود بنظرة غامضة وابتسامة ساخرة. ودارت فتحية ابتسامة مماثلة. والتقت عينا مسعود بعين أخيه أبو صالح، وهمس مسعود:

- من أشبه والده فما ظلم.

كفّه أبو صالح بسرعة.

وقف رشدي أمام خيمة أم سالم المجنونة وبيده حبتان من البرتقال، ونادى:

- أم سالم؟

ثم تقدّم متردداً حتى صار على باب الخيمة وكرر النداء. وحين رأى أن الخيمة خالية، ارتدّ كسيفاً، ما إن ابتعد بضع خطوات حتى سمع صوتها:

- نني يا عين سالم يا عين الحمام.

سالم بدو ينام ع ريش النَّعام.

رجع من جديد إلى حيث مصدر الصوت، فوجدها جالسة خارج الخيمة في جانب متوارٍ منها، وهي تهز الوسادة كالعادة، وتتابع ترويداتها:

- نار الحطب تنطفي، ونار الحبايب دوم

وأهل الغريبة سكارى ما عليهم لوم.

اقترب منها وجلس مقرفصاً أمامها. ابتسمت له بوداعة. ومد يديه بالبرتقالتين. ولكنها نظرت إليهما نظرة غائمة دون أن تتناولهما.. وقال رشدي:

- وحدة إلك. ووحدة.. لسالم!

وأشار إلى الوسادة.

ثم تولّى تقشير واحدة منهما، وقدمها لها. وهذه المرّة تناولتها بيد، وهي تحضن الوسادة بالأخرى. ولم يتريّث بعد ذلك، وقد شعر بغصة في صدره فمشى عائداً ببطء، بينما تناهى صوتها إليه:

- طهره يا شلبي وناوله لأمّه

ويا دموع الغالية نزلت على كمّه

وطهره يا شلبي وناوله لخاله

ويا دموعه الغالية نزلت عخلخاله.

توقف رشدي في مكانه، وأخذ وجهه يرتجف بشدة، ونزل على ركبتيه إلى الأرض وقد غلبه البكاء.. وغلبه النداء: «يمّه.. يمّه».

حين انفرد عليّ بأخيه مسعود. طلب منه بتلهف أن يقصّ عليه تفاصيل تجربته. قال مسعود وهو يرسل بصره في البعيد:

- حسيت حالي بحلم.. يا ناس أنا بفلسطين المحتلة! أبو عطية هذا فيلسوف.. لو قرا بمدارس وجامعات كان صار إشي كبير.. اللي حذرنا منه رحت أقع فيه.. يوخذنا لقاء الوطن ونغفل عن حالنا وعن الخطر والحذر، زي واحد رجع لربعه بعد غياب طويل، ولما شاف حبيبته الحلوة نسي حاله وركض عليها قدّام الخلق.

ثم التفت إلى أخيه مبتسماً:

- حتى أخوك مسعود ما بخلا من عواطف الشعرا في بعض الأوقات.. بس على قولة أبو عطية، بعد المرة الأولى بتصير الشغلة عادية، وما بعود فيه وقت وانتباه لغير الغرض المخصوص.

قال عليّ مستنكراً:

- وفيه مرّة ثانية؟

- ما أنا قلت لك. المرة الجاي إشي محرز.. بقر هولندي.

- مش كل مرّة بتسلم الجرّة.

- وما نيل المطالب بالتمني /ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

- الدنيا.. فلسطين.. مش بقرة هولندية!

- اعتبروا تدريب يا خوي.. ضد الخوف.. واحنا ثلاثة يا خوي.. مش جيش.. وشو عملت الجيوش؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

بيت متوسط الحجم، من حجر قديم عَلَتْه صفرة الزمن، تحيط به حديقة صغيرة وسور، تتدلّى عنه أغصان الياسمين وتغطي معظمه. وله شرفة مطلّة على الحديقة. ويقع على شارع فرعيّ قصير يصل ما بين الشارع المحاذي للمخيم والشارع الرئيس المسمى شارع نابلس وتعبر منه السيارات الذاهبة إلى مدينة نابلس على بُعد نحو ثلاثين كيلومتراً شرق جنوب طولكرم. وبذلك فالبيت لا يبعد عن المخيم غير بضع دقائق مشياً.

أطلّت سيدة البيت من شق الباب لتنظر الطارق.

كانت فتحية تقف عند الباب بثيابها المدنية التقليدية: الكاب الأسود، والطرحة السوداء الرقيقة التي تتسدل على الوجه. ولكن المظهر المدنيّ لم يخفِ رثاثة الثياب التي لم تتجدد منذ اللجوء. عرّفت فتحية نفسها وهي ما تزال واقفة عند باب الحديقة.

- أنا يا اختي من بلدياتكن.

دعتها أم ماهر إلى الدخول بشيء من التردد. فما شأن هذه المرأة الغريبة التي لم ترها من قبل، وإذا كانت حقاً من حيفا مثلها فكيف عرفت بها؟

ولم تطل حيرتها فيها، فما إن جلست فتحية وقد بدا عليها الحرج الشديد، حتى شرحت لها بصوت متقطع من الحياء بأنها سمعت أنها حيفاوية مثلها، فأحبت أن تزورها ولا شيء آخر. فلا تعرف حيفاوية أخرى في المخيم تجالسها وتستذكر معها أيام حيفا.

قالت أم ماهر بعفوية:

- أهلاً وسهلاً..

ثم قالت بلا تدبّر:

- والله إحنا يا خيتي مش مها..

تداركت على نفسها فلم تكمل كلمة «مهاجرين»، وعدلت إلى الشرح:

- قصدي أنا اتجوزت أيام البلاد وانتقلت مع جوزي لطولكرم قبل الحوادث والهجرة..

علمت منها فتحية أن زوجها موظف في مصلحة البريد، وأنهم تنقلوا في بلدات مختلفة: من حيفا.. إلى رام الله، إلى طولكرم. ثم سألت فتحية كيف انتهى بها الحال إلى مخيم طولكرم. فقصّت عليها خبرها وزواجها من أبو صالح.. القائد أبو صالح.. قائد فصيل حطين.. وأن أهلها التجأوا إلى لبنان حين سقطت حيفا. وانقطع ما بينهم حتى الآن.

قدّمت لها أم ماهر القهوة، وانخرطا في كلام طويل في ذكرى حيفا وحاراتها وأحيائها وبحرها والكرمل والهادار ومعالمها المشهورة وجمال الحياة فيها.. «سقى الله تلك الأيام».. كانت تلك هي الفاصل بين الذكرى والذكرى، ولكن باللهجة الدارجة «ساق الله...».

ودّعتها فتحية، وقد زادها الحديث عن أيام حيفا شوقا وحنينا ووجعا. ولكنه كان وجعاً لطيفاً لم يذهب بغبطتها أنها وجدت أخيراً من تتحدّث بلهجتها وتشاركها ما لا تجد أحداً حولها يشاركها به. وقبل أن تخرج التقط بصرها جهاز مذياع يشبه المذياع الذي أهداها إياه عليّ في بيتها في حيفا على الرغم من اعتراض أبو صالح على جهاز الشيطان الذي يبث الميوعة وقلّة الأدب وأغاني الحب. فتوقفت تنظر إليه وتتأمّله، قبل أن تفطن إلى نفسها وإلى أم ماهر التي كانت ترقبها.

وحين صارت عند باب الحديقة في طريق الخروج، سمعت أم ماهر تناديها، فلما التفتت إليها وجدتها تحمل صحناً مغطى لحقتها به:

- خذي هادا للأولاد.. بتبقي ترجعي الصحن لما..

انتفض جسم فتحية وردّت بنبرة استنكار:

- له يا خيتي.. أنا أجيت زيارة زي الناس ما بيتزاوروا..

قالت أم ماهر تحثّها وهي تمدّ يدها بالصحن:

- معلش.. الناس للناس.

- لا يا خيتي، سلّم إيديك.. عامر إن شا الله.

ومضت مسرعة وسمعت صوت أم ماهر من خلفها:

- بالله عليك تجعليها بعودة يا أم صالح.. لا تقطعي زيارتك عني.

إذ ابتعدت فتحية خطوات وتوارت خلف السور، توقفت وملامح وجهها تهتز، ثم أطلقت دموعها بصمت. وأسدلت الغطاء على وجهها، وتابعت مشيها نحو المخيم القريب.. القريب البعيد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

حمل مسعود طفله الأول بعناية يهزه هزاً خفيفاً ويمعن في وجهه، وتدفقت عواطف الأبوّة فيه كالنبع الجاري. ووجدت الأسرة من حوله ساعة للفرح أخيراً، وقال مسعود وهو يتأمل طفله الوليد:

- أول إنتاج بعد النكبة.

علّق عليّ:

- لاجئ أصيل.

ردّ مسعود مبتسماً:

- قول ابن مخيم أصيل.. ابن لاجئ. مش مضطر زينا يظل يطّلع وراه.. قدّامه بسّ.

علّق أحمد معترضاً:

- بالعكس.. لازم يتطلع ورا منشان يعرف شو اللي قدّامه. واللي فاته من اللي عشناه وشفناه إحنا لازم نضخّه فيه.

وتحدث عليّ مؤيِّداً أبو صالح، وأن الواقع الحاضر على كل حال يحكي عن الماضي وعما ينبغي أن يكون. واستدرك مسعود بأنه إنما قصد الجانب الشخصي لا العام. وعلّق عليّ من جديد بأن هذا من ذاك.

وكالعادة في مثل هذه المناسبات لا بد من تشبيه المولود على أبناء الأسرة. فأسرعت لطيفة وهي على فراشها إلى القول:

- أبوي المِخْلَق المِنْطَق.

أرسل مسعود إليها نظرة استنكار، وهمس وهو يشيح بوجهه:

- لا قدّر الله.

قالت:

- شو قلت يا مسعود؟ روح الله يسامحك.

حملت أم أحمد الطفل وقرّبته من زوجها وسألت:

- بالله أحكم انت يا أبو أحمد، على مين طالع؟

نظر أبو أحمد إليه متفحصاً، وفجأة غلبه البكاء، وخرج من الخيمة. وأدرك الجميع أنه شبّهه على حسن. كان قلق الجميع يزداد عليه في كل يوم مع طول صمته وتفكيره وغيابه عمن حوله.

مع وصول طفله البكر، بدأ مسعود يراجع نفسه في مغامرة التسلل من جديد من أجل غنيمة البقر الهولندي، لولا تشجيع شريكيه: أبو عطية وأبو محمود، والثقة التي يبثها أبو عطية بحكم تجاربه ومواهبه وقوة قلبه.

لا بأس. ألا يقولون إن المولود يأتي ورزقه معه؟

ألقى أبو عطية توجيهاته مشدداً أن البقر ليس كالشجر الثابت الصامت، وأن الحظيرة تكون قريبة من مساكن المستوطنين في «الكبانيّات»، وهي الكلمة الشائعة التي كانت تُطلَق على التجمعات الاستيطانية الزراعية في ذلك الوقت. والخطة أن

يكمن الثلاثة على مسافة مناسبة من الكبانية في جوف الليل، ويرقبوا حتى تنطفئ الأنوار كلها وتنقطع الأصوات. ثم يتسللوا فرادى: الواحد تلو الآخر، فإذا صار أحدهم في الحظيرة وسمع حركة من أحد، جمّد نفسه بين البقر ولم يسارع إلى الفرار فينبه إلى نفسه. وإذا كتب الله لهم السلامة عاد كل منهم بغنيمته ومضى بها نحو الحدود دون أن ينتظر صاحبيه. على أن أخطر مرحلة هي بعد الخروج بالبقرة من الحظيرة، إذ تلحّ الرغبة بالتعجّل للابتعاد بعد أن صارت الغنيمة بيده، وينسى أنها صارت تحكمه، وأن عليه أن يحافظ على هدوئه ويتحكم بأعصابه. فإذا قطع أحدهم الحدود أخيراً فلا ينبغي أن يشعر بالأمان فيتوقف ليستريح ويلتقط أنفاسه على مسافة قريبة من الحدّ. فالرصاصة لا يوقفها حدّ، بل لا شيء يمنع من يمكن أن يلاحقهم من عبور الحدود وراءهم قبل أن يوغلوا في سهل المدينة. وإذا تنبه أحدهم للملاحقة وكان بينه وبين الحدود عشرة أمتار فقط، فعليه أن يترك البقرة ويسرع للنجاة بنفسه، لا تغريه الأمتار القليلة الباقية. فنصف دقيقة قد تكون الفرق بين الحياة والموت.

حين بلغ مسعود مأمنه في سهل طولكرم، وقد صار المخيم على مرمى بصره، أفلت حبل البقرة لأول مرة، ونزل إلى الأرض يلهث ويتصبب عرقاً. ثم نظر إلى البقرة التي التفتت إليه وبدا أنهما يتبادلان النظر.

اتسعت ابتسامته ونسي تعبه، ثم تحولت الابتسامة إلى ضحك خفيف وبهجة غامرة إلى أن تصاعد الضحك إلى قهقهة عارمة، ووجد نفسه يقوم على ساقيه المرهقتين وقد دبّ فيه نشاط عجيب وأخذ يمسح على البقرة ويدور حولها، ثم رفع عقاله وقذفه إلى الأعلى بأسلوب احتفالي. قد فعلها إذن، وسعادته بالغنيمة نفسها ليست أكبر من سعادته بنفسه إذ تقحّم الخطر وحقق غايته. وكانت شمس الصباح قد بدأت تطلّ من الأفق الشرقيّ لتشهد انتصاره وتشهد له.

أفاقت الأسرة على صوت ثغاء البقرة. فهبّوا جميعاً. وكان أسرعهم عليّ الذي بات الليل سهران يتقلّب على جمر ويجلد نفسه باللوم على أنه سكت عن خطة أخيه. فكيف يغفرها لنفسه إذا فَقَدَ أخاه فيها، فانضم إلى أخيهما الشهيد حسن وإن اختلفت الطرق. وكيف للوالدين أن يحتملا فقدان ابن آخر. سوف يقتلهما الثكل والحسرة وسيقتلانه معهما.

تسمّرت أنظار الأسرة على مسعود وهو يقف متكئاً على البقرة، وقد وضع ذراعه الأخرى على خاصرته كأنه يقف أمام مصوّر، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة تنضح بالاعتزاز والفخر.

لحظات من الدهشة والحيرة قبل أن يتساءل أبو صالح:

- شو هاذ؟

أجاب مسعود وهو يستعرض البقرة:

- سلامة نظرك يا خوي.. على ذمة الراوي هذي بقرة.. بقرة هولندية عرض وطول.

- قصدي لمين؟ شو جاي تعمل فيها؟

- لمين؟ إلي.. إلنا.. إلك يا أبو صالح.

- خلصنا من الألغاز.
- حق مسترجع يا أبو صالح.. جزء صغير جداً من حقوق مسروقة.
أدرك أبو صالح الآن الموقف، فهتف مستنكراً:
- تسللت يا مسعود؟
ضربت أم أحمد على رأسها وصاحت مولولة:
- قطعت الحدود يا مسعود خاطرت بحياتك يمّة يا ويلك يا أم أحمد.
ردّ مسعود يهدئ من خاطرها:
- على مهلك يمّه.. أنا قدامك صاغ سليم..
ثم استدرك ضاحكاً:
- بس زايد بقرة.. بقرة هولندية!
التفتت أم أحمد إلى زوجها الذي جلس محافظاً على صمته كأنه لا يريد أن يسمع ولا يرى:
- شايف ابنك شو عمل. قوم صلّي ركعتين واحمد ربك إنه رجّع لك إياه.
في هذه اللحظة أطلت لطيفة من خيمتها، فدعتها أم أحمد إلى العودة إلى فراشها إذ ما تزال نفاساً. ثم عادت تخاطب مسعود:
- يعني شغل النّطر في المقاثي كان كلّه كذب.
ردّ مسعود:
- والا منين البرتقان اللي أكلتوه هذاك اليوم؟ وأبوي يقول: وين هاذ البرتقان ووين برتقان البلاد.
وأطلق ضحكة قصيرة. وقالت الأم:
- اضحك.. اضحك.. قال قلبي على ولدي وقلب ولدي على حجر.
- يمّه قلبي مش على حجر.. قلبي عليكم.. هذي البقرة حصّة أخوي أبو صالح.
تدخّل أبو صالح:
- أنا شكيت لك يا مسعود؟
- ما فيش حاجة إنك تشكي لي يا خوي.. أنا بشكي عنك.. انت شقيت كثير منشان الجميع.. هسع لازم أنا وعلي نحط كل اللي بنقدر عليه منشان نفتح لك مصلحة صغيرة.. دكان على قد الحال.
صاحت الأم من جديد:
- طيب سقت عليك اسم الله وجاه الله ما تعيدها يمّه.. بديش أخسر ولد ثاني.
وانكسر صوتها بالعبارة الأخيرة وعادت إلى خيمتها، وأطرق مسعود، حتى تنبه إلى رشدي يلتصق به ويرفع رأسه ينظر إليه كأنه يريد شيئاً.
- إيش يا خالي؟
أجاب رشدي بصوت هامس بعد تردد:

- المرة الجاي إذا تسللت توخذني معك؟

- محسّبها مشوار وشمّة هوا يا خالي؟

فات مسعود مغزى طلب رشدي، حتى قال بصوت متقطّع:

- قصدي.. بلكن نقدر نوصل للبلد اللي ظلت فيها أمي.

نسي مسعود بهجة الغنيمة إذ رأى الدموع تترقرق في عيني ابن أخته، ونزل مقرفصاً أمامه يربت عليه ويمسح دمعه ثم يضمه إلى صدره:

- آ آخ يا بابن أختي.. المصايب كثيرة والحوادث لاحقة بعض أكثر من طاقة العقل والقلب. تعودنا عليك يا خالي بينا حتى نسينا انت وين وأمك وين.. سامحنا يا خالي.. والله ما بنبدّي عليك أولادنا طول ما فينا نفس..

حين دخل مسعود إلى خيمته ليرقد قليلاً بعد مغامرة الليل المرهقة، لم تتأخر لطيفة في نقله إلى مزاج آخر غير مزاج البهجة الأولى بالغنيمة، ثم مزاج الأسى مع رشدي. فاستنكرت عليه قوله إن البقرة حصة أخيه أبو صالح! هل يعرّض نفسه لخطر الموت لينزل عنها لأخيه؟ وما حظها وحظّ وليدها من ذلك؟

- إذا كنت أنا مش مهمة عندك والله لا يردني، فكر في ابنك على الأقل؟

أرسل إليها نظرة مفعمة بالغيظ:

- يعني نفدت من اليهود، وجيت لبنت أبو عايد! هذي قولتهم: كالمستجير من الرمضاء بالنار!

وألقى جسمه على فراشه مستديراً عنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الوقت قد بلغ الضحى حين امتلأ سهل طولكرم بأصوات التهليل. توقف المزارعون العاملون في الحقول ينظرون جهة الأصوات، حيث بدا أن نفراً من الرجال يرفعون جثة ويقطعون بها الحقول ويتابعون التهليل والتكبير.. رمى بعض المزارعين معاولهم وهرولوا صوب الجماعة.

أفاق مسعود على صوت جلبة قريبة، فهبّ من فراشه مستطلعاً، ووجد أسرته قد سبقته إلى الخارج بينما كان آخرون من أهل المخيم يتدافعون وقد علت أصوات التهليل التي تنذر بالموت. وما هي حتى تحققت مخاوف مسعود إذ سُمِع صياح أم محمود ونواحها يخترق الضجيج.

قُتِل أبو محمود. وعُثِر على جثته ملقاة أمام الحدود.

دقت أم أحمد على صدرها:

- يا حسرتك يا أم محمود. لا حول ولا قوة إلا بالله.

التقت نظرات عليّ ومسعود الذي بدا متجمِّدا مصعوقاً، ونزل جالساً على الأرض ووضع رأسه بين يديه. وأدرك أحمد حقيقة الأمر من ردة فعل أخيه.. لقد كان شريكه في تلك المخاطرة.. وهنا فقط استوعب مداها. وهرولت أم أحمد نحو خيمة أم محمود التي لن يكون لها ولابنتها صبحية معيل بعد الآن. ذهب الرجل الطيب الذي تعهّد صالح في ضياعه حتى بلغ به أهله. أكانت بقرة هولندية تستحق هذا المصير؟ موت ويُتْم وترمُّل!

بعد انقضاء العزاء. حل مسعود رباط بقرته، ومضى بها إلى خيمة أم محمود، فوجد «أبو عطيّة» قد سبقه ببقرته..

لن تكون بقرة مسعود لنفسه أو لأي من أهله. ولكن، لا عزاء للمسكينة أم محمود! ولا تستطيع لطيفة أن تعترض على ذهاب الغنيمة القاتلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على باب وكالة الغوث

(عودة الثائر إلى صباه)

1

لبث مقتل أبي محمود حديث المخيم وقتاً. وأضيفت غصّة جديدة إلى غصّات المشرّدين، وحكاية جديدة إلى حكاياتهم وذاكرتهم النازفة. على أن مغامرات التسلل توقفت مع الزمن، فقد ازدادت الرقابة على خط النار إحكاماً على الجانبين. وصار مجرد الاقتراب منه مخاطرة شاخصة.

أخيراً أذعن عليّ لإلحاح أخيه مسعود أن يخرج من عزلته فيخالط من هم مثله ثقافةً وتعليماً. وهؤلاء يجتمعون في قهوة «الكرمول» الواقعة في وسط البلد، وهي أقرب إلى أن تكون متنزهاً بحديقتها الخلفية إلى جانب صالتها الداخلية. ويأتيها نخبة الموظفين الحكوميين ومديرو المدارس والمعلمون ووجهاء المدينة، يلعبون الطاولة ويدخّنون الأرجيلة ويحتسون القهوة، ويتبادلون الحديث في آخر الأخبار المحلية والعامة. وحرص مسعود على أن يخرج أخاه بهندام مقبول، فعمل على كيّ قميصه وبنطاله وجاكيته القديم.

وقف عليّ متردداً في الدخول، ثم انثنى ليعود من حيث جاء، ولكنه وجد نفسه وجهاً لوجه مع أبو أكرم السويدي، الذي ميّزه من فوره:

- الأستاذ علي!

سلّم عليه بحرارة وصحبه إلى الداخل، حيث كان ينتظره أصحابه المرموقون: قاضي صلح طولكرم، ومدير مدرسة الفاضلية الثانوية العريقة المعروفة بمستوى معلميها وأداء طلبتها، ورئيس البلدية.

قدّمه أبو أكرم لأصحابه مؤكداً أنه كان من ألمع طلبة فلسطين في الكلية العربية في القدس وأنه حصل على شهادة المترك الإنكليزي وشهادة «الانترميديت» بتفوّق، ولم ينسَ بالطبع أن يذكر لهم أنه شقيق القائد أبو صالح، قائد فصيل حطين في ثورة فلسطين الكبرى في الثلاثينيات، وكان معروفاً بشجاعته ونبل أخلاقه. بل ذكر لهم فضله عليه شخصياً حين أصدر بيان نعي في ولده الشهيد أكرم بوصفه شهيد الوطن، فبيّض بذلك سمعته التي حاول من دبّر اغتياله تشويهها.

على الرغم من كل تلك المدائح لم يستطع عليّ أن يدافع شعوراً خفياً بأن إطالة أبو أكرم فيها وتأكيده الزائد لها كان يبطن شيئاً من التسويغ لعلاقته بلاجئ من المخيم!

لم يشارك كثيراً في الحوار الذي دار بعد ذلك. واكتفى بتعليقات مقتضبة كلما توجه له بعض الحضور بالسؤال المباشر. وكالعادة دار الحديث عن القضية وأسباب الهزيمة التي توزعت بين القوى الاستعمارية وتخاذل الأنظمة العربية وأحوال التخلف العربي التي تشمل الوضع الفلسطيني نفسه. واختلف الحضور كالعادة في ترتيب التهم والأسباب بين العوامل الخارجية والعوامل الداخلية، إلا أنهم كانوا يتفقون على العبارة الخاتمة:

- الله يلعن اللي كان السبب.

وهنا يضيع دم فلسطين بين الأسباب، ويضيع معها ترتيب أولويات التغيير والخلاص: يقظة الوعي، التعليم، الأخذ بأسباب الحضارة والنهوض، الثورة على الأنظمة العربية العميلة والمتواطئة، التحرر من التبعية للقوى الاستعماريّة التي

صنعت إسرائيل وكبّلت أيدي العرب، الوحدة العربية والخروج من التجزئة القطريّة التي فرضتها مؤامرة «سايكس-بيكو»، بعث روح المقاومة الشعبية ودعوة الأمة الإسلامية كلها للجهاد من أجل تحرير الأرض المقدسة.. فالقضية الفلسطينية ليست قضية الفلسطينيين وحدهم، وإنما هي قضية الأمة العربية والإسلامية كلها.

كلام متشعب وكبير، أكبر من هذا المقهى، وأسهل على القائل من الفعل، كما أن التشخيص أهون من العلاج، وإن كان مقدمته. هذا ما خطر في ذهن عليّ الذي اختزل الموضوع في نفسه بفكرة أن الداء جماع الجرثومة الغازية والجسم المضيف الضعيف الذي يستقبلها!

«سامحك الله يا مسعود، هل كان يجب أن تدفعني دفعاً إلى مجلس كهذا أجد نفسي فيه غريباً طارئاً.. بل متطفّلاً؟».

حدَّث نفسه بهذا وهو في طريق عودته إلى المخيم.

وحين وصل ما صار له بيتاً، وجد أبو صالح ومسعود وسعيد وعايد وأبو عطية يتسامرون على حصير في الحوش. وعلى غير عادته في الانفراد بنفسه، وجد نفسه ينضمّ إليهم وقد غمره شعور بالألفة والراحة لم يجد مثله في مجلسه السابق.

«أيام البلاد» أيضاً.. حاضرة دائماً في أيام المخيم. وكان سعيد يتحدّث عن تجربة قديمة له أيام البلاد حين كان صبياً صغيراً في طبريّة. وكان أبوه يصطحبه إلى دكان يهوديّ اسمه يعقوب، ولم يكن من مهاجري اليهود القادمين من الخارج. وكان يعيش بين العرب كأنه منهم. ويتكلم العربية باللهجة الفلسطينية. وكان شديد اللطف والأدب ولا يخوض في مواضيع السياسة ولا يبدو أن له شأناً بالخطط الصهيونية والصراع على فلسطين. بل كان يحفظ شيئاً من القرآن ويستشهد به في المناسبات. وكان يلاطف سعيد ويربت عليه، وقد يعطيه بعض الحلوى. وكان له ولد في مثل عمر سعيد اسمه داوود. وفي أحد الأيام كانا يلعبان معاً خارج الدكان، فاختلفا على أمرٍ ما، وإذ بداود يقول في غضبه:

«طيب. والله في يوم من الأيام لنوخذ هالبلاد ونطردكم منها، زيّ ما بقول أبوي وأمي».

وأردف سعيد متابعاً حكايته:

- الله يقطعك يا يعقوب ويقطع نسْلك. هذا الآدمي.. بس أنا ما قصّرتش.. لا خليت له ولا بقّيت له.. وأنا راجع مع رحمة أبوي خرّفته باللي سمعته.. قام ضحك وقال: «لما ينوّر الملح».

علق أبو عطية:

- وهاي صار.

قال سعيد:

- صار، صار. داهود هذا سمعت بعد سنين إنه صار ضابط في الهاغاناه. ويمكن هسّع ساكن في بيتنا، الله يقطعه.

ثم أحب أن يخرج من حكايا الماضي إلى الحاضر، ومن نبرة الذكريات إلى نبرة الدعابة المعتادة منه:

- بس ابشروا. هاي وكالة الغوث ناوية في المستقبل تبني لنا بيوت في المخيم، وتفرك ملحة بعين داهود وأبو داهود.

علّق أبو عطية:

- والله يا ابن أخوي ما بتبنيلك لسواد عينيك. بس بدها تنسّي الناس وطنها وبيوتها.. توطين.

علا صوت سعيد:

- يعني بتحب تظل في الخيمة يا أبو عطية؟

أجاب أبو عطية:

- بحب أرجع لبلدي.

- عاد وإذا بقت هذي بعيدة؟ شو تعمل انت في هالوقت؟ ناسي شو صار فينا سنة الثلجة الله لا يعيدها؟ يعني هالنواحي عمرها ما شافت الثلج، لحتى صار فيه لاجئين عايشين في الشوادر. وهسّع مش عاجبك تبني لنا الوكالة؟

ثم أردف متهكماً:

- إحنا اللاجئين عينينا فارغة، ما بملّيها إلا التراب.

ردّ أبو عطية وقد دخل في مزاج التهكم:

- أي والله. قلة تراب ووحل حواليك.

وتدخّل مسعود معلقاً:

- كل الخيرات اللي إحنا فيها بعدها عينينا فارغة!

استأنف سعيد، ولكن بلهجة جادة هذه المرّة:

- إذا قالوا بدنا نبني لكم ونعمل طرق مليحة، بنقول خطة للتوطين.. مؤامرة حتى ننسى.. وإذا نسيونا وما عملوا شي بندب الصوت وبنقول: جاي يا هالناس جاي، تعالوا شوفوا حال اللاجئين بالويل. وبجيبوا مصورين وناس أجانب منشان يشوفوا بعيونهم.. وإيش لعاد اللي بدنا إياه؟

ردّ عايد:

- ما قال لك. بدنا نرجع لبلادنا.

- ومين اللي يرجعك يا خوي؟ اللي طلّعك؟

- حيرتنا يا خوي.. ريّحنا وقول انت شو رايك.

اعتدل سعيد في جلسته، وانطلق في الحديث متدفقاً:

- رايي يا خوي، أينعم. بجوز غرضهم التوطين. بس إحنا ما بننسى في كل الأحوال.. وأولادنا وأولاد أولادنا مش رايحين ينسوا.. وغيرنا بذكرنا، بخيمة والا بدون خيمة، لو طلع اللاجئ للقمر بتظل عليه دمغته، لاجئ.. وخليني أذكرك: أكثر أهل المخيمات ما كانوش عايشين بالعلالي في بلادهم.. والا لقولهم مطرح ثاني غير المخيم ينضبوا فيه.. مش كل مهجّر ابن مخيم.. لو كانت القضية بس بيت صغير وشقفة أرض صغيرة كان راس مالها يعطوك أحسن من اللي كان عندك أيام البلاد. بس الوطن غالي يا أولاد الحلال. والقضية مش بس قضية لاجئين.. القضية قضية

وطن وبلاد وشعب. والبلاد ما بترجع إلا بزنود الزلام. وإذا راحت علينا قبل اليوم لأنه إيدينا بقت مربّطة وما فيش زعامة على قد حالها ولا وعي ولا تنظيم، هذي كلها بدها تتغير.. الناس اللي انكوت بالنار أكثر من غيرها رايحة توعى وتتعلّم وتفهم الطابق من أوله لآخره. قلت بدّك رايي، هذا رايي.

كان عليّ يستمع باهتمام وقد ارتسم على وجهه طيف ابتسامة إعجاب خفيفة. وأعقبت كلام سعيد لحظات صمت وتأمّل، قطعها مسعود:

- هذا ولك بتفهم وإحنا مش داريين!

انتفض سعيد وتقمّص ملامح البله والسذاجة والعبث عائداً بها إلى مألوف أسلوبه في المزاح والدعابة:

- أنا بفهم؟ الله يسامحك. غرّك اللي قلته؟ هاذ حفظته من واحد متعلم وفهيم. أنا يا عمّي جاهل وأهبل. لا تطلعوا عليّ سمعة أني عاقل وفاهم، بعدين الناس بتصير تحاسبني. هسّع إذا نكشت هاذ أو عرقلت هذاك أو لعنت أبو سنسفيل هذا، بقولوا بهمّش.. عقلاته عقدّه. شو بدّي أحسن من هيك.. الهبل بريّح.

ثم قفز ليخرج على عجل وهو يقول:

- خليني أقوم قبل ما أطلّع جنوني عليكم. بخاطركم. تصبحوا على.. كرت المؤن!

ودّعوه بالضحك. وعلّق مسعود:

- دمه خفيف حريق هالحرسة.

"منذ ذلك الحين، سيكون على اللاجئ أن يعيش تلك المفارقات الحادّة المؤلمة، موزَّعاً دائماً بين حاجاته المادية المباشرة وبين مطلبه الوطني العام. وما كان لهذين المطلبين الشرعيين أن ينسجما في نفسه دائماً. سيطالب بتحسين أوضاعه، ومع ذلك سيحيط كل خطة في هذا السبيل بالشك أن يكون الثمن ذاكرته وقضيته.

كيف يمكن أن يطالب بحقوق المواطنة الكاملة أينما كان دون أن يخاطر بهويته وحقه في العودة؟ كيف يكافح للخروج من المخيم دون أن يفقد شهادة لجوئه؟ كيف له أن يعمل على إنجاز طموحاته الشخصية كأي إنسان آخر دون أن يأخذ ذلك من رصيد واجبه الوطني؟ كيف يمكن أن يؤكد عروبة قضيته دون أن يسلّم مصيره لغيره، ودون أن يخاطر بتحويل قضيته من قضية شعب ووطن إلى مجرّد نزاع إقليمي يحتكم أخيراً إلى الدول العظمى؟

سيكون عليه أن يشك في نيّات من يعرض عليه شيئاً مما يريد، دون وطنه وعودته، وأن ينقم في الوقت نفسه على من يمنع.

عليه أن يعيش هذه المفارقات الطاحنة، وأن يبقى موزعاً بين عقدة الشعور بالذنب، وعقدة الاضطهاد والشك.. والغغب! وسيبدو أحياناً لغزاً غريباً ومحيًّرا ومزعجاً لأولئك الذين لم يُعَنّوا أنفسهم بفهم الدوافع العميقة والعوامل الموضوعية لكل تلك المشاعر والمفارقات المتنازعة".

من مذكرات علي الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

جاءت ثورة الضباط الأحرار في مصر، في الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢، على العهد الملكي، لتبعث آمال التحرير والعودة.

ألم تعلن أن أحد أهم أسبابها عجز العهد البائد في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وأسلحته الفاسدة، وأن من أعظم غاياتها تحرير فلسطين، بكل ما يقتضيه ذلك من إعادة بناء الجيش المصري واقتصاد مصر، وتحقيق العدالة الاجتماعية، والوحدة القومية؟ وهل بين العرب والتحرير إلا هذه المقتضيات مع الإرادة السياسية الصادقة؟ ألم يكن بطل تلك الثورة المباركة: جمال عبدالناصر، أحد ضباط الجيش المصري الذي حوصر في الفالوجة جنوب فلسطين في حرب النكبة، وشهد بأم عينه مأساة العجز العربي وفظائع الصهاينة، وعاد منها يطوي صدره على نيران الثأر واسترجاع الكرامة؟ وتلك مصر.. أرض العدد والعدّة.. ومركز الوطن العربي.. وأم الدنيا! وقاهرة الصليبيين والمغول، فمن أراد أن يفسد لحظة الاحتفاء والأمل المتجدّد بالتذكير بالقوى الاستعمارية الكبرى التي صنعت إسرائيل وتقف وراءها: بريطانيا وأمريكا، وجد من يذكره بأننا نستقبل عالماً جديداً تتغيّر فيه موازين القوة مع بدء الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفيتي الذي يدعم ثورات الشعوب المقهورة وحركات التحرر العالمية. ولا حاجة لنا بالمخذّلين وجماعة الطابور الخامس، أول الغيث قطرة، والثورة المصرية زخّة وليست مجرّد قطرة. وقد صحّ قول القائل: الطريق إلى تحرير فلسطين يمرّ في عواصم العالم العربي. وهذه مصر.. وهذه القاهرة.. «والحبل على الجرّار»!! وهذا يوم من أيام العرب، ستتلوه أيام.. ففاتورة فلسطين كبيرة. ومن يدري، لعل التوافق بين «ناصر» مصر وثورتها، وبين «الناصر» صلاح الدين أكثر من مجرّد التوافق بين الاسم واللقب! «الناصر» حررها أولاً و«ناصر» يحرّرها في هذا الزمان!

كل هذا كان يدور بين الناس.

وتنهّد أبو عايد الذي كان يجلس مع أصهاره في حوش خيامهم، ومعهم عايد أيضاً، وقال:

- يا من درا؟ يا من درا بفيق يوم بلاقي حالي في دارنا وبلدنا وأرضنا؟

أحب مسعود أن يناكفه مزاحاً:

- في دارك بصير.. بس في أرضك، هذي فيها حكي.

ردّ أبو عايد دون أن يتنبه لمرمى مسعود، بأن من يصل داره يصل أرضه. فقال مسعود مبتسماً:

- نسيت إنك كتبت لي ورقة ببيع أرضك إلي؟

ردّ أبو عايد:

- وانت كتبت لي.

- عال. انت بتوخذ أرضنا اللي طول عمرك كنت راغب فيها، واحنا بنوخذ أرضك.. قصدي أراضيك!

ومدّ صوته بكلمة «أراضيك» ليشخص كثرتها وسعتها.

هز أبو عايد رأسه وقال بأسلوب بعيد الصلة بعالمه القديم:

- يا سيدي.. خلينا نرجع.. وخذ أرضي وأرضك.. عتب عاللي بيزعل.

تدخّل عايد:

- هاذ صرتوا تبيعوا وتشتروا بالأرض كأنا راجعين بكرة الصبحيات.

أطل سعيد عليهم من وراء الحاجز الوطيء المحيط بالخيمات، وقال:

- مبروك عليكم الثورة المصرية.

دعاه أبو صالح للدخول، ولكنه توجه بالخطاب إلى أبو عايد وهو يهز ورقة بيده:

- ختمك معك يا مختار؟ بدنا ختمك على الورقة.

استخرج أبو عايد عِدّة الختم من جيب قمبازه. وختم الورقة دون أن يسأل عما فيها. ومدّ سعيد يده له بقطعة نقد صغيرة. وردّها أبو عايد:

- هالمرّة حلوان الثورة بمصر.

- نردّ لك إياها برجوع البلاد يا أبو عايد.. يا سيد مخاتير المخيم.

وهرول مبتعداً.

ولكن، إلى أن تنجز ثورة يوليو وعودها، وكذلك الثورات العربية الأخرى التي يتوقع أن تستلهمها أو تلحق بها تحت عناوين التحرر والتحرير، سوف يبقى وقت للانتظار، ومعه المزيد من الشقاء والانكسارات وخيبات الأمل، والوقوف الطويل المُذِل أمام مراكز توزيع المؤن والمساعدات التابعة لوكالة غوث اللاجئين.

- درويش غانم الدريسي.

- حاضر.

- عبدالرحيم سالم الموسى.

- أيوه هون..

- ذيب صالح السلمان.

وكرر موظف الوكالة الاسم الأخير دون أن يظهر صاحبه، وحين قذف الموظف بطاقة تموينه جانباً وتحوّل إلى بطاقة أخرى، شوهد «ذيب» راكضاً يخترق الحشد وهو يصيح:

- هيني.. أنا ذيب.

خاطبه الموظف بغضب وعصبية:

- وين كنت حضرتك؟ يعني إحنا فاضيين لك؟

- ما سمعتش من الأصوات.

انفجر الموظف في الناس:

- ولكم وآخرتها معكم. أكم مرة قلنا يا عالم، يا بني آدمين.. هدوء.. نظام.. خلي صوتنا ينسمع.. انبحت أصواتنا وما في فايدة.. طيب إذا قلت يا بجم، يا بقر، يا زفت.. هيك بتسمعوا؟ ما هوه إذا ما بصير هدوء ونظام بحلف يمين بنوقف التوزيع اليوم، وروحوا بلطوا البحر.

لم تكن هذه أول مرة يواجههم هذا الموظف بهذا الأسلوب العدواني المهين. فقد بات معروفاً بصلافته وغلظته، حتى صار الناس يتشاءمون من طلعته. وكان الإجراء المتّبع أن يبدأ المستحقون بتسليم بطاقات التموين، ثم ينادي الموظف على أصحابها واحداً إثر الآخر، فمن يتناول بطاقته يذهب بها لتسلّم حصته على حسب عدد أسرته المسجّلين.

فرغ الموظف من البطاقات التي كانت أمامه، وانثنى ليدخل فيأتي بغيرها مما تم تدقيقه، وسمع صوت رجل يستوقفه:

- يا أخ.. يا أخ..

استدار ينظر في صاحب النداء. وكان ذلك أبو صالح.

- أنا من بوز الصبح سلمت كرتي.

ردّ الموظف بجفاء وازدراء:

- يعني؟

أجاب أبو صالح متلطفاً يكظم غيظه:

- لو سمحت تتكرم وتشوف لي إياه جوّه.. أنا اسمي..

قاطعه الموظف:

- عال والله بقعد أدوّر على كرتك من دون الكل. إيش حضرتك؟ عليك علامة؟ والا لاجئ بشحطة والثانيين لاجئين بدون شحطة. روح وقف مع الناس واستنّى زيّك زيّهم لحتى تسمع اسمك.

وتابع سيره إلى الداخل وهو يقول:

- ناس لا بتفهم ولا بتستحي.

ودندن الحاضرون ممن شهد الموقف.

- حريق الوالدين.. هذا حكم يهود.

- كأنه بيعطينا من دار أبوه.. نازل يبهدل من الصبح.

- ما هوه إحنا برضه كلنا فوضى.

- ما يزيدوا الموظفين، وينقلوا على مركز أوسع حتى نخلص.. بنريّح وبنستريح.

توقف الكلام تدريجاً إذ سُمِع صوت سعيد يغني بزجل شاعَ في تلك الأيام.

قدّر علينا الخلّاق
جينا ودشّرْنا الأرزاق
شربنا علقم ما بنذاق
في الخان بنشحد طحين
وصرنا نبشِّر بعضنا
تاجانا سمن وسردين
واللّي بتْوَقَّف كرته

قنعس كالصوص المسكين
ومش عارف يرجع عالدار
خلّي أولاده جيعانين
كِنْ جرّه من عرق الذان
قال له كروتك مقطوعين.

عاد الموظف بمجموعة أخرى من البطاقات، وأخذ ينادي، حتى وصل إلى بطاقة مهترئة، وأخذ يدقق في الاسم الذي لم يكن واضحاً، حتى قال:

- هاذ كرت مقطّع.. الاسم مش واضح عليه.. آخره يو..نس.. أو يو..سف.

صاح أحمد وهو يتقدّم نحو الموظف:

- أظنها بطاقتي..

أراه الموظف إياه، فأكد أبو صالح أنها بطاقته بالفعل. وفوجئ بالموظف يقول:

- بطاقة مرتجعة.

تساءل أحمد:

- يعني إيش؟

- مرتجعة.. مش فاهم شو يعني مرتجعة؟ يعني لازم تروح على المركز وتغيّرها.. فهمت الآن؟

- والمؤن تبعتي؟

- إلحق حالك وروح غيّرها زي ما بقول لك قبل ما يخلص التوزيع لهذا الشهر. واضح الآن.. شو بدّك أشرح لك أكثر من هيك لحتى تفهم؟ أحكي إنكليزي بتفهم أكثر؟

تمالك أبو صالح أعصابه:

- لو سمحت هذي بطاقتي.. أنا ما بكذب.

- يا أخي ليش ما بتفهم؟ بتكذب والا ما بتكذب هذا مش شغلي.. هذي بطاقة غير صالحة.. مهريّة وملزقة والاسم غير واضح.. إيمتى بدكم تعرفوا كيف تحافظوا على هذي الوثيقة.. هذي أكلكم وشربكم ومدارس أولادكم والصحة..

- معلش يا أخ.. طوّل روحك. اصرفوا لي المؤن هذي المرّة، والمرة الجاي بوعدك..

قاطعه الموظف صائحاً به وقد نفد صبره تماماً:

- يا زلمة انت شو مشكلتك؟ خلص، حلّ عني واقلب وجهك ولا تضيّع وقتي ووقت الناس..

انفجر بركان الغضب في صدر أبو صالح.. القائد أبو صالح! ووجد نفسه يدّع الموظف إلى الحائط بقوة هائلة أمدّه بها غضبه المحبوس على الدنيا كلها التي رمته هذه الرمية، وأخذ يضغط عنقه وهو يدق رأسه بالجدار، بينما كان الموظف يحاول

التفلت منه دون جدوى. وهرع موظفو الوكالة يحاولون تخليص زميلهم من قبضة الرجل الذي بدا وكأنه فَقَدَ عقله، وهو يصيح:

- ولك يا نذل.. يا نذل.. أنا أبو صالح.. أبو صالح اليونس قائد فصيل حطين.. سيدك وسيد سيدك.. أنا اللي مرغت وجوه الإنكليز في التراب.. أنا أبو صالح اللي غنت النسوان باسمه.. إذا ما سمعت باسمي بتكون خاين.. وإذا سمعت فيه نذل وجبان.. بدّي أعدمك باسم الثورة يا نذل.. يا نذل.. يا نذل.

كان الموظف قد جحظت عيناه وانتفخ وجهه وبدا أخيراً أنه على وشك أن يغيب عن وعيه، حين اخترق عايد الجمع راكضاً، وأخذ يضرب على ذراع أبو صالح ويصيح:

- أبو صالح.. أبو صالح.. أنا أخوك عايد.. أخوك عايد يا خوي.. أبو صالح دخيلك، الزلمة رايح يموت.. أتذكر أولادك.. صالح وصلاح الدين وعيشة..

أخيراً ارتخت قبضة أبو صالح، وجذبه عايد إلى الخلف، بينما سقط الموظف على الأرض يحاول استرجاع أنفاسه ويتقلب على جسمه ويده على عنقه.

لم ينقضِ نهار ذلك اليوم حتى كان أبو صالح يقبع في زنزانة في سجن المدينة، مخلفاً أسرته في حال يرثى لها من الأسى والهمّ والغم. ولكنه في عتمة زنزانته، لم يكن يشعر بالأسف إلا على شيء واحد: أنه قد فاتته الشهادة التي لم تفت أخاه حسن. لماذا لم يفعل مثله فيطلبها في كل مكان من أرض الوطن حتى يلقاها أخيراً؟ ووجد في محنته الراهنة أكبر عزاء عن فَقْد أخيه، حتى شعر بأنه يغبطه حقاً على مصيره.

من أول صباح اليوم التالي، سافر عليّ ومسعود إلى مدينة نابلس، حيث يعمل المحامي سامي، زميل عليّ القديم في الدراسة، ليتولى القضية. ثم عاد الثلاثة معاً إلى طولكرم واجتمعوا مع أبو أكرم السويدي في بيته. واتفق رأي أبو أكرم مع رأي سامي بأن القضية خطيرة. ومهما تبلغ مهارة المحامي فلن يكون بوسعه أكثر من تخفيف الحكم في أفضل الحالات، استناداً إلى ظروف الاستفزاز والإهانات وإلى تاريخ أبو صالح الوطني. فالتهمة هي الشروع في القتل، وشهود المدّعي من زملائه حاضرون، والتقرير الطبي واضح في وصف الضرر الشديد. فما العمل إذن؟ هل ينتهي القائد أبو صالح بحكم قضائي ثقيل يُلزمه السجن أعواماً طويلة؟ لا سبيل إلى الخروج من هذه المحنة إلا أن يُسقِط المدّعي دعواه. وهو ما يقتضي زيارته ومراجعته ومحاولة إقناعه بالتي هي أحسن.

استقبلهم المدّعي عابساً، ولولا مركز أبو أكرم المعروف فلربما ردّهم عن بابه. وكان يلف على رقبته شاشاً طبياً، وما زال صوته مبحوحاً من أثر الضغط الذي كاد يودي به. وتولّى المحامي سامي مخاطبته. فذكر له أنه لا يخاطبه الآن بوصفه محامياً، وإنما بوصفه مواطناً مثله من أبناء البلد، ويتوقع منه أن يقدّم الاعتبارات الإنسانية والوطنية في الموضوع. فهو يخاطب ضميره الوطني الآن. فخصمه كان قائد فصيل في الثورة، ثم قاتل حتى النهاية في الجهاد المقدس وقت النكبة. وأصيب مرتين، وما تزال شظية في صدره تتكأ عليه. فمثل هذا ليس وجه سجون بعد كل الذي بذله في سبيل وطنه وشعبه.

لم يبدُ أن الكلام قد ترك أثراً واضحاً عند موظف الوكالة. وردّ قائلاً:

- الله يسلمك، وين الثورة؟ فلسطين ضاعت.. هذا اللي بقي إلنا. وعلى كل حال، تاريخه القديم ما بعطيه الحق يعتدي على أرواح الناس.. الماضي راح.. إحنا هسّه بالحاضر.. وأنا موظف مش مطوب مني أدرس تاريخ كل واحد من اللي بيجوني.. لما بوقف على شغلي كل اللي قدّامي لاجئين.. ما حدّش بفرق عن الثاني.

هنا لم يستطع مسعود أن يمسك لسانه فقال:

- يعني ما حدّش بفرق بالإهانة؟ متساويين، عالعين والراس.. بس خليهم يتساووا في الاحترام والكرامة.

أومأ إليه المحامي سامي أن يسكت. وتحسس الموظف رقبته، وقال:

- ما كانش مبيّن عليه إصابة وشظية في صدره وهو بضغط على خناقي.. تقول طن حديد. هاذ كيف لو كان صحيح؟

قال سامي:

- الغضب والكرامة يا أخي.. أرجو إنك تقدِّر الظروف.

تدخل أبو أكرم لأول مرة:

- على كل حال.. إحنا جايين على بيتك.. ولا تآخذني، إحنا بنقدّر الضرر اللي صابك.. وأنا مستعد أعوضك باللي بتطلبه..

رد الموظف بعناد:

- المسألة مش مسألة مصاري.

بدا أنهم يئسوا من إقناعه، فقاموا للخروج، وكان آخر ما قاله سامي أنهم يتركون الموضوع لضميره ويرجون أن يفكر في الأمر.

تباطأ مسعود عن الآخرين حتى سبقوه في الخروج، وارتدّ إلى الموظف وأرسل إليه نظرة قوية صارمة، وقال:

- اسمع مني هالكلمتين.. أخوي الإنكليز حطوا على راسه جايزة، وما قدروا يوصلوا له. عيب هسّع إنه اللي بدهم يكسروه يكونوا ولاد عرب من لحمه ودمه، شربوا من نفس الميّة وأكلوا من نفس الأرض.. إذا بتقبل تعمل اللي ما عمله الإنكليز انت حرّ.. بس فكّر في هالحالة.. شو بكون الفرق بينك وبين الخونة والعملا اللي كان ممكن يسلموه للإنكليز لو طلع بإيدهم.

تريّث لحظة، ثم تابع وهو يتلفت في المكان:

- على أي حال.. هالحين ما فيه حد ثالث يسمعني ويشهد عليّ. أخوي القائد أبو صالح، طول عمره عزنا وعمودنا وتاج راسنا. يعني إحنا من غيره ما بتطيب إلنا حياة. إذا انحكَم بسببك، وأنت مش مقدر فضله وقيمته، فيه غيرك بعدهم بعتبروه قائدهم.. وهياني بقول لك، إذا ما أثّر فيك كل الحكي اللي سمعته، والله ما تعرف منين يجيك الموت.. الناس ما ظل عندها شي تخاف عليه.

قبل أن يخرج مسعود من الباب، التفت إلى الموظف من جديد:

- بس أنا متأكد إنه ضميرك بعده حيّ.. وإنك راح تسمع الكلام وتعمل الصح.. منشان الجميع، و.. منشانك!

أطبق الباب وراءه، مخلفا الموظف متجمَّدا في مكانه.

استقبلته أسرته بالأحضان، وقد فُرج عنها بعض ما لقيت في الأيام الماضية. ولكنه بقي صامتاً شارد الذهن وإن اصطنع ابتسامة باهتة وحافظ على انتصاب قامته. وحين عرضت عليه فتحية أن تأتيه ببعض الطعام أَبى، وطلب أن يخلوا له خيمته قليلاً حتى يصيب بعض النوم. وإذ صار وحده داخل الخيمة ارتخى جسمه الذي جاهد لإبقائه منتصباً أمام غيره. واتجه الآن إلى فراشه بجسم أضعفته المحنة.. أو المِحن.. وألقى جسمه عليه، وشرد بذهنه إلى الجبال التي شهدت فتوّته، والوديان التي ردّدت صدى طلقاته. وما لبث أن رفع جسمه عن الفراش، وزحف إلى الصندوق الذي يحتفظ فيه بصورته القديمة مع إخوته الثوار، وظل يتأمل فيها وقتاً. وتوقف نظره عند حمد العربيات الذي بقي معه في الجبال وقتاً عند انتهاء الثورة، حتى استشهد أمام عينيه، ودفنه بنفسه عند شجرة سامقة. والآن يتمنى أكثر من أي وقت مضى لو كان مكانه.

”كان من الواضح أن تلك الحادثة قد تركت في نفس أحمد أثراً لا ينمحي أبداً. الرجل القويّ الصلب الذي استعار كبرياءه من جبال فلسطين، وجبهته من صخورها، وذراعيه من سنديانها، لن يعود نفسه أبداً منذ ذلك اليوم. لقد نفذت الطعنة أخيراً في حناياه.. طعنة الخبز والطحين على باب وكالة غوث اللاجئين صنعت فيه ما لم تصنعه رصاصات الإنكليز واليهود. لعلّه الآن فقط بعد نحو ثلاث عشر سنة من نهاية ثورة الثلاثينيات، وأربع سنوات على النكبة، لعلّه الآن فقط قد أدرك أخيراً أن ثورته القديمة قد انتهت، ومعها عالمه القديم بكل شخوصه ومعالمه وشواهده، وأن عليه أن يواجه العالم الجديد الذي يعيش فيه.. يعيش فيه، نعم. ولكنه ليس له“.

من مذكرات علي الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريق إلى الكويت

(عندما توقف الزمن في الصحراء الغادرة)

1

.. ولكن المحن والابتلاءات لا تنتهي.. وما كان يستبشر به الفلاح أيام البلاد ويراه وعداً بموسم خير وصيًّبا طيباً يستقبل أرضهم وأوديتهم، صار الآن وعيداً بعذاب شديد. فالريح الشديدة والأمطار الغزيرة أعداء الخيمة. وفي تلك الليلة العاصفة التي لم يتوقف فيها المطر، لم تصمد خيام الأسرة لعصف الريح والسيول المتدفقة، ولم يصمد معها حسن.. حسن طفل مسعود الرضيع الذي سكت صوته إلى الأبد بعد بضعة أيام من الكارثة. ولم ينفع معه دواء طبيب الوكالة، ولا الوصفات الشعبية.

«حسن» آخر تفقده العائلة، ولما يتفتح وعيه على الدنيا. ولم ترقأ عين أمه لطيفة أياماً من البكاء. وعلى الرغم من ضعف المودّة في قلب مسعود نحوها، فقد قرّبته المصيبة منها، ولو إلى حين، واجتهد في مواساتها والتخفيف عنها على قدر حاجته إليهما.

ولكن اللاجئ الذي كانه مسعود، لا يملك ترف الاستسلام طويلاً لأحزانه. فما إن انقضى أسبوعان على المصيبة حتى جاء بألواح الصفيح وبدأ في رفع بيوت ثلاثة بدلاً من الخيم. فلِمَ الانتظار حتى تبدأ وكالة الغوث في بناء بيوت الإسمنت الموعودة؟ وكالة الغوث ليست على عجلة من أمرها لتسابق الريح والمطر والعذاب الذي يأتي معهما إلى المخيم.

الصفيح لن يصدّ الموت المتربّص، ولكنه أفضل من الخيمة التي استخدم أعمدتها وأوتادها لتدعيم جدران الصفيح. وكان آخرونَ من أهل المخيم قد بدأوا في بناء بيوت مثلها. ولكن.. بيوت الصفيح التي ستحلّ محل الخيام لوقتٍ ما، ثم بيوت الإسمنت التي ستحل محل بيوت الصفيح بعد ذلك، كل هذه لن تغيّر يوماً من صفة المخيم.. سوف يبقى اسمه المخيم حتى بعد غيام الخيام! لكأن ذلك تأكيد على أنه مهما يطل الزمن وتتزاحم البيوت بالأجيال الجديدة حتى يفيض المخيم بالبشر، وتقوم الدكاكين والأسواق، يبقى المخيم مقاماً طارئاً مؤقتاً حتى العودة إلى الأصول الباقية ما بقيت أرض فلسطين..

وقف مسعود يتأمّل التينة التي زرعها أول اللجوء وقد كبرت الآن وأورقت وبدأت تطرح ثمارها وتمنح ظلّها.. واقترب منه عليّ.. وتساءل بعد هنية كيف صمدت التينة لعصف الريح ولم تصمد أعمدة الخيام. فعلّق مسعود:

- عمود الخيمة خشب ميت. أما التينة فثبتتها جذورها الضاربة في الأرض.

اكتسى وجه عليّ بملامح التأمّل والتفكير. ثم التفت مسعود إليه وقال بنبرة عميقة:

- صار الوقت.

أرسل إليه عليّ نظرة متفحصة مستطلعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظر أحمد إلى رزمة الدنانير التي مدّ بها عليّ يده، وقال مستنكراً:

- مش ممكن.. هذول بتوفروا لتعليمك.. فرغنا من هالقصة زمان.

أجاب عليّ:

- المسألة مسألة أولويات..

- وتعليمك هو الأولوية.

- وثانياً، لا هذي المصاري ولا أضعافها بنفعوا لتعليمي في جامعات برّه.

- ولا ينفعوا لفتح دكانة إلي زي ما بدّك.

هنا سمع صوت مسعود مقترباً:

- بنفعوا مع هذول.

وهز رزمة دنانير أخرى بيده. ووضعها في حجر أخيه، أخذت الدهشة أبو صالح ونقّل بصره حائراً بين مسعود والنقود. وسأل:

- مصاري عليّ من مرتباته.. فهمنا.. وهذي من وين؟

تبادل مسعود وعليّ نظرة غامضة وابتسامة، وتولّى عليّ الإجابة عن أخيه مسعود:

- باع كرت المؤن تبعه.

صاح أبو صالح:

- إيش؟

شرح مسعود:

- اسمع يا أبو صالح.. عارف كل اللي بدك تقوله.. هذا مصدر عيشك.. الله ينعل أبوها من عيشة اللي بدها تظلها تيجي من كرت المؤن.. كرت المؤن بضمن الواحد ما يموت من الجوع، بس ما بأمن مستقبل زي البشر.. إحنا بس اللي بنقدر نتقدّم بذراعاتنا.. والمصاري قيمتها في وقتها.. وهذي المصاري وقتها الآن.. راس مال.. استثمار يا خوي..

ثم استدرك ممازحاً:

- استثمار.. بحب هالكلمة!

ثم عاد إلى لهجته الأولى:

- وإذا الله وفّق وفتحت فيها مصلحة صغيرة.. دكان.. بتأمّن أكثر من كرت المؤن.. على الأقل بتأمن الكرامة.. وانت أوْلى الناس..

سأل أحمد:

- وانت؟

- أنا؟ لا تخاف على أخوك مسعود. أنا أخذت حاجتي من ثمن الكرت وخلص.. ناوي على بلاد برّة!

ثم استشهد بشطر البيت الذي يحفظه «وفاز باللذة الجسورا».

الكويت؟ تهريباً ومشياً على الأقدام عبر الحدود بين العراق وبينها، بلا تأشيرة؟ ودونها ودون البصرة صحراء غادرة وشمس حارقة؟ ولكن ما كان لأحد أن يثني مسعود عن خطته التي رتّبها مع عايد وسعيد. وقد سبقهم بعض الشباب إلى هذه المخاطرة إلى حيث عطايا النفط والعمران المتسارع وفرص العمل في المشاريع

المختلفة. والكويت على كل حال أقرب من البرازيل التي تمكن مصطفى البداري من السفر إليها بحثاً عن حظه وحظ أسرته التي خلّفها وراءه في المخيم.

وما كان الأمر ليمرّ بسلام دون أن تلطم لطيفة خديها، مرة على المخاطرة التي سيُقدِم عليها زوجها، ومرتين على بطاقة المؤمن التي باعها مسعود وبذل جلّ ثمنها لأخيه أبو صالح.

- يا خيبتك يا لطيفة ويا خراب بيتك، كرت المؤن يا مسعود؟ رزقنا يا مسعود؟

ردّ مسعود بسخرية ولا مبالاة:

- أخيراً بنت أبو عايد اللي كان رزقهم نص البلد بتلطم على كرت مؤن، وبتقول رزقتنا؟ والله تغيرت الدنيا.

- وين هيه البلد؟

- هه.. أخيراً دارت لك؟

- وأنا يا مسعود اللي أخذتك أيام عزّي وعز أبوي، بدك تخلّيني على فضلة إخوتك؟

- كلنا كيس واحد. طول عمرنا قاسمين اللقمة.. بعدين إذا الله وفّق في الكويت إن شا الله بغرقك بالعزّ أكثر من أيام أبوك.

- وإذا ما تيسّرت يا مسعود؟ وإذا بلعتك الصحرا.

ردّ ساخراً:

- هاه! إذا بلعتني الصحرا وإيش حاجتك للمصاري والعيشة من بعدي يا مرتي، يا تاج راسك أنا.

ثم تحوّل إلى الجدّ. وذكّرها أن النقود التي أعطاها لأخيه ليست جميلاً ولا مِنّة، وإنما هي بعض الدَّيْن الذي يستحقه لما بذل في شبابه من أجل الجميع. ثم ذكّرها بالمهر والذهب اللذين اشترطهما أبوها عليه، حتى ذهبت مدّخرات العائلة بعد أن تحسنت أوضاعهم، لتضيّع الذهب بعد ذلك يوم الخروج في الفزعة. ولولا ذاك فلربما كان وضعهم الآن مختلفاً. قالت:

- هذا طلعت أنا وأبوي اللي رميناكم عالمخيم! مش اليهود. قال «احرث وادرس لبطرس» الشقا شقا جوزي والهديّة لفتحية!

- لا والله، فتحية غاطسة في القشطة والعسل! طب ضبي لسانك وعيريني سكوتك.

لا قشطة ولا عسل. ولكن، ربما مرطبان من مربى السفرجل أو مربّى العنب، أو مخلل «المقدوس»، ومثل ذلك تعود بها بين الفينة والأخرى من زيارتها لأم ماهر. ولم تبدأ في قبول هداياها إلا بعد أن توثقت علاقة الصداقة بينهما، وتأكدت أنها ليست عطايا الإحسان ولكنها هدايا الصحبة والمودة. ولكي تزيد فتحية المعنى تأكيداً كانت بدورها تحمل لها بعض ما تصنعه مع حماتها مثل أقراص الزعتر التي صارت تتقن عجنها وخبزها، وربما جاءت معها بضمّة كبيرة من الزعتر الجبلي فتعملان معاً على قطف أوراقها، ثم تخبزها عندها وتعلّمها الطريقة الريفية الأصيلة التي اكتسبتها من حماتها أم أحمد. فإذا فرغتا منها، أخذت كل منهما حصتها من الأقراص. وفي الزيارة الأخيرة لحقت بها أم ماهر إلى الباب ومعها ثوب مدني مطويّ.. حاولت فتحية الاعتذار عن قبوله ولكن أم ماهر أصرّت عليها، فهو هدية،

والنبي قبِل الهدية، وليس بين الأخوات كلفة ولا حرج. وهذه المرّة اعترض أبو صالح على زوجته، فإذا كان الطعام مما يمكن أن تردّ لها مثله ليكونا سواء، فلن يكون بوسع فتحية أن تردّ لها مثل ذلك الثوب. ومن الواضح أنها من أثوابها المستعملة، وأنها على الأرجح قد لحظت رثاثة ثوب فتحية على الرغم من نظافته، وأدركت أن فتحية في حاجة إلى جديد لا تستطيع توفيره. والحق أن أبو صالح كانِ متفهماً لحاجة زوجته إلى زيارة امرأة مدنية مثلها ومن بلدياتها، وهي التي حال الزمان بينها وبين حيفا ومن فيها. فلا تجد حولها في المخيم من تشاركها ذكريات الحياة في المدينة، أو تتحدث بلهجتها. وقد بذلت ما عليها. ولم تقاوم الحاجة إلى الانخراط في حياة أهل المخيم واكتساب عاداتهم، وربما تقمّصت بعض الكلام من لهجاتهم الريفية أحياناً. وهو ما كان يثير الضحك في معظم الأحيان.

ومع ذلك، كان يخالط أبو صالح شعور بعدم الارتياح أحياناً دون أن يفصح عنه. فالزيارة من طرف واحد دائماً. وهو يخشى أن تكون صفة الهدايا قناعاً لطيفاً للعطايا والصدقات. ويخشى أكثر من ذلك أن تُقْدِم زوجته على مساعدة أم ماهر في أعمالها المنزلية فيلتبس ذلك بالخدمة. والحقيقة أن فتحية كانت تفعل ذلك وهي تراه من باب التعاون الذي يكون بين الجيران والصاحبات. ومثل ذلك كثير في المخيم. فلِمَ يكون محرَّما مع أم ماهر؟ ولكن، إذا كان كذلك فلماذا تكتمه فتحية عن زوجها؟ لعل الفرق أن جارات المخيم كنّ سواء في الحال والمقام، بخلاف علاقة أم ماهر وفتحية التي يجمع بينهما أنهما من أصول حيفاوية واحدة، ويفرّق بينهما أن إحداهما الآن من «الوطنية» وتقيم في بيت حجري محترم في المدينة، والأخرى من أهل المخيم، على الرغم من أن المسافة بين منزليهما تعدّ بالأمتار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

بدا ساهماً شارداً غارقاً في التفكير، ينظر عبر نافذة الحافلة إلى معالم الطبيعة في الطريق إلى عمّان، بينما كان رفيقاه في الرحلة: عايد وسعيد، يتبادلان الحديث بصوت خفيض.

هذه أول مرة يسافر فيها إلى بلد آخر، ولا يدري ما الذي ينتظره في قابل الأيام. ولكن تفكيره يتجه وراءه الآن، لا أمامه. وصوت أمه وهي تودّعه يتردد في ذهنه:

«روح يمّه، الله يرضى عليك ويفتحها بوجهك وين ما رحت ووين ما جيت. ويبعد عنك أشرار الناس وأولاد الحرام».

واسترجع أغنية شائعة في ذلك الزمان:

«ريت المركب اللي أخذه وما ردّه

يبلى بالكسر ونار عا قدُّه

ريت المصاري تقلب حديده

اللي سفّر شبابنا لبلاد بعيدة».

أخرجه صوت عايد من شروده:

- وين رحت يا مسعود؟

اكتفى بابتسامة باهتة، وتولّى سعيد الردّ:

- يعني وين؟ بالمصاري اللي بتستنانا في الكويت.

قال عايد:

- بعدنا في أول الطريق.. بعدنا ما قطعنا النهر لشرق الأردن يا زلمة..

ردّ سعيد:

- تفاءلوا بالخير تجدوه.. خليكم زيّ عمّي أبو فرحان.. بقت هذه العبارة دائماً على لسانه. لما نوى مرّة ينزل لبير السبع يشتري جمل، وأنا بقيت ولد جاهل، ستي الله يرحمها فاقت معه من الصبح تقول له: يا بني برضاي عليك لا تنزلش أنا قلبي مقموط من هالنزلة. كثرت قصص القشاطين اللي بربطوا للناس في الأرض الخلا وبقتلوا الزلمة منشان باره مش جمل. وأنا الليلة شفت منام عاطل. قام قال لها: يمّه، تفاءلوا بالخير تجدوه. وتوكّل ومشي وهيّه بتعيّط وراه.

توقف عن القصّ عند هذه النقطة. وانتظر صاحباه أن يكمل. فلما تأخر، سأل عايد:

- طيب. وبعدين؟ كمّل. جاب الجمل ونفد من قطّاع الطرق؟

تظاهر سعيد بالتنبّه، وأجاب:

- طبعاً نفد من قطّاع الطرق.. تفاءلوا بالخير تجدوه.

ابتسم عايد ومسعود وهزا رأسيهما.. نهاية سعيدة.. وتشاؤم جدته لم يكن في مكانه.. ومنامها أضغاث أحلام أو نفث شياطين.. وإن بدا لهما أن القصة أقصر مما توقعا وليس فيها من الوقائع ما يغري بقصّها. لولا أن سعيد استدرك بأسلوب عرضي بعد لحظات من التريث، دون أن ينظر إلى صاحبيه:

- بس ما بقى حاسب حساب سيارات الجيش البريطاني في الليل.

تنبهت ملامح عايد ومسعود من جديد، وحدقا في سعيد ينتظران المزيد، وكان سعيد معلماً في خلق الإثارة والتشويق. فلما تأخر قصداً في الإيضاح، سأل عايد متعجلاً إياه:

- إيش؟ وقّفوه؟

- لع، هو اللي وقفهم.

سأل عايد من جديد متعجباً:

- هوّ اللي إيش؟

- راكب الجمل وماشي عالطريق. فجأة طلعت عليه سيارة للجيش، اصطدمت باجرين الجمل، وقع الجمل على السيارة.. ووقع عمي على الجمل وانكسرت رقبته.

هتف عايد:

- مات؟

- بس مش قبل ما انقتل الاثنين الإنكليز اللي بقوا في السيارة.

مرّت لحظة خاطفة من الانشداه على مسعود وعايد، قبل أن ينفجرا بالضحك. وعلّق عايد من خلال ضحكاته:

- هذي هي القصة اللي بدّك ترفع فيها معنوياتنا؟

قال سعيد:

- المهم إنه طلع كلامه صحيح، وما تعرّض لقطّاع الطرق.

- بس مات على كل حال!

وانطلقوا في الضحك من جديد. وتابع سعيد:

- لما جابوه لستّي ميت، قعدت تلطم وتنوح وتقول: مش قلت لكم؟ مش قلت لكم؟ وأنا من زُغُر عقلي بقول لها: يا ستي انت مش فاهمة، القشاطين ما قتلوه. والناس اللي حواليها بقولوا لها: اخزي الشيطان يا حجّة. لو شفتِ شو صار بالاثنين الإنكليز كان هوّنوا عليك. تعجنوا تعجين.. على الأقل ابنك أجا شقفة واحدة.. تقولي بس نايم.. ويا هنيّاله على هالموتة.. ما مات حتى أخذ معه اثنين إنكليز.

لم يتوقف الضحك، بينما استأنف سعيد:

- ولزودة البلا، بعد يومين أجو الإنكليز يحققوا في الموضوع. قال بدهم يتوكدوا إذا كنت العملية مقصودة. تصوّروا؟

صمت لحظة ثم قال:

- مين عارف؟ مش ممكن عمي بالفعل عملها بالقصد؟ يعني، عليّ وعلى أعدائي يا رب.. هيك بطلع شهيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تولّى عايد ترتيب وسيلة السفر إلى العراق من عمّان، فلم يجد وسيلة أرخص من الركوب في شاحنة صغيرة تحمل بضائع إلى بغداد في أكياس وصناديق، وافق

سائقها على حملهم بين البضائع المشحونة أو فوقها، في مقابل عشرين قرشا عن كل واحد.

نظر سعيد إلى الشاحنة القديمة المليئة بآثار الصدمات، وتوقف بنظره عند العبارة المخطوطة عليها: «عين الحسود فيها عود». وعلّق ساخراً:

- عليش خايف عليها صاحبها من العين!

ثم التفت إلى عايد:

- هذا اللي طلع بإيدك يا خوي!

ردّ عايد:

- شحّاد ومتشرط! عشرين قرش مقدور عليها.

وعلّق مسعود:

- لما بيجي الوقت وبتحفى اجريك من المشي بالصحرا، بتصير تتحسّر على هذا التْرَك اللي مش عاجبك يا مردخان باشا!

قال سعيد:

- طيب.. يوم ما يصير عندي سيارة كاديلاك بتضوي زي العروس، عيب عليّ إذا بطرح عليكم السلام.

ردّ مسعود:

- إذا بصير عندك سيارة كاديلاك، أنا برجع أسافر على الجمال.

حبكت الطرفة عند سعيد:

- بس دخيلك ما تطلع بجملك على سيارتي، خوف ما يصير فينا زي ما صار بعمي أبو فرحان والإنكليز.

ضحك الجميع.

مضت نصف الساعة الأولى على الرحلة بدون كلام. حتى صعد صوت سعيد أخيراً بالغناء. وحضرت «جفرة» الفلسطينية بثوبها الريفي المطرّز، وغواياتها الساحرة، وتجلياتها المتقلّبة تقلّب المشاعر والمواقف والمواقع والفصول والقلوب العاشقة والمحرومة:

جفرة ويا هالرّبع

تمشي لسهل «برقة»

يا ربّ يا معتلي

ربّ السما الزرقا

تردّ الولف ليّه

ساعة زمنيّة

إذ صار يخرج من مقطع إلى آخر، دخل مسعود وعايد شيئاً فشيئاً في المزاج، وصارا يرددان من ورائه.

جفرة ويا هالربع بتصيح يا ربّي

رميتني بالهوى، ترمي معي حبّي
وطحين ما عندنا، وبرغل ولا حبة
عندنا شويّة ذرة نعمل لبنيّة.
جفرا ويا هالرّبع وعحيطان أبوها
وتمشي الفيّة الفيّة من خوف يشوفوها
ويا حسيرتي مدلّلة وللنذل أعطوها
ومن بعد مشي الغوى تمشي بذليّة
لأطلع عراس الجبل وأشرف على الوادي
وأقول يا مرحبا، نَسّم هوا بلادي
يا رب يطوف النهر تا يحمل الوادي
لأعمل زنودي جسر واقَطْعِك لِيّة
مرّيت عدارِهُمْ بعد العشا بنتفِه
ولقيتهم نايمين وسراجهم مطفي
مدّيت إيدي عالحبق حتى أقطف قطفة
وتفيق أمٍّ لها وتصرخ: حراميّة
هنا صاح مسعود:
- خرجك، رِزِل.
وتابع سعيد دون توقف:
جفرا ويا هالربع بين البساتينِ
ومجروح جرح الهوى، يا مين يداويني
وهي يا حاملة الجرّة مَيْلي واسقيني
بلكن يطيب الجرح عَ يد البنيّة.
جفرة ويا هالربع نلقّط بقلتنا
غير الضحك واللعب يا خوي ما أعطتنا
ويومِن خلّصوا الزرعْ راحت وخلّتنا
ونقول بأمرها بعطيها عينيّه.
ومضى على ذلك من جعبة لا تفرغ.. حتى أنهاها بمقطع ارتجله بنفسه:
وجفرة ويا هالربع من هون للبصرة
ومحبتك فلسطين بتحرق زي الجمرة
لَقوم من القبر وارجع لك يا خضرة
وانقُش خدودك شجر ونجوم وميّة.

تلاشت «جفرة» رويدا رويدا في الفضاء الموحش، وغيّبتها الريح التي تسفو الرمل والتراب. لا شيء في الطريق الطويل الممتد عبر أرض لا زرع فيها يذكّر بمرابع جفرة وزريف الطويل، ولا تغني الأرض الميجنا والعتابا. فقط نواحيّات كربلائية تطغى حتى على أغاني الحبِ الغزل التي تتناهى إلى أسماعهم من المذياع من حجرة السائق.. بل تطغى أيضاً على نغمة ترتيل القرآن.

بعد وقت من الصمت والشرود، عاد سعيد إلى الكلام يسلي نفسه وصاحبيه:

- منعول أبو هيك تْرَكّ.. لو سافرنا عالجِمال كان أسرع منه.

ردّ مسعود:

- عليش مستعجلين يا خوي؟

- اللي داير على رزقه بستعجل.

- مفكّر الكويت ورا السنسلة، قفزة والا انت فيها بتقطف المصاري عن أمها؟ قدامنا طريق طويل، وصحرا.

- اللّي بدّه يوكل «الصبر» بتحمّل شوكه.. وأنا بدّي أخْلص من الشوك منشان أوكل الصبر.. نفسي بالصبر يا جماعة.

أرسل مسعود نظره في الفراغ والأفق البعيد، وقال:

- يا جماعة.. والله بلادنا حلوة.

- هسّع بس عرفت إنه بلادك حلوة.. الله يقطع اللي قطع نصيبنا منها.

وتابع مسعود:

- لما بقى الواحد يتسطح بالليل على ظهر الدار والا عالبيادر.. وتهفهف عليه النسمة الباردة.. ما بعرف شو الروايح الحلوة التي بتهبّ عليه. وآخ على ريحة البابونج.

قال عايد:

- والّا ريحة الشومر.

أضاف سعيد:

- والّا ريحة الزعتر.

أردف مسعود:

- والّا ريحة النعنع.. والا ريحة البحر اللي بتحمل معها ريحة زهر البرتقال والليمون.

قال سعيد:

- والّا ريحة الصبايا المعطّرة.

تدخّل عايد:

- هذي لقليل الحيا اللي واقف يشمشم تحت الطاقات والعليّات.

ردّ سعيد:

- بدهاش شمشمة تحت الطاقات والـ.. عمرك ما رحت على حيفا وقعدت على قهوة من قهاوي الهادار والكرمل؟ بتمرق الصبيّة بتقول محمّمة بالمسك والعنبر.

قال عايد متهكما:

- وانت رايح جاي على حيفا لهالشغلة!

تابع سعيد:

- والا النصراويات يا خوي.. آخ عالنصراويات ودلعهن.

ثم غنى لجفرة النصراوية النصرانية:

جفرة ويا هالربع تلقّط بأرض الدِّير

والسرّ اللي بينينا، شو وصّله لغيري.

علّق عايد متهكماً:

- هذي وصلت للنصراويات واللي رايحات الدير كمان؟ ومين منهن بدها تطلع على خلقتك يا مقطّع؟

- ليش.. لأني فلاح؟ طيب خذ هالقصة.. واحد من بلدنا حبّ وحدة نصرانية، وهيه كمان تعلّقت فيه. بقي يروح يبيع حبوب وخُضْرة هناك. وبقى شاب حليوه.. هندامه نظيف، ويعوج عقاله.. ولسانه زلق ودمّه خفيف وقاري أربع صفوف. ووراه رزق. قام بده يخطبها. لا أهله وافقوا ولا أهلها.. علمكم مسلم ونصرانية. قام اتفق معها يوخذها خطيفة. بس قبلها راح الحزين باع رزق أبوه اللي ورثه عنه، واشترى دار بيافا منشان يقعدوا فيها لما يهربوا. هوه اشترى البيت من هون والحرب ولّعت وصارت الهجرة.. لا قدر يوصلها ولا قدرت توصل له. راحت عليه أرضه وداره وحبيبته. وصفّى داير في بلاد الدنيا يمجّن ويعتّب عليها وعالوطن الضايع.

حين كان يقصّ هذه الحكاية، اختفت من وجهه وعينيه تعابير الهزل المعتاد وخالط صوته رنّة حزن، حملها صاحباه على ذكر الوطن وحكاياته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

ها هي أخيراً بغداد الرشيد بدون الرشيد وقصوره وقبابه المذهّبة وبسط الريح الطائرة في سماء الخرافات البديعة، بل حتى بدون سحابة من سحائب الرشيد التي يعود إليه خراجها أنّى أمطرت. ولم تذكرهم اللهجة إلّا بتلك العبارة المشؤومة التي ارتبطت بالنكبة وبقيت تقبع في ركن مظلم من الذاكرة الفلسطينية: «ماكو أوامر»، أي لا أوامر بالقتال من القيادات العليا، وهي التي ترددت على ألسنة بعض الضباط والجنود العراقيين في حرب فلسطين.. حرب النكبة، على أسفٍ منهم وضيق.

من بغداد إلى البصرة، رحلة أخرى طويلة مرهقة.

صاروا الآن أقرب إلى الكويت.. ولكن ما زال بينهم وبينها الاختبار الأعظم والعقبة الكبرى: الصحراء التي يمكن أن تخدع الراحل برحابتها ونعومتها، ثم لا تمنحه منها إلا موضع هلاكه!

أمام مقهى بسيط من الصفيح على أطراف البصرة، جلس الرفاق الثلاثة يحتسون الشاي. وقد ميّز صاحب المقهى لهجتهم:

- يا هلا ويا مرحبا بريحة فلسطين.

عرفوا منه أنه كان في الجيش العراقي الذي حارب في فلسطين عام النكبة وأنه يعرف طولكرم وجنين. ثم تنهّد وقال:

- احتلينا جنين على عاتقنا وحررناها عكس الأوامر.. بعدين جماعة «ماكو أوامر» صاروا يفتخرون قدّام العالم إنهم حرروها.. واحنا زي ما تشوفون نبيع شاي للي حالهم مثل حالنا.

وكشف عن صدره وبطنه يريهم آثار إصاباته في تلك الحرب. وحين همّوا بدفع ثمن الشاي، أبى عليهم بأسلوب قاطع. واستنتج أنهم يريدون العبور إلى الكويت. فلما سألوه عن دليل موثوق يرشدهم عبر الصحراء إلى الحدود، أخبرهم أنه يعرف ثلاثة يعملون في هذا، ولكنه لا يستطيع أن يضمن أحداً، فالدنيا كما يعلمون فيها الأمين وفيها الخائن.

اشترط عليهم الدليل الذي اهتدوا إليه ثلاثة دنانير عن كل واحد منهم، على أن يكون الدفع مقدماً.

حاول سعيد أن يستدر عطفه، فذكَّره بأنهم لاجئون فلسطينيون على باب الله يطلبون لقمة العيش. ولكن الرجل أصرّ على شرطه.

ولما تنحّى الثلاثة يتداولون في الأمر، بدأ عايد بتوبيخ سعيد قائلاً:

- ضروري تتمسكن وتشحد على فلسطين واللاجئين!

رد سعيد:

- ما الزعما بعملوها.. دايرين يشحدوا علينا. ويا ريت نفعت مع حريق الحرسة.

كان مجموع ما معهم من المال ستة عشر ديناراً، فإذا دفعوا منها تسعة للدليل لم يبقَ معهم إلا سبعة دنانير. ولكن ما الحيلة؟ لا يستطيعون المكوث في البصرة حتى يجدوا غيره.. ولا يدرون متى يجدوه، ولا إذا كان يرضى بأقل من ذلك.

سار بهم الدليل منذ أول الفجر. وكان شديد السرعة في مشيه ولا يلتفت وراءه ليرى الأصحاب الثلاثة يلاحقونه بما يقارب الهرولة. وكان المقدّر أن تستغرق الرحلة نحو نهارين بينهما مبيت الليل. وحين انتصف نهار اليوم الأول بدأ الإعياء يظهر على الثلاثة مع لفح الهجير، وقد بدا أن سعيد أكثرهم إعياءً. ولما طلب التريث قليلاً، لم يأبه الدليل له وتابع السير دون كلام. وعند العصر، أراح معهم نصف ساعة فقط في وسط الخلاء الموحش حتى يتناولوا بعض الخبز والتمر والماء من قِرَب الماء الجلدّية معهم. ولم يتوقف بهم بعد ذلك إلا بعد أن أوغل الليل. فانطرحوا على الأرض وقد بلغ بهم الإرهاق كل مبلغ، وغلبتهم الحاجة إلى النوم.

كان عايد أول من فتح عينيه على لفح شمس الصباح. وما هي حتى صاح بصاحبيه يوقظهم بصوت يوحي بنذير ما. أين ذهب الدليل؟

أجاب عايد:

- لما تلاقيه اسأله؟

ذهبوا بأبصارهم في كل اتجاه، فلم يجدوه. ولم يكن ثمة حاجز طبيعي يمكن أن يختفي وراءه لقضاء حاجته. تريثوا وقتاً متعلّقين بأمل كاذب، وكان عايد أسبقهم إلى إعلان الحقيقة المخيفة. قد خانهم الرجل، وتسلل في جوف الليل عائداً وقد استغل نومهم الثقيل بعد يوم من المشي والإعياء الشديد. ولعلّه قد تعمّد إطالة السير وسرعته كي يغلب عليهم النوم الثقيل فلا يحسّون تسلّله وابتعاده. خائن! فجأة تفطّن عايد لأمر ما فأسرع إلى سعيد يتحسس كيس النقود المربوط إلى خصره.. كان فارغاً كما حدثته أسوأ مخاوفه. كيف لم يشعر به سعيد وهو يفعل ذلك. وصاح عايد بسعيد غاضباً:

- نايم متلقّح زي اللوح، وما حسيت فيه لما مدّ إيده؟

ردّ سعيد وقد ذهب عنه كل أثر لروحه المرحة:

- من خيبتي؟ انت يا فالح شو بقيت تعمل؟

- مش أنا اللي مدّ إيده على كيسه.

- أهم من مَدّ اليد إنه قام ومشي وتحرك، وما حدّ منا حسّ فيه.. والا يعني سرق المصاري وهوّه طاير في الهوا..

أدبر عايد عنه وهو يقول:

- الحق عليّ أنا اللي طلعت مع جاهل مثلك. صحيح اللي قالوه: الرفيق قبل الطريق. اللي مش قد الشغلة ما يدبّ عليها.

تدخّل مسعود لأول مرة بصوت هادئ، مذكِراً بأنهم جميعاً كانوا مرهقين، ولا يتحمل سعيد وحده مسؤولية ما حدث، وأن الخلاف وتبادل الاتهام لن ينفعهم في الورطة التي صاروا فيها، وليس لهم منذ الآن بعد الله إلا الصبر والتكاتف، وأن يحمل بعضهم بعضاً. فإما أن يكتب الله لهم النجاة معاً، أو يقضي الله فيهم أمراً كان مفعولا.

أطرق عايد، ولم يتأخر في الاعتذار لسعيد. «الله يلعن الشيطان». نعم، هم الآن معاً والصحراء، والله ربهم وربّها. تساءل سعيد عن إمكانية الرجوع، ولكن أين الرجوع وهم لا يعرفون ما وراءهم أكثر مما يعرفون ما أمامهم، وما الأمام وما الخلف في

صحراء بلقع يستوي قريبها وبعيدها. ودعاهم مسعود إلى الإفادة من الوقت ومتابعة المشي قبل أن تشتد الشمس وتثقل الحركة. وحين رأى عايد سعيد يفتح قربته ليشرب، خطفها منه وقال محذراً بأن حياة الجميع فيما تحمل قِرَبهم من الماء. فلا يغوي أحدهم العطش بالكرع، إلا ما يرطب اللسان والشفاه في حسوة صغيرة.

نهار آخر، دون أن تتكشف لهم الصحراء عن علامة أو بيت شَعر أو سيارة عابرة. وقد انتفخت الآن شفاههم وتشققت ولوّحتهم الشمس بلفحها القاسي وتغلب عليهم الإنهاك الشديد. وها هم الآن يفترشون الأرض وقد دخل الليل. وكل منهم يدافع شعوره باليأس، ويقيس حاله بمخاطر أخرى مرّ بها في حياته، ثم نجا بلطف الله بعد أن كان بينه وبين الهلاك باع أو ذراع!

لا شيء غير الصمت والسكون في وحشة الليل الصحراويّ. وفجأة سُمِع صوت سعيد يضحك ضحكة خافتة. أما زال بوسعه أن يضحك وهم في ذلك التيه المنذر بهلاك قريب؟

التفت نحوه صاحباه ببطء وعيون شبه مغلقة. وهذه المرة لم يعنيا نفسيهما بالسؤال عن معنى ضحكته الغريبة. ففي مثل ذلك الحال يبدأ العقل في التخليط ويتشوش الوعي وتنفصل الأسباب عن النتائج، ويتداخل الماضي بالحاضر. ومن جانبه لم يكن سعيد ليملك القوة على أن يفصح عن خاطر غريب ألمّ به. قبل نحو خمس وثلاثين سنة، ولم يكن قد وُلد بعد، جلس وزير بريطاني في مكتبه في لندن، وأمامه قلم وورقة. سحب نَفَساً من غليونه، وكتب بضعة أسطر: «عزيزي اللورد روتشيلد..». بعد خمسة وثلاثين عاماً، ها هو شاب فلسطيني اسمه سعيد يوسف عبدالرحمن، يجد نفسه منطرحاً مع اثنين من أصحابه في هذا الموضع من الصحراء.. غريب في أرض غريبة.. لا أهل ولا ماء ولا حجر ولا شجر.. يرى ظل الموت يقترب منه دون أن يملك له دفعاً.. وكل ذلك نتيجة لتلك الأسطر التي خطّها ذلك اللعين المسمّى بلفور.. ابن الحرام الذي كان في تلك اللحظة يقرر مصير بلد.. ومعه مصير ذلك الشاب التائه قبل مولده.

غريب أمر الدنيا.. بلفور قرّر نهايته قبل أن تبدأ حياته، وهذه الصحراء تنفذ الآن! ولكن بلفور عدو بعيد.. وهذه الصحراء أم العرب ومنبتهم القديم. ضرب على الرمل.. وخطر له خاطر آخر كاد يضحك له.. أو يبكي..

وهنا فقط سمع صوته متحرجاً ضعيفاً:

- يا رب يا عالم.. يمكن تحتي بير بترول وأنا مش داري.. بس ما إلي من فوقه إلّا قبري.

تحامل مسعود على نفسه وقال:

- اترك فال السوء يا رجل.. وين سعيد اللي كان يضحّك الناس في عزّ المصايب.. خليك متفائل.

استعاد سعيد للحظة مزاج التهكم:

- زي عمي أبو فرحان.. تفاءلوا بالخير تجدوه.

عاد الصمت. قبل أن يأتي صوت سعيد من جديد متغنياً بصوت واهن، على نمط الغناء الشعبي الحزين المسمّى بـ «المُعَنّى».

قال المَثَل عمر الأسى ما بنتسى
وعشطّ بر الهمّ مركبنا رسى
هالطير اللي بالأمس جنحه انكسر
بيحاول الفرار إنْ ريشه كسى
الله معك يا صاحبي الله معك
غنِّ القوافي في المُعَنّى تا أسمعك
يا مهاجر الأوطان ارجع دوم عود
وفوق الخليقة يا وطن بدّي أرفعك
أرض «المُعنّى» قد وصلنا تخومها
ومن جرّ نفسه لَلْبَلا لا يلومها
وأهل «المُعَنّى» مْنِ القوافي إلهم وطن
وأوطان غيرك ما تضوّي نجومها.

نهار آخر من خبط العشواء والترنح.. ولا ثَمّ إلا الصحراء والجوع والعطش والوجوه التي أحرقتها الشمس، والأقدام التي أضناها المشي وذهب بقوتها، ونذر الموت الذي يقترب بسرعة. هذه الليلة، ونهار الغد.. ربما بعضه فقط. ثم ينقضي الأمل، ويحصد بلفور ثلاثة أرواح أخرى، وهو في قبره!

ولئن كان سعيد أشدهم ضعفاً وأقلّهم أملاً وأقربهم إلى انطفاء الجسد، فإنه لم يتخلّ عن رغبته في الغناء بما يتبقى له من رمق.. ولكنه كان أقرب إلى نعي النفس.. وهذه المرّة اختار «الميجنا»، بصوت متحشرج يغالب غرغرة الموت ولا يكاد يبين:

يا ميجنا ويا ميجنا ويا ميجنا
يا حسرتي تاه الدلول وتهت أنا
قال زرعت الزرع وأجا غيري حصد
يا حسرتي غير التعب ما نابنا

بعد وقت من الصمت والسكون إلا من حشرجات سعيد. سُمِع صوت عايد يصيح:

- هناك..

تحامل سعيد على نفسه واستجمع ذبالة قوته ونظر مع مسعود إلى حيث يشير عايد. كان ثمة ضوء بعيد أمدّهم بأمل جديد وأحيا بعض قوتهم.

النجاة أخيراً..

ولكن، بعد ساعات من المشي في اتجاه الضوء، لم يبدُ لهم أنه يقترب منهم. وانهار سعيد إلى الأرض. وعبثاً حاول مسعود وعايد إنهاضه. وقال بصوت متقطع لا يكاد يبين:

- ضو كذاب.. كل الدنيا كذابة.. انتو كملوا وخلوني مطرحي.. إذا وصلتوا لشي ترجعولي..

حاول عايد من جديد أن يبث فيه بعض العزيمة، مستعملاً خبرته القديمة في القتال:

- انسَ جسمك. بس حط عينيك صوب الضو وفكر فيه. فكر في الناس اللي عنده.. في الحياة اللي عنده.

لا جدوى، إذ لم يعد جسمه يطاوعه، وإن أراد.

لم يكن بوسعهما أن يتركاه في ذلك المكان. فتعاونا على جرّه، كلّ من أحد إبطيه. ولكن الضوء لم يقترب، وقدّر عايد أن ضوء الليل الصحراوي يمكن أن يكون قريباً أو بعيداً. وقد ذهب جرّ سعيد بآخر ما تبقى لهما من قوة. وناشدهما سعيد الله أن يتركوه حيث هو. وما كان في قدرتهما المضي أكثر على كل حال فقد صار حالهما قريباً من حال صاحبهما، فأنزلاه الأرض، وانطرحا قريباً منه. ولأول مرة قررا الاستسلام دون أن يفصحا عن ذلك. وقد علمتهما حوادث السنين الماضية أنه لا ثمة معجزات. ذهبت فلسطين ولم تحدث المعجزة المنتظَرة.

فجأة جاء صوت سعيد أكثر ضعفاً ووهناً ينادي مسعود أن يقترب منه، فزحف هذا إليه حتى صار عنده وبيد مرتجفة مدّ سعيد يده إلى عنقه وخلع طوقاً يتدلى منه مفتاح كان يخفيه على صدره تحت ثوبه. ومدّ له به:

- هذا مفتاح الدار اللي اشتريتها في يافا إلي ولدلال.. أيوه أنا.. حبيتها يا خوي.. اسمها دلال فرج نصر الله. من يوم التهجير وأنا حامله معي.. يا خوي يا مسعود.. إذا الله كتب لك العيشة وما كتب لي إياها.. وكتب لك تشوف الأرض محررة.. روح عالناصرة واسأل عنها.. أعطيها المفتاح.. وقل لها الدار دارها.. بتلاقي في جيبي ورقة بيع إلها موقّعة وشهدت عليها ناس. أمانة برقبتك يا خوي يا مسعود.. طلع الورقة من جيبتي يا خوي.

استجاب مسعود فقط احتراماً لرغبته الأخيرة، وهو لا يعتقد الآن أن حظه في النجاة أكبر من حظ صاحبه. فالضوء الذي لم يقترب، غاب الآن، وانطفأ مثله في جسمه وحِسّه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انشق جفناه المتورمان قليلاً عن غبش متماوج.. ولبضع لحظات كان بلا ذاكرة، لا يدرك حتى نفسه ومكانه وزمانه. وازدادت حيرته حين بدأ الغبش يتكشف عن ثلاثة وجوه غريبة تنظر إليه وهو ممدّد فيما بدا أنه بيت شعر. ثم جاءه صوت الرجل الكبير من بين الثلاثة وكأنه يتناهى إليه من وادٍ سحيق.

- الحمد لله على السلامة.. أخوك أبو علي..

أراد عايد أن يرفع رأسه وكتفيه، فقرفص الرجل إلى جانبه وردّه إلى الفراش.

- خلّيك الحين مرتاح. صاحبك بخير والحمد لله.

وأشار إلى مسعود الذي كان يرقد قريباً ولم يَصْحُ على نفسه بعد. ولكن، أين الصاحب الثالث؟ وأدرك البدوي الشهم سؤال الوجه والعينين.. ولكنه لم يجب. ولم ينطق عايد بالسؤال، وأغمض عينيه من جديد، وقد أدرك الجواب الصامت الحزين.

سيعرف هو ومسعود بعد وقت قصير أنهما في أرض الكويت.. وكذلك صاحبهما الثالث سعيد.. ولكنهما فوق التراب، وهو الآن تحته! وتضاعف حزنهما حين أدركا أنهم استسلموا للمصير في عتمة الليل حين صاروا على بُعد خمس مائة متر فقط من بيت الشعر.. دون أن يدروا.. لو أنهم فقط عرفوا ذلك فلربما كان سعيد معهم الآن.

ولكن أبو علي ذكرهما بما يذكران: قدّر الله وما شاء فعل، وكل شيء عنده بأجل مسمّى.. وكان ذلك أَجَل صاحبهما، وما كان ليستقدم أو يستأخر. فلله ما أخذ ولله ما أعطى. على أن أبو علي وولديه حين عثروا عليهم، واستنقذوا الصاحبين اللذين كانا غائبين عن الوعي وفي النَّفَس الأخير، قاموا بواجب الثالث الذي أدركه أجله، فدفنوه في موضعه بعد أن صلّوا عليه. ثم ناولهم أبو علي ساعة الفقيد التي فكّها عن يده قبل دفنه.

وقف عايد ومسعود مع منقذيهما أمام قبر سعيد. قرأوا الفاتحة. ثم نظر مسعود في ساعة سعيد، فوجدها متوقفة لا يتحرك مؤشراها. وبعد لحظات، دفن الساعة في كومة الرمل التي يرقد تحتها سعيد.. سعيد الذي كان يخفي حزنه الدفين تحت قناع السخرية السوداء! ربما استطاع في حياته أن يخادع الشقاء، ولكنه لم يستطع أن يخادع الموت. ضلّ طريقه في صحراء التيه، ولم يضل الموت طريقه إليه! ولسوف تغيِّب الرياح قبره المجهول قريباً.

ولكن حكايته الفاجعة ستضاف إلى حكايات المخيم وذاكرته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الصغار يرثون الذاكرة والحلم

(الماضي هو الآن)

1

ربيع عام ١٩٥٦

فلسطين الدفاع الجهاد.

فلسطين الدفاع الجهاد

اعتاد الناس على النغمة الخاصة التي كان ينادي بها على الصحف اليومية التي يضع رزمة كبيرة منها تحت إبطه، ويضع أخرى أمامه على الأرض، ويقف بها حيث تتزاحم الأقدام في وسط المدينة.. أمام قهوة الكرمول، أو صيدلية «السختيان»، أو عند مبنى البلدية، أو في الساحة التي يقف فيها بعض باعة «البليلة» والترمس، وتنفتح على طرق مختلفة، وينحدر منها الطريق المؤدي إلى مدرسة «خضوري» الزراعية ومدرسة الفاضلية الثانوية، ثم إلى حيّ المحطة الذي ينتهي طرفه بخط الحدود القاتلة، وكان يعبره قبل النكبة شارع يصل المدينة بأخواتها في قلب فلسطين وسواحلها. والآن، وقد تعطّل منذ سنين يراه الناظر من أمام الحدّ وقد أبلاه الزمن والإهمال، وتشقق إسفلته ونبتت من شقوقه بعض الأعشاب البرية التي تتحدى بقوة الحياة صلادة الجماد والصخور والحيطان والإسمنت وحجارة القبور!

كان يبيع الجرائد بعد انتهاء ساعات المدرسة، وفي العطلة الأسبوعية وعطل المدارس. والحقيقة أن رشدي الذي يبلغ الآن السادسة عشرة من عمره، كان قد قرر بوعي منذ وقت مبكر ألا يكون عالةً على أسرة أمّه التي لم يعرف له أسرةً غيرها. فلم يترك وسيلة يستطيعها لجني بعض القروش إلا استعملها. وكان ماهراً بيده. فكان في أول الأمر يقطع الأسلاك الشائكة التي بقيت في معسكر الجيش العراقي بعد انسحابه، فينزع عنها شوكها الحديدي، ثم يطرقها ويصنع منها نماذج متقنة من العربات الصغيرة في أشكال مختلفة، ويجعل لها عجلات من الأسلاك نفسها، ومقوداً مرتفعاً يُمَكِّن الصبيان من أن يسوقوا ويَدْرجوا بها على الشوارع والطرقات. وللخيال الواسع بعد ذلك أن يضخّمها ويكسوها حديداً وأن يضيف إليها محركاً يرسل صوته عبر أفواه الصبية الذين يدرجون بها. فكان يبيع الواحدة منها لبعض صبية المدينة بقرش لمن يملكه، أو بنصف قرش لمن لا يملك غيره ويرضى بالمبادلة بقلم رصاص أو دفتر. ثم صار يصنع دراجات خشبيّة: لوح من الخشب على عجلات صغيرة من المعدن وقد رُكِّبَ عليها مقود أيضاً، فيضع الصبي رِجْلاً على اللوح ويدفعه برجله الأخرى على الطريق، ويسابق به الريح ويطوف به بَلاداً لم يرها بعد!

فإن لم يكن هذا فطابات الشرائط المتقنة للعب الكرة بالأقدام الحافية في سوق الدواب القريب من المخيم، أو في أي فسحة متاحة. فللصغار عاداتهم في ابتداع ألعابهم والاستجابة لنداء الحياة وأعياد الطفولة، حتى في أقسى ظروف القلّة والفقر.

ولم يفت رشدي بعد ذلك أن يبيع البليلة والترمس فيطوف بهما من مكان إلى آخر. وكانت جدته تعينه في إعدادهما. والحقيقة أن جدته وخاليه أبو صالح وعليّ حاولا أن يَصْرفاه عن ذلك خشية أن يعيق دراسته وأداءه في المدرسة. ولكنه أصرّ عليه.

وقد أثبتت لهم نتائجه المدرسية الجيدة أنه قادر على الجمع بين الدراسة وما يستطيعه من العمل.

ثم زاد على ذلك صنعة أخرى، وهي صنع أكياس البقالة الورقية، فكان يجمع أكياس الإسمنت الفارغة من ورشات البناء، ثم ينزع طبقاتها ويحسن تنظيفها، ثم يقصّها بأقدار معينة، ويطوي أطرافها وقاعدتها بطريقة محكمة ويلصقها بمادة النشاء. ثم يبيعها للدكاكين الصغيرة، ولا ينسى أن يوفر منها حاجة دكان خاله أبو صالح المرفوعة من الصفيح على طرف المخيم.

بذلك كله لم يكفِ فقط حاجته من المصروف اليوميّ، ولكنه كان بين الفينة والأخرى يأتي لجدته بهديّة صغيرة: خرقة الرأس، أو حزام القماش الريفي ونحو ذلك، أو ربما بعض الحلوى للأسرة. وقد يضع قرشاً أو نصف قرش في يد أحد ابني خاله: صالح الذي يبلغ الآن أربعة عشر عاماً، وصلاح الذي يبلغ اثني عشر عاماً، وكان أنجب أبناء الأسرة وأحدّهم ذكاءً. فهو الأول على صفه منذ دخل المدرسة. فكان من الطبيعي أن تقارنه الأسرة بعليّ.. ولكن المقارنة تتوقف عند الذكاء، فهو على الضد من عليّ حين كان في مثل سنّه، من حيث «الشقاوة» وروح التمرّد المبكّر والحركة الدائبة المزعجة في الكثير من الأحيان، وكان يتعمد أن يغيظ أخته عائشة التي تبلغ الآن زهاء الثامنة والنصف، فيخبط حيث تساعد أمها وجدّتها في الشطف والمسح، فإذا صاحت به احتجاجاً، زاد في فعلته. ولكن ذنب الذكي المتفوق مغفور عند أهله، إذ تنعقد عليه الآمال في مستقبل أفضل. وإذا فاض الكيل وهَمّ أبوه بمعاقبته، التجأ إلى من لا يردّ أبو صالح شفاعته: أم أحمد، سنديانة العائلة العتيقة الشامخة، وهي لا تنفك تعزو «غلبته» وحركته الزائدة إلى حليب الماعز الذي نما عليه في سني عمره الأولى، فاكتسب منه نشاط الماعز وتقفّزه!

وإلى جانب تفوقه المدرسي في المواد العلمية والأدبية سواء، فقد ظهرت منه مبكراً بوادر أدبية واعدة تتجلى في مواضيع الإنشاء التي يكتبها ومحاولات شعرية أكبر من سنّه وإن لم يكن بعد يضبط الأوزان، ولكنه يأتي بها أحياناً بالسماع والأذن المطبوعة، إذ كان شديد الشغف بقراءة الشعر وإنشاده وحفظه دون جهد، إذ يكفيه أن يقرأ المحفوظات الشعرية في كتب المدرسة مرتين حتى يكون قد حفظ أبياتها. وبالطبع، كان يرجع بمحاولاته الشعرية والإنشائية إلى عمّه عليّ، فيصحح له، ويعلّمه بعض الأوزان بأسلوب ميسّر.

لم يكن الولد الأكبر صالح في مثل ذكاء أخيه وتفوّقه المدرسي، ولكنه كان فوق المتوسط على كل حال. وإذا كان أخوه الأصغر صلاح يشبه عمّه عليّ في الذكاء، فقد كان صالح يشبهه في الهدوء والرزانة. وإذا كان أخوه يكتب محاولاته الأولى في الأدب، فقد كان صالح موهوباً في الخط الجميل والرسم. فملأ جدران بيوت المخيم التي صار معظمها من الإسمنت، برسم خارطة فلسطين وتخطيط اسم فلسطين مع الكلمة الواعدة الموعودة «عائدون».

نعم، «عائدون».. ذلك سيكون عنوان المخيم وشعاره على توالي الأيام والأجيال، يستوي في ذلك من شهد أيام البلاد وعاشها وأخرج منها مكرهاً تحت سلطة السلاح وخلّف فيها شطراً من ذكرياته وحكاياته وأكل من زرعها وتنفّس هواءها، ومن وُلِد في المنفى وتفتحّ وعيه فيه، ولم يدرك من أيام البلاد إلا ما يبثّه آباؤه من أغاني الحنين وقصص الماضي الحاضر أبداً، وأوصاف الجنة ومفارقاتها المستمرة

بالجحيم الراهن، إذ تعمل مخيلة الحنين على تجريد الماضي من كل الجوانب الشخصية المعتمة والتجارب المؤلمة. وها هي الخيمة قد اختفت وتزاحمت غرف الإسمنت والطوب، وما زال المخيم مخيماً يُحيل إلى المقام العابر المؤقت.

والأغاني و«الدبكات» الشعبية التي كانت أيام البلاد جزءاً من الحياة الطبيعية في مناسباتها المختلفة، قد اكتسبت في المنفى دلالات عاطفية ورمزية جديدة تُحيل إلى الماضي وإلى هويّة تزداد قوةً وعناداً وحضوراً مع غياب الأرض التي أنبتتها، فأصبح الصغار أكثر إتقاناً لها من الكبار، يطورونها ويزيدونها حميّة وألَقاً وحماساً. ثم إذا سألت أحدهم عن عنوانه لم يذكر لك طولكرم ومخيمها إلا ذكر قبل ذلك البلد الذي أُخرِج منه آباؤه. وربما اكتفى بذكر الأخير!

الصغار يكبرون كما هي عادة الحياة.. إلا سالم الذي تجمّد الزمن عليه في شهور عمره الأولى، فبقيت أم سالم المجنونة تطوف به وهي تضمّه إلى صدرها وتناغيه و«تروّد» له. وما زال رشدي يعينها على حفظه من البلى والضياع، فيأتي بها إلى جدّته لتغسلها وتغسل ثياب سالم، أو تبدّلها بثوب جديد يصرّ رشدي أن يكون من كسبه القليل. وقد أَلِفت أم سالم طلّته، فإذا رأته أخذت تهتز فرحاً، ولا تقاوم دعوته أن تمضي معه إلى بيت أسرته. وتفعل مثل ذلك مع جدته أم أحمد. والحقيقة أن رشدي وجدته لم يعودا ينفردان بالعناية بها، فأهل الخير كثيرون، والمرأة التي فقدت عقلها إذ خلّفت وراءها طفلها الرضيع في فزعة الخوف والقتل والقذائف، وخطفت الوسادة بدلاً منه، صارت جزءاً من المشهد اليومي وعلامة من علاماته، وشاهداً صارخاً على المأساة. وقد علم الجميع أنها إذا حُمِلت إلى مركز الأمراض العقلية فلن يرى العاملون هناك في الوسادة التي تضمها إلى صدرها إلا أنها وسادة وعلامة جنون.. ولن يروا بعينيها ملامح وجه سالم، أجمل الأطفال.. ولن يسمعوا بأذنيها أصوات بكائه ومناغاته، ولن تتدفق قلوبهم بما يتدفق به قلبها عليه من الحب والحنان. فإذا فصلوها عن المخدة بعد ذلك فكأنهم يخطفون ولدها منها ويفجعونها به كرّة أخرى بعد أن أعاده غياب الوعي إليها. ولذلك تواطأ الناس في المخيم مع أوهامها في تلك الوسادة، ليتقمّصوا نظرتها وعواطفها. فهو «سالم» بقدر ما تراه كذلك. ولطالما جلس صلاح متأملاً متفكراً فيها إذ يأتي بها رشدي إلى البيت. فيكف عن الحركة ويغيب في تأملاته. وقبل أن يتعرّف الفكر الفلسفي ويقرأ فيه توصل بنفسه إلى هذه الخاطرة: هذه وسادة وسالم في الوقت نفسه؛ على حدّ ما يراه الناس، وعلى حدّ ما تراه أمّه! فما يتمثل لها منه ليس أقلّ حقيقة مما يراه الناس، ولا أقل ممّا تراه أم أخرى في طفلها الحيّ الرضيع، فهي تهزّه وتضمّه وتحنو عليه وتغني له كما تفعل كل أم. فلماذا يصرّ بعض القساة على إنكار ذلك عليها والميل إلى تقويض عالمها ليصير خراباً بلقعاً. لم يكن في وسعه في تلك السنّ أن يعبّر عن هذه المعاني بتلك الطريقة، ولكن ذلك ما استقر في وعيه، حتى كتب نصاً عنها أطلع عليه عمه عليّ الذي أطرى عليه، وأمدّه بمعجم من الأفكار والمفاهيم ساعدته على تشخيص طيف الفكرة الغامض الذي تراءى له في وعيه المتفتح.

لم يعد الكبار وحدهم من يتأملون في أسراب الطيور تعبر السماء إلى الغرب الممنوع، ويغبطونها على ذلك، ويتمنون لو استعاروا أجنحتها ولو ساعة من الوقت. فالصغار يفعلون ذلك أيضاً، وربما بوتيرة أشدّ، تعينهم عليه مخيّلة الصبا التي تتجاوز أسوار الواقع وتصل بهم إلى المدن والشواطئ البعيدة وتحملهم على جناح

الفراشات وصهوات الريح إلى جهات العالم الأربع.. وإلى أجمل البنات: الطويلات والقصيرات والشقراوات والسمراوات!

«عائدون».. يستوي في ذلك الجميع على اختلاف أعمارهم.. حتى من لم يبقَ له من العمر ما يدعو إلى الأمل بأن يشهد تلك العودة الموعودة.. فإن لم يعنه الوعي بحقائق الواقع وقد بلغ ما بلغ من العمر، أعانه غياب الوعي، والدخول في مرحلة الخَرَف، فهو لا يعي مكانه الآن.. ولا يرى إلّا ما كان يرى أيام البلاد.. فهو ما يزال يعيش في قريته، وفي بيته القديم، ويخرج إلى حقله، وينظر إلى التلال التي تحيط بالقرية، وسلاسل الحجارة، ومئذنة الجامع البسيط. لم يتغير عليه شيء.. ولم يمت أحد من أحبابه، ولم يسافر أحد..

ذلك حال أبو أحمد الآن..

وعلى رشدي أن يخرج بحثاً عنه في حقول طولكرم وجبال الزيتون التي تحدّها من جهة قرية شويكة الملاصقة.

- سيدي، يالّلا قوم معي قبل ما تغرب الدنيا.

ولكن أبو أحمد يبقى سادراً في غيبته داخل نفسه، فينبّهه رشدي كرّة أخرى. فيرفع رأسه ويرسل إلى رشدي نظرة شاردة شرود الزمان والواقع منه فيسأل:

- ستّك زبّلت الطابون!

ثم يسأل عن عمارة الزيتون، ولماذا تأخر العمل في تقليم أشجارها وحرث أرضها. وهل عليه أن يقف بنفسه على الصغيرة والكبيرة؟ أين أبو صالح ومسعود وحسن من العمل فيها؟ فقد رأى الناس يدخلونها بأغنامهم، فنهرهم دون فائدة.

يقول ذلك وهو يتلفت في المكان حوله. فيقول رشدي برقّة وعطف وترفّق:

- هذي مش إلنا يا سيدي.

- يعني أنا مخربط في أرضنا؟ لا يكون قصدك إنه الإنكليز حطوا إيدهم عليها لا سمح الله.

يهز رشدي رأسه بأسف، ويأخذ بيده ليعود به. ويتابع أبو أحمد:

- أمك تأخرت علينا.. روح عندها الليلة وقول لها أبوك بقول طلّي عليه.. والا خلص لما الوحدة بتتجوز بتنسى أهلها؟

ويبعث الكلام عن أمه حزنه وشجوه الذي لا ينقص مع الزمن! ولا تفارقه صورة جدار النار الذي نصبته القذيفة بينه وبينها في آخر لحظة، وحرمته من وداعها.

لكأن عقل أبو أحمد قد وجد طريقته في مقاومة الاقتلاع من عالمه القديم وهو الذي لم يكن يطيق الغياب عن قريته ليوم أو يومين وإن كان مضطراً. والآن يرفض أن يرى أي جديد يمكن أن يخرجه من غفلته المريحة. فيكون على أسرته أن تعيد تذكيره بما لا يلبث أن يضيع منه.

- ولو يا أبو أحمد.. صرت ناسي؟ هذا حسين ابن ابنك مسعود. الله عوّضه عن ابنه الأول..

وتجنبت أم أحمد أن تذكر اسم ابنه الأول «حسن» الذي مات في عاصفة الريح والمطر، كيلا تستدعي ذكرى ابنها الشهيد حسن فتفتح جرحاً عميقاً سوف يبقى

غضا إلى الأبد. ولكن تذكيره بابن مسعود الجديد ذي الشهر الواحد، يجرّ إلى التذكير بجملة من الأمور الأخرى. مسعود يعمل في الكويت منذ ثلاثة أعوام، وقد زار البلد في صيف العام الماضي، ووضعت لطيفة حملها منه في غيابه. ولا ندري إذا كان بوسعه أن يأتي هذا الصيف ليرى طفله وسائر أسرته. فالسفر مكلف. وهو بعد عامل في ورشات البناء، ولكنه ذكر في آخر رسائله أنه تقدّم في عمله واختصّه أحد المتعهدين الكويتيين الكبار بالعمل في مشاريعه، وجعله مراقباً عاماً على العُمّال، وزاد في راتبه، لِمَا رأى من إخلاصه وتفانيه وأمانته وذكائه وفهمه لتفاصيل العمل ومقتضياته. ولكن هذا يعني المزيد من المسؤوليات التي تقيّد سفره، وهو لا يحب أن يضحي بثقة صاحب العمل فيه وتعويله عليه، وما يحمله ذلك كلّه من وعود التقدّم والصعود.

كيف يمكن أن يستوعب أبو أحمد كل هذه التفاصيل وهو في غَيْبَةٍ دونها غيبة مسعود! والواقع أن أم أحمد لم تكن لتتوقف عن محاولاتها الدائبة لردّه إلى الواقع مهما يكن ذلك قاسياً، إن لم يكن لشيء إلا أنها تقاوم الاعتراف بخَرَفه، وذهاب وعيه! كله أو بعضه. أما أبو صالح وعليّ فكانا يفضلان مجاراته في أوهامه المريحة أو السكوت عنها على الأقل. ولكن، ما كانا ليعترضا على موقف أمهما، سيدّة الدار وروحها.

أما مسعود، فما كان لينسى أن يبرّ عن بُعد أم محمود كما وعد نفسه منذ مقتل زوجها الطيب في مجازفة التسلّل الأخيرة معاً. فإذا أرسل ما تيسّر له من النقود لزوجته وأسرته؛ أوصى في رسالته تخصيص مبلغ معيّن لأم محمود وابنتها صبحيّة. فيجري لسان أم محمود كالسيل المتدفق بالثناء والدعاء على نغمة خاصة.

- الله يستر عليه وعلى ولاياه. الله يفتحها بوجهه ويجبر خاطره وين ما راح ووين ما أجا. الله يوريكِم وجهه على غير ويجيبوا سالم غانم، يا رب يا كريم. ما بنساني الأصيل ابن الأصلا.

ثم لا تلبث أن تتحوّل إلى رثاء حظها الذي حرمها من زوجها وحرم ابنتها من أبيها، وتركهما بلا رجل ولا سند ولا معيل، حتى صار عليها أن تتقبل الصدقات، وهي التي وُلِدت في بيت خير، وكان أبوها، صاحب الطريقة، يُطعِم الناس ويحمل إليهم الصدقات. والآن عليها أن تسعى في الأرض لتجمع روث الماشية هنا وهناك وتبيعه لمن يستعمله سماداً أو وقوداً في الأفران، أو تخرج في وقت الربيع لتجني الزعتر البريّ وأعشاباً أخرى مما يجود به مطر السماء وتراب الأرض. ثم تترحم على أبيها ذي «اللفّة الخضراء» وتتمنى لو دُفِنت معه يوم موته، كيلا تعيش هذا الشقاء وفي حاجة الناس، لا تدري كيف توفر حاجة ابنتها اليتيمة التي تراها تمشي حافية بعد أن تقطعت «حفايتها»، وامتلأ ثوبها البالي بالرقع، واضطرت إلى ترك المدرسة بعد ثلاثة صفوف على الرغم من أنها كانت متفوقة في دروسها. وما عسى أن يكون مصير ابنتها إذا تعجّل الموت إليها.. لمن تتركها؟

هنا تبكي وتمسح دموعها بخرقتها المهترئة، ويختلط فيها الحزن بالغضب:

- يعني شو نفعه يتسلل ورا الحدود تايجيب بقرة من زرايب اليهود الله يكسرهم. قال: بنوخذ من حقنا اللي سرقوه! وهو ظل إلنا حق بعد ما ضاعت البلاد كلها؟ كان مات

وهو بقاتل مع المجاهدين.. أشرف. بنحسبه لله.. وبنقول شهيد. ضاع وضيّعني معه.. الله يسامحه.

تتدخل أم أحمد:

- إن شا الله الله بحسبه شهيد.. اترحمي عليه يا ختي بدال ما..

- الله يرحمه.. الله يرحمه.

- والناس للناس يا أم محمود.. وكل واحد عنده مصيبته.. وإن شا الله الله برزق بنتك ابن الحلال اللي يدير باله عليها.. وكّلي لله، وما تظلك تجوحي وتنوحي.. الله ما بنسى عباده. وإحنا كلنا ما بننساك.

- الله يسعدكم ويبارك إلكم في أولادكم، ويفتحها عليكم.

ثم ما يلبث الكلام أن يتحول إلى وجهة أخرى ونبرة أخرى. فتميل أم محمود على أم أحمد:

- بس معقول ما ييجي مسعود هذا الصيف ليشوف ابنه اللي انولد في غيابه؟ يا حسرتي على الناس.. انقطعت حبالها.. هذا بموت، وهذا بنولد، والناس مفرّقة عن بعض.

تميل أم أحمد عليها وتهمس:

- امليح اللي الله لحقه بولد.. علمك اتجوزها أرملة وكبيرة.. وكانوا يقولوا ما بتجيب.

بادلتها أم محمود همساً بهمس:

- وإيش اللي رماه عالأرملة الكبيرة وهو شاب بضوي زي ليرة الذهب؟!

- النصيب يا أم محمود.. علمك أبوها كان زعيم البلد.. نصها إله.. قامت صارت الهجرة، وكأنك يا بو زيد ما غزيت.. زيّ ما قالوها: يا متجوّز القرد على ماله، بروح المال وبظلّ القرد على حاله.

كتمت كل منهما ضحكتها.. واستدركت أم أحمد:

- أستغفر الله العظيم.. حرام أقول هذا الحكي.. المرة بتظلها مرة ابني.. وفي الأخير سلكت بعد ما غَلَّبَتُه وغَلَّبتْنا.. بلاش تسمعنا..

تحوّل المزاج إلى جوّ المزاح.. فمالت أم أحمد من جديد على أم محمود، وقالت بنبرة الدعابة.

- طيب ما انت أرملة وبعدك شابة.. ليش ما تتجوزي؟

هذه المرة لم تكتم أم محمود ضحكتها وغطت فمها بطرف خرقتها:

- الله يقطع شرّك يا أم أحمد.. مرة ابنك بقت أرملة وبنت زعيم.. مال ودلال. وانا يا اختي شو معي؟ قرد ومال، وفهمنا.. بس قرد وسخام؟

- كل فوله إلها كيّال.

- لع يا اختي.. جربنا الجيزة وما أجانا منها غير الهمّ والغم والشقا. أنا بس اطمّن على بنتي مع ابن حلال، ولو كان أعور، قبل ما أموت.

- طول العمر يا أم محمود.

ثم هتفت أم محمود بابنتها صبحية التي كانت معها وتجلس على بُعد:

- قومي يا صبحية اشطفي لستك أم أحمد.

صاحت أم أحمد بنبرة قاطعة:

- لا والله ما بصير.. اقعدي يا حبيبتي محلك. الله يرضى عليك ويسعدك.

لم يكن من غير المألوف أن يتعاون الجيران في أعمال البيت دون حرج، وكان يمكن أن تتقبل أم أحمد عرض المساعدة لو كان من غير أم محمود وابنتها. ولكن الحال هنا يشتبه بالخدمة المأجورة، في مقابل العون المادي الذي تتلقاه أم محمود من حين إلى آخر. كل بنات الجيران.. إلا صبحية! لا يذهب أجر السماء بأجرة الأرض!

في هذه اللحظة ظهر رشدي عائداً إلى البيت فألقى السلام، ودخل إلى غرفته، وأم محمود تلاحقه بنظراتها:

- انت يا أم أحمد إن شاء الله من أهل الجنة، لخاطر هالشاب اللي ربّتيه..

وعادت إلى نبرة الحزن الأولى:

- هيه كبر وصار شاب وهوه في بلد وأمه في بلد.. حسرتي عليه وعلى أمّه.

- مش قلت لك يا أم محمود: كل واحد بشكي همّه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفراشة تخرج من شرنقتها

(وعود جديدة لأجنحة متكسرة)

1

حار عليّ حين جاءه رسول من أبو أكرم السويدي إلى المدرسة التي يعمل فيها، يطلب منه زيارة أبو أكرم. فهو لم يلتقِ الرجل منذ زمن.

حاول التأنق بقدر المتاح تقديراً لمركز الرجل.

ولم يتأخر أبو أكرم في الإفصاح عن سبب دعوته. حفيدته سلمى، ابنة الدكتور أكرم رحمه الله، في سنتها الدراسية الأخيرة في مدرسة الفرندز الأمريكية في رام الله، حيث تنزل في سكن داخلي تابع للمدرسة، وتعود إلى بيت جدّها وأمها في طولكرم في عطلة كل أسبوع. وقد اقترب موعد الامتحانات النهائية التي تجري على النظام الأمريكي الدوليّ، ومنحت المدرسة طالبات هذه المرحلة إجازة شهر للمذاكرة والتحضّر للامتحانات التي تقرر نتائجها فرص الالتحاق بالجامعات الأمريكية. وخيّرت المدرسة الطالبات بين البقاء في السكن الداخلي. ومراجعة المواد مع المعلمات على وفق برنامج معيّن، أو الاعتماد على النفس في بيوت أهاليهن. وقد اختار أبو أكرم وهدى زوجة ابنه المتوفى، وحفيدته سلمى الاحتمال الثاني. فالطلبة في العادة يمكن أن يشغل بعضهم بعضاً عن الدراسة. أما في طولكرم، فليس لسلمى صاحبات أو زميلات يصرفنها عن التركيز والانقطاع للدراسة. وفوق ذلك فهي فرصة لكي يحظى الجد والأم بإقامة سلمى معهم، بعد ست سنوات من الدراسة والإقامة معظم السنة في رام الله. وإذا جرت الأمور على ما يأملون، فسوف تغيب عنهم بعد هذه السنة في إحدى الجامعات في الخارج. ولكي يعوّضها أبو أكرم عن معونة المدرّسات في فترة التحضير هذه، خطر له أن يستعين بواحد كان من ألمع طلبة فلسطين أيام البلاد، وتخرّج من الكلية العربية بالقدس متفوقاً على الجميع، وحصل على شهادة «المترك» البريطانية بجدارة. ولولا حاجة أهله ثم التهجير لكان الآن يحمل شهادة جامعية في أي تخصص يختاره، ولما سبقه إلى ذلك عدد من زملائه الذين كانوا يطلبون مساعدته في بعض المواد. وهو يتقن الإنكليزية إتقاناً جيداً، ولن يجد صعوبة في تدريس سلمى مناهج المدرسة الأمريكية التي تختلف عن مناهج المدارس الوطنية العامة. والحال أن انتقال سلمى إلى مدرسة الفرندز قبل سنوات قد كلّفها التأخر سنة دراسية كاملة، إذ كانت المدرسة تفرض على الطالبة التي تلتحق بالمدرسة في مرحلة متأخرة أن تبدأ من سنة دراسية سابقة لضمان تأهلها للمناهج الأجنبية الجديدة عليها. وإلى ذلك فقد خسرت سنة دراسية أخرى عام النكبة إذ وقع التهجير من حيفا قبل إتمام العام الدراسي. فهي الآن تقارب الحادية والعشرين من عمرها، وهو ما جعلها أكثر نضجاً من معظم زميلاتها في هذه المرحلة الدراسية.

بقدر ما سرّته ثقة أبو أكرم فيه، خالطه شعور بالقلق والحياء. فهذه أول مرة يجلس فيها على طاولة الدرس مع فتاة.. وأي فتاة؟ حفيدة أبو أكرم السويدي وابنة الدكتور الحكيم أكرم الذي كان من خيرة شباب فلسطين قبل أن تغتاله الرصاصات الغادرة.

جمال هادئ، وثياب أنيقة تتجنب صخب الألوان، وشعر معقوص إلى الخلف ومربوط بشريط أسود، وعينان يغلفهما ضباب شفاف لا يحجب النظرة العميقة السابرة.

لم يظهر عليها من اضطراب الحياء مثل الذي غالب عليّ من نفسه، وهو الذي يكبرها بنحو اثني عشر عاماً. وبينما كان يتحاشى تركيز النظر في وجهها مباشرة حتى وهو يحادثها، لم تكن لتعيره سمعها أكثر مما تعيره بصرها. ولم يكن في ذلك ما يوحي بجرأة مزعجة مقصودة، بقدر ما كان يوحي بالعفوية وقوة الشخصية والثقة بالنفس.. وبه!

لم يجد صعوبة في تدريسها، فهي لا تفتقر إلى الذكاء. ولكنه وجد صعوبة من نوع آخر. ثمة شيء غريب يتحرك في نفسه.. شيء لم يختبر مثله من قبل، ولا ظنّ يوماً أنه ينتمي إلى عالمه.. ولذلك فهو يتجنّب البحث له عن اسم أو وصف، خشية أن يتهم نفسه، أو يشعر بالغربة عن نفسه ومحيطه.

فما بال صورتها تلاحقه أنّى كان، مهما يجتهد في طردها، بل إنه ليشعر بالإثم أن تكون معه في خلوة خياله! ولماذا وجد نفسه يسافر إلى مدينة نابلس القريبة ليشتري بنطالين جديدين، وقميصين جديدين، وجاكيتاً جديداً، متلفاً بذلك مبلغاً عزيزاً من مدخراته القليلة؟ ولماذا صار ينظر في المرآة أكثر من أي وقت مضى، ويحرص أن لا يخبط بحذائه في مياه المخيم ووحله؟ ولماذا صار حريصاً على أن يحرّر لسانه الفصيح أصلاً من مفردات اللهجة الريفية المخصوصة، ولحنها السائد؟ ولماذا بدا له العالم الآن أكثر ألقاً وخطورة في آنٍ، وأكثر وعداً ووعيداً في الوقت نفسه؟

ما الذي ألمّ به؟ أهو نداء الفطرة والطبيعة يخترق حجب الثقافة التي تؤثم العواطف التي لا ينبغي أن تستظهر إلا في الشعر والغناء، أم هو نفث من الشيطان يستخفي بقناع الجمال والشعر؟

أهو نداء الزوجية التي تقوم بها الحياة في كل أشكالها، أم هو فتنة النفس الأمارة بالسوء في ازدواجيتها ونزعاتها المتضاربة؟ ولكن، لماذا يبقى أسير الأسئلة المحيّرة كعادته دون أن يطمئن إلى جواب شافٍ مريح؟

تمنّى لو كان أخوه حسن إلى جانبه، ليعينه على نفسه. فذلك الشاب كان يركب الريح ولا يعني نفسه بالسؤال عن الغيم المقبل: هل هو سقيا خير أم مطر السوء؟

ولكن، مهما يكن الجواب، فثمة ما لا يمكن أن يكون صواباً. فإلى جانب فرق العمر، الذي يمكن إغفاله بالمعايير الاجتماعية السائدة في ظروف معينة، فهناك الفروق الهائلة في الخلفية الاجتماعية والأوضاع المادية. ولقد كانت كذلك قبل النكبة، فكيف الآن وهو ابن المخيم؟ وهو يدرك أنه لولا صيته الدراسي أيام البلاد، وصيت أخيه القائد أبو صالح، وما أثِر عن أسرته من الأخلاق السامية، لما دعا أبو أكرم شاباً معلماً من المخيم ليعطي حفيدته دروساً خصوصية! وهو بعد لم يتمكن من متابعة الدراسة الجامعية للحصول على الشهادات العليا التي يحلم بها، والتي يمكن أن تعينه على ردم الفجوة الهائلة التي تفصله عن عالم أبو أكرم السويدي.. و.. حفيدته! وبخلاف حسن وأيامه ودنيا قريته، لا تحف الطيور بالعاشقين لتغني لهم أو معهم «زريف الطويل» و«جفرا» و«الميجنا» و«العتابا».. هنا فقط، مواجد أم كلثوم وعبدالوهاب وأسمهان وليلى مراد.. وحديثاً: عبدالحليم حافظ. ولكنه سيكتشف بسرعة أن سلمى لا تستمد معجمها العاطفي من أغاني المذياع، ولكن.. من الشعر.. الشعر الرومانسيّ على وجه التخصيص: جبران خليل جبران، أبو القاسم الشابي.. إيليا أبو ماضي.. إبراهيم ناجي.. علي محمود طه..

أما أن الحب الصادق وحده كافٍ لإسقاط الفواصل، فذلك من الأوهام التي تنتجها مصانع الأفلام السينمائية في مصر أو في الغرب، سواء.

وإذن فإن هذا الذي يتحرك في صدره، على ما فيه من لسعة الجديد المدهش، لا يعد إلا بالوجع، ولن يورثه إلا شعوراً بالأسف والندم والحسرة. وعليه أن يقاومه بكل ما يمتلك من عقل وقدرة، قبل أن تتحوّل الشرارة التي انطلقت بينهما دون بوح فأضاءت بعض ما كان معتماً في داخله، إلى نار محرقة.

فليبدأ أولاً بالإنكار. ولن يقدم على تسميته فيكون إقراراً بوجوده. فإن كان لا بد فهو من مخزون المراهقة التي عاشها بعض زملاء المدرسة، وحبسها عن نفسه. ثم إن عليه أن يتجاهل الذبذبات التي تنبعث منها. ولعلها من صنع أوهامه ورغباته المطمورة في ركن خفيّ من وعيه. وحتى سهومها وشرود تفكيرها أحياناً عن الورق والدرس قد لا يعنيان أكثر من الضجر والملالة وانحسار التركيز بعد تطاول الشرح وحلّ المسائل. ومن الذي يستمتع بدروس الرياضيات والطبيعة، ولا يحب أن ينصرف عنها إلى حديث الأدب والشعر؟

- سمعت إنك شاعر؟

- مش شاعر بالمعنى الصحيح.

- أنت متواضع.

تنبهت ملامحه متعجباً من التعليق. ووجد نفسه دون تدبّر يلقي عليها نظرة تساؤل سريعة، وتابعت:

- قرأت القصائد اللي نشرتها في مجلة «الأديب».. جدّو بجيبها.. ومجلة الأديب ما بتنشر لأي واحد.. مش شاعر بالمعنى الصحيح زي ما بتقول.

نجحت في جذب اهتمامه ورغبته في الكلام. وازداد تعجباً إذ ألقت عليه أبياتاً من إحدى قصائده المنشورة.

- بتحفظيها؟

- بس الشعر اللي بعجبني..

- شكراً على كل حال.. بس أعتقد إنه لازم نتابع الدرس الآن، ونستفيد من الوقت.

تمنّى ألا تتوقف وقد دهمه الحياء حتى ظهر على وجهه. وسعد في سرّه حين لم تتوقف.

- الكلام عن الشعر الأدب اللي بعبر عن المشاعر الإنسانية وبحرّك القلوب مش مضيعة للوقت.

- بس أسئلة الامتحانات بتيجي من كتب المناهج.

- المملّة!

- مملّة.. ممكن.. أحياناً.. ولكن التحصيل والتفوق يحتاج إلى مقاومة الملل.

- مقاومة الملل بتحتاج لاستراحة.. وما تخاف عليّ.. أنا أشطر مما بتظن.

ازداد إعجاباً بثقتها بنفسها..

- أنا ما بظن.. أنا متأكد الآن إنك أشطر حتى مما تظني.. بس..

لاحت على وجهها ابتسامة عريضة.. فهذه أول مرة تسمعه يثني على عقلها. مرة أخرى أراد أن ينهي هذا الحديث ويعود إل الدرس ليخرج من الحرج.. ولكنه لم يفعل.. فقد كانت حاجته الداخلية إلى مبادلة الحديث في أمور تنتمي إلى عالمه الفكري والوجداني مثل حاجتها.. أليس من المفارقات أن الإنسان الوحيد في هذه البلدة الذي وجده يشاركه بعض اهتمامات عالمه ومزاجه هو أبعد الناس عنه في عالمه الاجتماعي! ولم يكن من الصعب عليه أن يدرك أنها تعاني من الشعور بالوحدة مثل الذي يعاني، على اختلاف الأقدار. واستأنفت:

- بس ما فهمت.. شو يعني مش شاعر بالمعنى الصحيح! شو المعنى الصحيح؟

هذه المرة وجد نفسه يجيب بقدر أكبر من التدفق والاسترسال:

- الشاعر الصحيح، بكون الشعر عالمه.. غايته الأولى.. إذا بدّك، مهنته وصفته اللي بِحب يِتعرّف فيها قبل أي صفة أخرى، أو حتى مهنة أخرى. هذا طموحه الأكبر.. وفي ذهنه نماذج الشعراء المشهورين في عصره وقبل عصره.

- وأنت؟

- أنا!! طموحي الأكبر في إكمال دراستي الجامعية والحصول على الشهادات العليا والبحث والدراسة والتعليم الجامعي.. والمركز الأكاديمي.. يمكن الكتابة عن الشعر أسهل من كتابة الشعر المتفوق نفسه.. على الأقل بالنسبة إليّ. أنا بكتب شعر لنفسي في الدرجة الأولى، يعني نفثات صدر.

قالت:

- أنا ما بعتقد إن فيه حدا بكتب لنفسه بس.. في اللحظة اللي بتِمسك فيها القلم بكون فيه قاري، أو مستمع.. دائماً فيه شخص ثاني بستقبل.. حتى لو كان هذا الشخص الثاني هو الشاعر نفسه. عشان هيك لما بخلّص كتابة قطعة أدبية بدور على حد يقرأ عليه كأنه النص ما بكتمل وبصير له وجود إلا عند القارئ أو السامع. وإذا ما لاقى حد، بعيد قراءة النص لنفسه.. وكل أكم يوم برجع يقرأه من جديد.. ويمكن يحبه ويعجبه أكثر بعد ما يبعد عنه وقت.

الآن تعاظم إعجابه.. لا يكون هذا الكلام إلا من أديب..

- كلامك بدل على إنك مش بس بتحبي الأدب.. كمان بتكتبي..

أطرقت لحظة، ثم قالت همساً:

- بس ما بقرأه إلا على نفسي..

تردد قبل أن يقول:

- إذا حبِّيت أنا..

قاطعته:

- بخاف ما يعجبك.

- خلّيني أحكم بنفسي.

- قصدي مش بس الأسلوب.. المواضيع.

- مثل إيش؟

- المرأة.. عواطفها.. أحلامها.. أحزانها.. شعورها بالوحدة.. نظرة المجتمع.. رغبتها في..

تلبثت لحظة، ثم أكملت وهي ترمقه:

-.. شريك متفتح يفهمها.

هز رأسه هزّة خفيفة:

- أعتقد إنا أخذنا استراحة كافية.. آن الوقت نرجع للدرس.

عندما خرج من بيتها، لم يستطع أن يدفع شعوراً غامضاً بالتأثم. هل خان الأمانة التي أوكلت به حين سمح لنفسه أن يجاريها في كلام بعيد عن الدرس، قريب من العواطف؟ لعلها كانت أجرأ منه وإن لم تبح بكلام مباشر. ولكن القلوب تتراسل بغير كلام. وهذا الذي يحسّه في نفسه لم يأتِ فقط من جوعه العاطفي، ولكن، أيضاً من جوعها العاطفي، وشعور كل منهما بالغربة والوحدة. هذه فتاة مثقفة متقدمة على عمرها، وقد نشأت في بيت موحش ليس لها فيه إخوة أو أخوات، وإنما جدّ كبير السنّ، وأم أرملة لا تتجاوز حدود عالمها البيتي الخاص.. يتنازعها حزن مقيم على زوجها الذي فقدته مبكراً على نحو فاجع، وشيء من الشعور بالكبر على النساء في محيطها.

«الأجنحة المتكسّرة» لجبران خليل جبران، كتابها المفضّل، كما تقول. ربما لأنها تشعر أنها تعيش بأجنحة متكسرة، وتحلم أن تنجبر أجنحتها لتطير بها في سماء مفتوحة. وعندما دفعته دفعاً للتعليق على جبران وأجنحته، بدأ بالثناء على أدبه، ولكنه أضاف بأنه يخاطب القلوب والعواطف، ويرى الشقاء الإنساني من وراء زجاج نافذة آمنة. فيرثي حال الإنسان ثم لا يمنحه غير الأحلام.

اعترضت على ذلك بالدفاع عن الأحلام. فهي أجمل من الواقع. فردّ عليها بالتفريق بين الأحلام الرومانسية التي نحتمي بها عن مواجهة الواقع، والأحلام التي نتسلح بها لتغيير الواقع المرّ.. تلك هي الأحلام التي تستمد من عرق الفلاح والحمّال والشهداء ورائحة «الطوابين»، والمخيم والوطن المغتصَب.. تلك هي الأحلام حين تكون مشروع المستقبل الذي ينبغي أن نكدّ له ليكون..

كانت تنصت إليه بتمعّن وتأمل عميقين.. حين نفض رأسه معتذراً بأنه أسهب في الكلام دون قصد. ولكنها حثّته على أن يتابع. فاسترسل هذه المرة ليذكّرها بالمسافة الواسعة بينهما.. وليذكر نفسه أيضاً. فلم يتردد في وصف حياته وحياة أسرته في الريف أيام البلاد.. وكيف كان عليه أن يشهد اضطهاد الزعامات الفردية حين لا ينشغل الناس باضطهاد الإنكليز للناس كلهم، لا سيّما أهل الريف. كيف كان عليه أن يمشي على قدميه عشرة كيلومترات على الأقل، من حيث تصل به الحافلة من حيفا، إلى قريته في عطلة الأسبوع مرتين في الشهر. وفي أيام الشتاء يكون عليه أن يخبط بالوحل ويتعرّض للمطر طوال الطريق. كيف كان عليه أن يغسل رغيف الخبز من أثر العفن قبل أن يأكل منه. ثم حدثها عن أخيه حسن الذي كان يحلم أكثر منه، ويريد أن يمتلك الدنيا كلها في يوم واحد لو استطاع. وحين قامت حرب النكبة حمل بندقيته وخرج. بينما قعد هو من ورائه يرقب وينتظر بلا حول ولا قوة، يحاول أن يفهم ما يجري، الأحداث تمر به وهو ضائع في نصوصه، بل ودون أن يتوقف عن التفكير في مصير خططه الدراسية، حتى وجد نفسه في المخيم.. بدون حسن.. قسيم روحه،

ومع أخ مجاهد ما يزال يعاني من إصابته، وأب هائم في تيه ذاكرته. والآن يجد نفسه على تخوم عالمين.. متقاربين مكاناً ومتباعدين مكانةً.. فلا هو يحسن التواصل مع أهل المخيم، ولا مع الناس خارجه.

كانت لحظة بوح خاطب فيها نفسه وهذه الفتاة الغريبة المختلفة. لعلها الآن تخرج من قوقعة الأفكار المثالية والتصورات الميلودرامية، لترى المسافة التي تفصل بينهما، وتطفئ مصدر تلك الذبذبات التي تنبعث منها نحوه، وتوجعه بقدر ما تدفئه، وتضيئه بقدر ما تحرقه.

ولكن ردة فعلها كانت على الضد من ذلك. فقد عبّرت عن سعادتها ببوحه الشجاع، فهو دليل ثقته بها وبقدرتها على التفهّم والتفاعل، وأنها تشعر بالخجل أنها كانت بالفعل ترى هذه الأمور من خلف زجاج نافذتها الآمنة، أو من خلال النصوص المغلّفة بالتأملات المترفة. وقد قالت من قبل إن الكلام يحتاج إلى اثنين.. وتشعر الآن براحة خاصة أنهما كانا هذين الاثنين..

ابتزّ من نفسه ابتسامة مصطنعة ونبّه إلى أن معهم أشخاصاً آخرين غائبين حاضرين، يملكون سلطة الحكم والرأي الأخير: أولئك الذين يضعون أسئلة الامتحان، وأولئك الذين يصححون الأجوبة. وهؤلاء من يجب أن يُخاطَبوا الآن!

حين خرج من الدرس الأخير الذي لن يراها بعده، لم يفاجئه شعوره بالألم على فراقها، ولكن الذي فاجأه اقتران ذلك الحزن بشعور الراحة. فليس عليه بعد اليوم أن يحاور مشاعره فيها أو يحاورها في مشاعرهما ولو بأسلوب موارب، وليس عليه أن يهتم بمظهره على غير سجيّته، ولا أن يعد نفسه ذهنياً ووجدانياً للقائها وأسئلتها، ولا أن يشعر بالتأثم أنه يتركها تستدرجه بعيداً عن الدرس ولو في استراحة صغيرة. ولكنه سيحتفظ بكتاب جبران، الأجنحة المتكسرة، الذي أهدته إياه للذكرى. ولسوف يعيد قراءته بعين جديدة، بعد أن قرأه قديماً بعين الدارس الباردة. ولم يكن ليعلم أنه بعد أن فارقها للمرة الأخيرة أغلقت الباب على نفسها، وانخرطت في بكاء طويل.

كما لم يكن يعلم في تلك اللحظة أن الكتاب الذي أهدته إياه ينطوي على نصّ آخر بين صفحاته: رسالة مطوية من سلمى.

«أرجوك أستاذ عليّ. لا تتسرّع بالحكم عليّ. أتوقع أن تقول إنها أحلام فتاة جريئة لم تخرج من المراهقة. ولكن كما ترى، لم يكن عندي من الجرأة ما يكفي لأقول لك ما أريد قوله وجهاً لوجه، دون اللجوء إلى الرسائل وإخفائها في كتاب، كما تفعل المراهقات حقاً. لم تساعدني الأجنحة المتكسّرة على الطيران إلى حيث أحب. لا، ليست أحلام فتاة مراهقة في آخر المطاف. فقد كان عليّ أن أكبر بسرعة.. لم تكن وحدك الذي عانى. صحيح أنه لم يكن عليّ أن أواجه التجارب الصعبة التي مررت بها، ولكن، ما أقسى الشعور بالوحدة الموحشة في بيت بقي أسيراً للذكرى المؤلمة. وإذا كان طريقانا قد تقاطعا في الآونة الأخيرة، فقد تقاطعت طرق أهلي وأهلك في زمان قديم: أبي رحمه الله وجدّي من جهة، وأخوك المجاهد القائد أبو صالح من جهة أخرى. عالج أبي أخاك من جرحه في الخفاء في بيتنا في حيفا بعد عملية فدائية قام بها، وفي المقابل أنقذ أخوك القائد سمعة أبي وجدّي بذلك البيان الذي أصدره بعد مقتل أبي غدراً. أعلم أنك حاولت جهدك بطريقة غير مباشرة أن تؤكد أن التباعد بين عالمينا أكبر من أن تقرّبه العواطف التي ألهمت الشعراء. ولكن ما الذي يقرّبنا أكثر

من ذلك الإرث الذي جمع بين عائلتي وعائلتك: إرث الوطنية والثورة والفداء وأخوّة الدم والتضحيات، في تلك الأيام.. أيام البلاد بلادي وبلادك.. أليست هذه الجوامع أعظم من الفرق بين الريف والمدينة، بين الفقر والغنى، بين المخيم وغيره؟

وللتذكير فقط، نحن أيضاً لاجئون اقتُلِعنا من ديارنا تحت تهديد السلاح.. وخلّفنا وراءنا بيتنا في حيفا وخسرنا أراضينا في الريف كما لا بد أنك تعلم. أدرك الفرق بين من قذفته ريح النكبة إلى المخيم، وبين من كان في وسعه أن يتدبّر أمره في أوضاع أفضل مثل جدّي. ولكننا جميعاً أبناء فلسطين والنكبة والقضية. وهذه كلها أعظم من أن تختصّ بها فئة دون فئة.. فالوجع الوطني أكبر من كل الأوجاع.

وهَا نحن.. أنت وأنا.. كلانا يشعر بالوحدة والغربة لأسبابه الخاصة. وكلانا يحتاج إلى آخر يشبهه ويختلف عنه في الوقت ذاته، ليكتمل به، ويمنحه ما لا يملك وحده. وأعترف أن الذي عندك أكبر مما عندي.

لا أريد أن أكون فيلسوفة. ولكن أرجو على الأقل أن أكون قد أثبت لك أنني لست مراهقة، وأن غايتي القصوى هي شفاء أجنحتي المتكسرة، لأتمكن من الطيران في فضاء لا حدود فيه ولا فواصل ولا حواجز».

لا ليست هذه الفتاة مجرد قارئة محبة للأدب. وهذه لغة تبشر بأديبة موهوبة. ولأمر ما ذهب تفكيره إلى «مي زيادة»، ابنة الناصرة وبيروت والقاهرة، التي لم تحمها حياتها المترفة من نهاياتها المأساوية.

وقريباً تسبقه سلمى إلى الدراسة الجامعية وشهادتها لتتقدم بها على أستاذها! وما تلبث أن تنساه إذ يختفي كلاهما من حياة الآخر إلى الأبد! ولكنه سيعرف قريباً أنها لا تنساه، ولن يختفي كلاهما عن حياة الآخر!

لأول مرة منذ النكبة والتهجير، يمتلئ بيت الأسرة في المخيم بالزغاريد والتهاني. فأخيراً تحقق حلم عليّ ومحاولاته الدائبة المكرورة للحصول على منحة للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت.

البنطالان والقميصان والجاكيت التي اشتراها من نابلس، ليظهر بمظهر مقبول في بيت أبي أكرم، لم تذهب عبثاً!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

حين وصل إلى بيروت في شهر أيلول من عام ١٩٥٦، بدأ بالبحث عن أسرة فتحية، زوجة أخيه أبو صالح، في مخيم صبرا حيث انتهى بهم النفي.

كانت مفاجأة سارة. فهذه أول مرّة يلتقي فيها موسى بأحد الأصهار وقد تفرّقت طرقهم بين طولكرم في الضفة الغربية وبين بيروت. وما كان سوء الأوضاع المادية ليعينهم على السفر والزيارة. وبعد صخب الترحاب دار السؤال عن الجميع فرداً فرداً. وكالعادة رجعوا بالكلام إلى أيام البلاد.. حيث كان كل شيء أجمل وأطيب. وكالعادة أيضاً لا بد أن يسلم ذلك إلى صبّ اللعنات على من كان السبب، وقد توزع دم فلسطين بين القريب والبعيد.. وحتى بعض الذات!

المخيم هو المخيم.. والحنين هو الحنين.. والكتابات على الجدران الخارجية هي نفسها: عائدون.. وخارطة فلسطين.. والبيوت من الداخل متشابهة تشابه التعساء.. إلا من لمسات حضريّة جاءت مع أصحابها من حيفا وعكا والجليل، مع لهجات الساحل الشماليّ المدنية، ومع بعض العادات التي لا تراها في مخيم طولكرم الذي جاء جلّ أهله من القرى. فهنا يمكن أن ترى بعض النساء يدخنّ «النرجيلة» داخل البيوت وأمامها. ولا تمنع قلة المال من وجود جهاز المذياع، تتقلب برامجه بين الأغاني والأخبار. فإن كان ثمة خبر يخصّ فلسطين أو الثورات والانقلابات تسمّروا حول المذياع وأسكت بعضهم بعضاً، كأن تحرير فلسطين على بُعد بيان ثوري. نعم، ذهب الكلام القديم عن العودة بعد أسابيع، ولكن، ربما في بضع سنين. هكذا تعد الأغاني والبيانات الثورية والكلمات النارية التي تنبعث من إذاعة صوت العرب ومن خطب الرئيس عبدالناصر الذي يستحق منذ الآن لقب «بطل التحرير» باعتبار ما سيكون. وما سيكون هو بحكم اليقين! فها هو العملاق العربي يُبعَث من رقاده، ومعه أحلام ملايين العرب من المحيط إلى الخليج! وها هي ثورة عبدالناصر تلهم الآخرين وتسري كالنار في هشيم الرجعية التي تواطأت على فلسطين.. وها هي ثورة الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي الطويل تسطر ملاحم يومية، وها هي سوريا تجوبها دبابات يرث بعضها بعضاً وعينها على فلسطين!

ربّما طاف بخاطره أنها يمكن أن تلتحق بالجامعة الأمريكية في بيروت، ولكنه كان خاطراً عابراً، ربما كان يعبّر عن رغبة داخلية ممزوجة بالقلق. وها هو يقف أمام لوحة كبيرة معلّقة على الحائط سجل عليها تعليمات ومواعيد تتعلق باستكمال إجراءات التسجيل، في نهاية شهر أيلول/سبتمبر من عام ١٩٥٦، حين التقط بطرف عينه ظلّاً لفتاةٍ تقف في مكانها وتنظر إليه. وحين التفت وجدها أمامه تنظر وتبتسم. سلمى أكرم السويدي. خفق قلبه بشدة وداري انفعاله، وكانت كالعادة أكثر جرأة منه.

لا مفرّ الآن منها ومن نفسه، فالمعلم وتلميذته، كلاهما الآن من زملاء الدراسة. ومع ذلك فقد لبثت تخاطبه: أستاذ عليّ، حتى تجرّأ وطلب منها أن تُسقِط لقب أستاذ، وقد صارا زميلين على سويّة واحدة. فابتسمت واشترطت أن يسقط من جانبه كلمة: آنسة ويكتفي باسمها. وقد أمدّه جو الجامعة والاختلاط ومظاهر التحرر من حوله بشيء من القدرة على الخروج تدريجاً وبقدر ما من حيائه المحبط، وبعضه موروث من خلفيته الريفية التي لا يمكن أن تفارقه، وبعضه جزء من شخصيته وطبيعته التي

ميزته منذ الصغر عن أخيه الفقيد حسن، الذي كان دائما مستعدا للتقحم وركوب العاصفة، مهما تكن العواقب.

وإذا كانت مظاهر التحرر في الجامعة مما يصدم مزاجه التقليدي، في ملابس الطالبات، وفي التجمعات الصاخبة للذكور والإناث، وفي تناجي العاشقين على المقاعد الخشبية بين الأشجار في حرم الجامعة، وأشدّ من ذلك تدخين الفتيات، فقد طغى على ذلك كله دهشته من الروح الوطنية والقومية العارمة التي تملأ أجواء الجامعة.. وأي جامعة! الجامعة الأمريكية! تحتضن شباباً ثورياً يندّد بالإمبريالية الأمريكية والقوى الاستعمارية وأذنابها، ويدعو إلى التحرر منها والثورة عليها، ويهتف لفلسطين التي ينبغي أن تكون القضية المركزية التي تلتف عليها حركات التحرر والنهوض! فأي مفارقة! نعم، إن روح المدّ القومي أقوى من أن تتوقف أمام اسم الجامعة العريقة ومصدرها. وخطر له أن هذا ليس أمراً مستجِداً.. فهنا درس إبراهيم طوقان في الثلاثينيات، وكتب جملة من قصائده التي تقلّبت بين الغزل والوطن. ومثله آخرون ممن اشتهروا بعد ذلك في المجالين الوطني والثقافي. وها هو الآن يستدعي طيوفهم، ويتصورهم يتجولون في حرم الجامعة يتحاورون في السياسة، ويتناوبون على إنشاد أشعارهم، ولا يمنعهم ذلك من إرسال النظر إلى سكن الطالبات في انتظار أن تطل إحداهن منها لتضيء شمس الصباح، أو تشعل حمرة الغسق. وإذا كان السكن مكاناً محرماً، فخيال الشعراء والعشاق لا تعترضه الحدود والأسوار والخفراء.

بكوري عن شبّاكي\
لأنشق طيب ريّاك\
ولا سلوى سوى نجوى\
أُسِرُّ بها لمَحْياكِ\
أسرّح نحوه طَرْفاً\
أمنّيه بمرآكِ\
وطرفاً في قرار الدّارِ\
موعوداً بلقياكِ\
تمرّ عليَّ ساعات\
أشيّعها بذكراكِ\
صباحَ النور من دَنِفٍ\
تَنَهَّدَ ثم حيّاك\
مررتِ وقيل مرّ النّا\
سُ، هل أبصرتُ إلّاك

لأول مرة يدندن على سمعها بأبيات من شعر إبراهيم طوقان، ابن نابلس، قالها وهو طالب في الجامعة الأمريكية، يتغزل، كما قيل، في طالبة جميلة أنيقة من بلدة كفر كنّا في الجليل الفلسطيني، كانت تدرس معه في الجامعة نفسها. التفتت إليه تمعن فيه النظر والتأمّل، وهما يجلسان على مقعد خشبي في حرم الجامعة. وآثر أن ينظر

أمامه في البعيد حرجا. وشعرت في داخلها بالسعادة، شيء ما يتغيّر فيه ويتفتح على الحياة والعواطف بعد أن كان مطموراً لزمن طويل.. لعله المكان والجوّ والناس هنا ومواعيد عالمه الجديد، وأطياف الشعراء الذين سبقوه إلى هذا المكان وحكاياتهم وتجاربهم.

ثم قالت:

- تصوّر.. بنت فلسطينية من كفر كنّا في هذي الجامعة قبل أكثر من عشرين سنة.. بتغزّل فيها شاعر فلسطيني من نابلس!

أدرك مغزى تلميحاتها.. واكتفى بابتسامة خفيفة.. ثم بدأت تلقي أبياتاً من قصيدة أخرى لإبراهيم في الفتاة نفسها وذكراها التي بقيت في وجدانه:

هل كفرُ كنَّة مُرْجِعٌ لي ذِكرُها

ما فاتني من عنفوان شبابي

أم في صباياها وفي رمّانها

ما يبعث المدفون من آرابي

لو تنفع الذكرى ذكرتُ عشيَّة

زهراءَ بين كواعب أترابِ

من هنا وجد نفسه يشاركها في الإلقاء:

فيهنّ آسرة القلوب بحسنها

ودلالها وحديثها الخلّاب

توقفت من جانبها لتتركه يتمم وحده، فتابع وقد التفت إليها لأول مرّة:

روح أخف من النسيم وخاطرٌ

كالبرق مقرونٌ بحسن جوابِ

ثم غلبه الحياء من جديد، فثاب إلى الصمت والنظر صوب البحر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

وقت لشعر الغزل، ووقت لأناشيد الحرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الله أكبر ، اللهُ أكبر
الله أكبر فوق كيد المعتدي
والله للمظلوم خيرُ مُؤَيِّد
أنا باليقين وبالسلاح سأفتَدي
بلدي، ونور الحق يسطع في يدي
قولوا معي، قولوا معي:
الله الله الله أكبر
الله فوق المعتدي
يا هذه الدنيا أطلّي واسمعي
جيش الأعادي جاء يبغي مصرعي
بالحق سوف أردّه وبمدفعي
فإذا فنيت فسوف أفنيه معي
قولوا معي، قولوا معي
الله الله الله أكبر
الله فوق المعتدي...

ملأت الأغنية أجواء العالم العربي من المحيط إلى الخليج.. حتى طغت على أزير الطائرات الحربية البريطانية الفرنسية الإسرائيلية وقذائفها في العدوان الثلاثي على مصر الذي بدأ في نهاية شهر أكتوبر من عام ١٩٥٦ ردًّا على إعلان عبدالناصر تأميم قناة السويس، وإنهاء السيطرة الاستعمارية الدولية عليها.

في طولكرم، كما في الجامعة الأمريكية، وفي كل مدينة عربية، طافت المظاهرات الغاضبة وارتفعت الهتافات، ورُفِعت اللافتات، وتعاقب الخطباء والشعراء على التنديد والتحريض، وبدا أن العالم العربي يهتف بصوت واحد، وينبض بقلب واحد.

واندحر العدوان الثلاثي، وانسحبت القوى الثلاث مذمومةً محسورة، أمام المقاومة المصرية الرسمية والشعبية، والتضامن العربي الهائل.. و.. التنديد الدولي الصارم الذي اجتمع عليه طرفا الحرب الباردة، على ما بينهما من صراع: الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية، كل لأسبابه ومصالحه الاستراتيجية بالطبع.

”عمّت البهجة أرجاء الوطن العربي بقهر العدوان الثلاثي الغاشم، وإخفاقه في تحقيق أهدافه. وقصّر في أحلام الكثيرين من الفلسطينيين زمن انتظار العودة والتحرير. ومنذ اليوم ستضيئ سماء الوطن العربي بشعارات الوحدة والتحرر والنهوض والاشتراكية والعدالة الاجتماعية. وفي غمرة البهجة الغامرة، والمشاعر

الجارفة بالثقة والكبرياء، تجاهل الكثيرون أن القرار الدوليّ الذي ألزم قوى العدوان بالانسحاب، فرض نزول قوات دولية لضمان حرية الملاحة عبر مضائق تيران. وهو مكسب كبير للدولة الصهيونية. ولم يتوقف آخرون طويلاً عند الغايات الاستراتيجية للموقف الأمريكي الرافض للعدوان. نعم، كان دحر العدوان انتصاراً لمصر والأمة العربية، ولكن المفارقة أنه كان في الوقت نفسه انتصاراً للاستعمار الجديد الذي تمثله الولايات المتحدة، على بقايا الاستعمار التقليدي القديم في المنطقة، لتنفرد بالنفوذ والهيمنة. فلم يكن موقفها، في باطنه، انتصاراً خالصاً لمبادئ حريات الشعوب واستقلالها وتقرير مصائرها. ولن يتأخر الوقت حتى يدرك العرب أن الدولة العظمى التي ضغطت لانسحاب قوى العدوان، هي ذاتها التي ستعمل بكل الطرق لدعم الكيان الصهيوني بلا شروط، ولإحباط حركات التحرر في الوطن العربيّ، وتكريس مبدأ التبعيّة في خدمة مصالحها الاستراتيجية.

ولكنّ تلك اللحظة العاطفية الجيّاشة، لم تكن لتتسع لغير الحماس الطاغي والآمال المتجددة بعالم جديد شجاع لا تحدّه إلّا السماء، التي تسطع فيها صورة البطل والزعيم التاريخي الذي جاء على موعد مع القدر ليقود الجماهير في معركة النصر والتحرير. ولسوف يصدح المغني بعد حين:

ضربة كانت من معلّم

خلت الاستعمار يسلّم

شعب زاحف مشيته تولّع شَرارْ

شعب حقق له جمال الانتصارْ!

ولن يلتفت الكثيرون إلى خطورة «عبادة الشخصية» وتفويضها بالقرار والمصير. فالحديث عن الديمقراطية والحريات المدنيّة والمشاركة الشعبية والتناوب السلمي على السلطة وفصل السلطات، كل ذلك من ترف البورجوازيين ومن دعايات الرأسمالية الإمبريالية. ففي زمن المعارك، لا صوت يعلو فوق صوت المعركة والسلاح والعسكر الذين يديرونه! حتى لو احتاج الأمر إلى إخماد الأصوات الأخرى المعارِضة المثبِّطة بالسلاح نفسه الذي يُعَدّ لمواجهة العدو الغازي... الطغاة أو الغزاة! وكلٌّ يستمد مسوّغاته وشرعيته من الآخر. و«الواقعية» هي الكلمة السحرية التي يوظفها البعض لتسويغ الاستسلام للغزاة، أو التسليم للطغاة! ولن يطول الوقت حتى تنقشع الأوهام بثمن باهظ وهزائم أخرى وخيبات أمل عظمى جديدة، فندرك بحكمة متأخرة أن التغلب على الشعوب بالقهر والسجون والتضليل، حتى مع النيّات الحسنة والغايات الصادقة، هو مقدمة الهزيمة أمام العدو الخارجي". ▌

من مذكرات علي الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسائل الشتات

(أحزان رشدي المكتومة)

1

١٩٦٠

- «أنا محمد موسى العبد اللطيف من قرية أم الفحم، أهدي سلامي لابن عمي فريد عودة عبداللطيف في مخيم الزرقاء ولأولاده وبناته. بنعلمكم إنه صدقي رُزِق بولد سمّاه صادق. والسلام عليكم ورحمة الله»..

- «أنا عبدالكريم مصطفى الزايد من قرية الطيبة، أهدي سلامي إلى عمتي شكريّة في مخيم نور شمس، وخالتي حليمة في مخيم الوحدات وإلى عموم الأقارب..».

وتتوالى الرسائل الصوتية التي تبثها إذاعة صوت «إسرائيل» الناطقة بالعربية، من الفلسطينيين الذين ظلوا منزرعين في لحم بلادهم إلى ذويهم في المنافي. ولم يكن ذلك بالطبع لأسباب إنسانية من جانب الإذاعة، ولكنها كانت وسيلة ذكية لجذب المستمعين الفلسطينيين إلى الاستماع إلى الإذاعة ومتابعة برامجها التي تبث الدعايات المسمومة والأخبار المضلّلة. ولكن رشدي لا يريد منها إلّا أن يسمع صوت أمّه يناديه عبر الحدود من أم الفحم في فلسطين المغتصبة. فكان يجلس إلى المذياع يستمع حتى ينتهي البرنامج، ويخرج بخيبة الأمل. استمع إلى آلاف الرسائل منذ بدأ البرنامج.. أصوات رجال ونساء من قرى المثلث والجليل.. ولم يأته صوت أمه بعد.. «يالّلا يمّه.. يالّلا يمّه»، كان يهمس لنفسه وهو يستمع وينتظر. ولكن أمه لم تسمع نداءه المتلهف، ولم يسمع هو صوتها. بلى، كان يسمع صوتها المكلوم الباكي يناديه في لحظة الخروج ثم صوت انفجار القذيفة التي حالت بينهما، وحرمتهما من الوداع الأخير!

وها هو قد بلغ العشرين وفي السنة الأخيرة من دراسته الثانوية. وما زالت تلك اللحظة متسلّطة على وعيه ووجدانه كأنها كانت البارحة فقط. ولأمر ما، فكلما جاش صدره بالذكرى واشتعلت فيه نيران الحنين، كان يخرج باحثاً عن أم سالم المجنونة، ليتأكد أنها بخير ويرعاها على مجرى عادته.. فتهتز ملامحها بالفرح إذ تراه، وقد بلغ بها الثقة به والاطمئنان إليه، أنها كانت بين الفينة والأخرى تناوله طفلها ليهزه ويتأمّل فيه. وكان يفعل كما تفعل فيبتسم للوسادة ويناغيها، قبل أن يردّها، أو يردّه، إلى أمّه!

لم يكن وحده أسيراً لذكرى في تلك اللحظات الفاصلة بين الوطن وطريق المنفى.

كذلك كان صالح، ابن خاله الذي يقترب الآن من التاسعة عشرة من عمره. لم يكن يتحدث عن تجربته في الضياع عن أهله يوم التهجير إذ لقيه الزوجان الطيبان أبو محمود وأم محمود، فاحتضناه مع ابنتهما صبحية حتى بلغا به مأمنه العاطفي مع أمّه وأهله. لم يكن في تلك اللحظة يملك اللغة التي يصف بها ما مرّ به من الألم والخوف. والآن إذ يملكها فإنه لا يحدِّث بها إلا نفسه بين الفينة والأخرى. ولكن الذي يطغى عليه أكثر من الألم الذي انقضى مع لقاء أمه وأهله في تلك الأيام، هو الشعور بالامتنان العميق الدائم للأسرة التي احتضنته وأحاطته بالرعاية والحنان، وبذلت كل ما في وسعها لطمأنته والتخفيف عنه. ولن ينسى أبداً ذلك الحوار الذي تناهى إلى سمعه، بين الزوجين عمّا يمكن أن يفعلا إذا لم يتمكنا من التوصل به إلى أهله.. ومن يعلم مصير أهله على كل حال والدنيا تحترق، والقذائف تطارد الناس من مطرح

إلى آخر، والطائرات الحربية توزّع الموت؟ كيف له أن ينسى أنهما انتهيا إلى الاتفاق أن يتخذاه ولداً إذا انقطعت به السبل إلى أهله. ولو كان ذاك لربما كان الآن في بيت أم محمود في المخيم.. وربما كان أبو محمود ما يزال حيًّا لم يُقتل في عملية التسلل التي تواطأ عليها مع عمّه مسعود وأبو عطية. ولكن الأمور سلكت طريقاً آخر. وجد صالح أهله في تلك الأيام، وفقدت أم محمود زوجها بعد حين. وها هي تعاني شدة الفقر والفاقة وتعيش على صدقات الناس الذين لم يكونوا أفضل حالاً بكثير، ولكنهم أفضل حالاً على كل حال بالقدر الذي يمكّنهم من إرسال صحن من طعامهم، أو بعض الثياب المستعملة، أو حبّات من الخيار والتين، أو نصف بطيخة في موسم البطيخ، أو بعض القروش في الأعياد، ومن زكاة الفطر! وفي المقابل فإن عائلة الشيخ يونس قد غدت أحسن حالاً من الكثير من أهل المخيم. فمسعود يتقدّم في عمله في الكويت بخطىً حثيثة، حتى صار بوسعه أن ينقل زوجته لطيفة وولدهما حسين للعيش معه في الكويت. وهو لا ينسى أسرته الأولى بالمساعدة المادية على رأس كل شهر. ودكان أبو صالح لا بأس بها. صحيح أنها ما تزال من الصفيح، وأنها لا تضم غير الحاجيات الأساسية كالسكر والرزّ والطحين والسمن وبعض السكاكر، ونحو ذلك، فإن محبة الناس لأبو صالح وتقديرهم له تدفعهم إلى تقديم الشراء منه على غيره. وأما عليّ، فعلى الرغم من أنه في الجامعة، ويوشك على التخرج، فقد درج على التقشف ليقتطع جزءاً من منحته ويرسل بها إلى عائلته. ورشدي يكسب ببيع الجرائد حين لا يكون في المدرسة، إلى جانب أي عمل آخر يستطيعه. وفوق ذلك فإن فتحية قد تمكنت أخيراً من الحصول على ماكنة خياطة مستعملة من النوع اليدوي، وأثبتت أنها خياطة ماهرة، حتى تجاوزت سمعتها حدود المخيم، وصارت أم ماهر تطلب خدماتها بين الحين والآخر، ودلّت عليها أخريات من صاحباتها. ما كان كل ذلك ليجعلهم أغنياء، ولكنهم لا يشكون من الفاقة، وبوسعهم أن يتصدقوا ولو بالقليل على من لا يجدون قوت يومهم، وفي مقدمتهم أم محمود. ومن أوْلى منها بالعطف والرعاية، وقد كان منها ومن زوجها الفقيد ما كان لصالح في تلك الأيام العصيبة؟ وبالطبع كان صالح نفسه أكثرهم رغبة في المساعدة، وقد انقلبت الأحوال، فجدير بمن كان مستعداً لأن يتخذه ولداً، أن يتخذهم هو أهلاً، وقد غدت الأم وابنتها صبحية بلا أهل ولا معيل. فكان يحرص على أن يحمل إليهما بنفسه ما تجود به أسرته. وها هو الآن يحمل لهما طبقاً من «الخبيزة» التي أعدّتها جدته. فتستقبله أم محمود كعادتها بسيل من الأدعية وتقبِّل رأسه، بينما تتدارى صبحية عنه، وقد غدت الآن صبية يافعة.

والحقيقة أنها ما كانت تتدارى عنه فور ظهوره إلا لشيء خفيّ في نفسها، بل ربما عن نفسها. فلماذا يخفق قلبها إذ تراه، ويغلبها الحياء حتى تصرف نظرها عنه، ويزعجها أن يراها في أطمارها وثيابها الرثّة البالية، وحفايتها المقطوعة؟ الذي لم تكن تعرفه، أن صالح كان يطوي جوانحه على أكثر مما في نفسها، وأكثر من الشعور الثابت بالامتنان لما فعله والداها له في طريق النكبة. ولن ينسى أبداً كيف غلب عليه الحزن والخوف والفقد في ذلك الحين حتى عزفت نفسه تماماً عن الطعام، وأخفقت محاولات أبو محمود وزوجته في إقناعه بتناول قطعة من الخبز، وبقي يجلس متنحياً يبكي بلا توقف، حتى اقتربت منه صبحية الصغيرة، وربتت على شعره، ثم قسمت له من قطعة الخبز التي معها، فقَبِلها منها بعد تردد وجلست إلى جانبه. ثم ما لبثت أن ركضت إلى صرّة موضوعة على الأرض إلى جانب

أمها، فاستخرجت لعبة من القماش من عمل أمها لها، وعادت بها إلى مكانه وأرته إياها.

- أمينة! اسمها.

قلب بصره بين اللعبة وصاحبتها، وتابعت وهي تضمها إلى صدرها:

- بنيّمها معي. وبخرّفها وبتخرّفني.

ولأول مرة يصعد صوته على وهن مستفسراً ومتعجباً:

- بتخرفك؟

هزت رأسها، وكان قد توقف عن البكاء، ومسح دموعه.

- شو بتخرّف؟

- كثير أشيا.. شو بتحب.. صوت الديك.. والخروف الصغير وهو لاحق أمّه.. والثياب المطرّزة.. والغنا.. و.. يعني هيك.

الآن يملك الكلمات التي يصف بها شعوره في ذلك الموقف.. لقد آنسته وهوّنت عليه بعض ما كان فيه، كما لم يستطع والداها. كأن ذلك كان البارحة. والآن يراها على تلك الحالة من العوز والرثاثة والرغبة في التواري عن أنظاره. ولأمر ما يضايقه أن يسمع أمها تناديها لتعلمها بزيارته فتقول: «أخوك صالح يا صبحيّة». لا تسرّه صفة الأخ هذه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كالعادة، عرّج رشدي على دكان خاله أبو صالح ومعه رزمة من أكياس الورق التي ما زال يصنعها بنفسه، وليرى إن كان خاله يحتاج إلى معونة ما. وكان يصحب معه كتاباً مدرسياً للمذاكرة. فطلب منه أبو صالح أن يجلس مكانه في المكان حتى يعود من السوق.

كان يجلس على مقعد وطيء أمام الدكان ويقرأ في كتابه، حين قدم صالح. وبعد أن حيّاه لبث واقفاً بضع لحظات، ثم دخل الدكان، وما هي حتى خرج بالسرعة نفسها ومضى مبتعداً، دون أن يرفع رشدي رأسه عن الكتاب.

هتفت أم محمود تنادي ابنتها صبحيّة:

- تعالي يا صبحية.. تعالي شوفي الأصيل ابن الأُصلا شو جاب لأخته، شبشب وشقفة ثوب.

برزت صبحية تداري حياءها، ونظرت من مكانها إلى الهدية التي جاء بها صالح لها. ولم تقوَ على النطق بكلمات الشكر. ونابت عنها أمها بالدعاء المتدفق الموصول:

- روح يا عمتي الله يرضى عليك، ويعطيك تايرضيك.. إن شا الله بشهادتك وعرسك.. نذر عليّ لما تتجوز يا صالح، إذا بقيت عايشة، لأرقص وأزغرد بعرسك.. الله يخلّيك لأهلك وإلنا، يا طيب يا أصيل..

في ضحى اليوم التالي دخلت أم أحمد على رشدي في غرفته التي يشارك فيها وَلَدَيْ خاله: صالح وصلاح، وكان عاكفاً على الدراسة. وبعد لحظات تنبه إلى أنها أطالت

الوقوف دون أن تبادر إلى أي عمل، فالتفت إليها مستطلعا، وبدت له نظراتها شاردة، حتى قالت أخيراً:

- رشدي يا ستّي.. ناقصك إشي؟

- ما بدّي إلا سلامتك يا ستّي.

مرّت لحظة أخرى من الصمت، قبل أن تعود إلى الكلام:

- يعني إذا ناقصك شي بنقدر عليه، انت بسّ قول.. ما انت ابن الغالية اللي انحرمنا منها، الله يحرم اللي فرقنا.. وانت عارف معزتك عندي وعند اخوالك.. ترى ما بفضلوا أولادهم عنك.. بس تكون مرتاح ومبسو..

قاطعها وقد شعر بأنها تسرّ شيئاً وتقدِّم له بكل ذلك الكلام.

- شو القصة يا ستّي؟

- لع.. بس.. بحب اطمّن عليك.

- اطمني يا ستّي. أنا عال ومليح ومش ناقصني شي.. ما بدّي غير تكوني انت واخوالي مبسوطين. الله يخلي لي إياكم.

إذا كان هذا هو كل ما في الأمر، فلماذا ما تزال واقفة في مكانها تقلّب نظرها في المكان على غير هدى، كأنها تغالب شيئاً في صدرها. فأرسل إليها نظرة أخرى متفحّصة، حتى قالت أخيراً بصوت متردد:

- هذا خالك أبو صالح.. الله يعينه على حمله. بقول دشّر ليرة في درج الدكان.. ولما رجع ما لاقاها. تقول جنّ أخذها وطار بيها.

أطرق لحظات وقد اكتسى وجهه بوجوم شديد. ثم قال بما يشبه الهمس:

- هذا هو لعاد!

ثم فزّ فجأة من مكانه، وتابع الآن بلهجة متصاعدة تنمّ عن صدمته وضيقه الشديد:

- هذا هو معنى السؤال.. خالي مخوّني.. أنا خاين.. سرّاق.. بمدّ إيدي على شقا خالي في غيابه وبنسى المعروف.. ومنشان إيش يا ستّي؟ أنا بروح عالسينمات والا داير مع الهمل؟

- اهدى يا ستّي، اهدى. تزعلش من الخراف.. خالك مش قصده يخونك..

- والا إيش القصد يا ستّي.. إيش القصد؟

ثم اندفع خارجاً من الغرفة ومن حوش البيت كلّه، وطرق الباب وراءه بشدة غير معهودة منه.

ضربت أم أحمد كفاً بكف:

- يا ريت ما قلت ولا حكيت...

انقضى معظم النهار دون أن يرجع رشدي أو يصل أحد إليه.. وعاد أبو صالح وصالح وصلاح خائبين بعد أن ذرعوا السهل والوادي وطرق المدينة وأزقة المخيم، دون جدوى.. حتى إنهم التمسوا مكان أم سالم المجنونة، لعله يكون عندها كما يفعل كثيراً.

ضربت أم أحمد على رأسها وصاحت:

- يعني وين بدّه يكون راح؟ قرب الليل.. لا يكون دبّ على «غَرْبَة» ورمى حاله ورا الحدود؟

ردّ أبو صالح:

- ما بعملهاش.. رشدي عاقل.

قالت أمه:

- عند الزعل ما بظل عقل.. عزّت عليه نفسه يمّه.. ما هوه اللي لا أم ولا أبو يبقى ضعيف إيش ما كان.. ظلمنا الولد.. ظلمناه، وهسّع يا خوفي..

قال أحمد:

- اهدي يمّه اهدي، وخلينا نعرف نفكّر.

- كيف بدّي أهدى.. هاذ أمانة برقبتي.. ريحة الغالية.. ربّيته على إيدي، وهسّع رميناه لوين.. يا حسرة قلبك يا أم أحمد.

هنا سُمِع صوت أبو أحمد الذي كان يجلس كعادته متنحياً صامتاً شارداً في طرقات التيه، يدخّن دون توقف:

- روحوا شوفوه عند امه. يعني وين بدّه يروح؟ روح يابا شوف أختك خضرة، وجيب الولد معك. ترى جوزها ما بحبّه.

تضاعف أسف الآخرين لكلام الرجل الكبير المحبوس في خَرَفه، وقالت أم أحمد:

- يا ما خوفي الله نطّق لسانه، والولد لما عزّت عليه نفسه رمى حاله ورا الحدود.. ما هو في ناس عملوها.

قال أبو صالح:

- بعدين يمّه؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.. والله ما قصدت.. أنا لو بعرف بدّه يعمل هيك كان ما جبت السيرة.. عمرها الليرة والمية ليرة.. أنا بس قصدت التربية.. ما هوه لأنه زي أولادنا بنحب نتطمّن على أخلاقه.. يعني لو ابني كان راجعته بنفسي من أول دقيقة.

هنا سُمِع صوت صالح:

- هوه ابنك يابا.

التفت إليه الجميع بحيرة ودهشة، وتابع:

- أنا أخذت الليرة.

عمّ الصمت، حتى قالت أم أحمد متنهدة:

- وحطّيناها في رقبة الحزين!

اقتحم أبو صالح ولده بنظرة صارمة، ينتظر الشرح، فقال صالح:

- مش لنفسي يابا.. شفقت على أم محمود وبنتها.. حالتهم بالويل.

أطرق أبو صالح لحظة، ثم هزّ رأسه وخاطب ولده:

- على أي حال.. بعدين بصير الحكي بيني وبينك.. هسّع خلينا في رشدي.

تدخلت فتحية:

- ليش ما تبلغوا البوليس؟

بعد هنيهة تفكير وصمت، رفع أبو صالح رأسه وقد تنبهت ملامحه:

- أظن إني بعرف وين ألاقيه.. على الله.

وقد صحّ ظنّه.. فقد وجده في المغارة التي خبأ فيها بندقية أبيه الشهيد العبد، والتي قاتل بها حسن حتى استشهاده. وكان قد أخرجها من كيس الخيش التي حُفِظت فيه، وجلس يتحسسها، واستذكر كلام خاله أبو صالح حين آلت إليه:

«هذي بارودة أبوك يا رشدي.. اشتراها من صيغة عرس إمك أيام الثورة واستشهد وهو حاملها. وبعدها استقرضها خالك حسن، واستشهد وهو حاملها.. الاثنين عرفوا حقها وصانوها.. هذي ورثة أبوك وريحة خالك وأثر إمك..».

ذاب صوت خاله المسترجع في ذاكرته، بصوته الآن ينادي عليه من باب المغارة.

حمد الجميع الله حين رأوا أبو صالح عائداً به. وأقبلت عليه جدته تقبّله وتحضنه وتتلمّس وجهه، قبل أن يتابع مشيه إلى غرفته ويغيب فيها. تبادل أبو صالح نظرة مع أمه التي قالت:

- الحمد لله اللي هداك لمطرحه. هذا اتذكّر إنه يتيم.. راح يشمّ ريحة أبوه في البارودة.

هز أبو صالح رأسه هزّة خفيفة وهو مطرق برأسه، ثم قال بنبرة عميقة يواسي بها نفسه:

- واتذكر ليش إنه يتيم.. وليش امه مش عنده.. يمكن فيه خير باللي صار.. لازم دايماً نظل متذكرين.. الحسرة بتوجّع.. بس برضه بتولّع.. بتخلّي النار قايدة.

ثم مضى إلى غرفة رشدي. وجده يجلس مستديراً إلى الحائط وقد وضع رأسه بين يديه.

- بعد هالعمر يا خالي لازم تكون عارف غلاوتك عندي. انت ابن أختي صحيح.. بس انت أكثر من هيك. أبوك الله يرحمه بقى أكثر من أخو. كنا روح وحدة مقسومة في اثنين.. ولما استشهد حسيت قطعة مني راحت. وحتى اليوم ما فيه شي سدّ مطرحها.

صمت لحظات، ثم استأنف:

- معك حق تزعل. بس اتذكّر يا خالي.. لما الواحد بقول انت زي ابني وبكون صادق، معناها بمون عليه بالمليحة والعاطلة.. لما تشوفني بشد على ابني وما بشد عليك، اعرف إنه انت مش تمام زي ابني. بس انت زيّه، والشاهد الله. وزي ما بخاف عليه من الغلط، والكل بغلط، بخاف عليك.. مش قضية المصاري..

لبث رشدي صامتاً مستديراً بجسمه ووجهه إلى الحائط. وإذ مضى أبو صالح نحو الباب ليخرج، سمع صوت رشدي:

- خالي!

استدار إليه، ونهض رشدي من مكانه وأقبل على خاله مسرعاً واحتضن كل منهما الآخر بحرارة غامرة. ومن وراء كتف أبو صالح رأى رشدي ابن خاله صالح واقفاً عند الباب ينظر، وقال صالح معتذراً:

- حقك عليّ يا رشدي. غلطتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

«أنا وفيقة سعادة النمر من قرية عرعرة، أهدي سلامي لأخوي خليل سعادة النمر في مخيم بلاطة ولأولاده وبناته.. وإلى عموم الأقارب، طمنونا واطمأنوا..».

كان رشدي ملتصقاً بالمذياع، يستمع ويهز جسمه بحركة لا إرادية وينتظر لعلّه يسمع صوت أمه أخيراً.. وكلما مرّ وقت البرنامج يزداد توتراً.. «يا الله يمّه.. يا الله يمّه.. دخيل الله»، يردد في نفسه، وتتوالى الرسائل الصوتية.. حتى قطعت عليه جدته انتظاره المرهق، ونادته أن يخرج ليقرأ لأم خالد العطار رسالة وصلتها من ابنها العامل في السعودية. فامتثل مضطراً. وأي أمل له على كل حال في أن يسمع صوت أمّه بعد كل ذلك الوقت والانتظار ومئات الرسائل الصوتية؟

بعد أن قرأ لأم خالد رسالتها، وهَمّ أن يعود إلى غرفته، أقبلت أم عدنان مسرعةً وبادرت إلى الكلام من باب البيت:

- بنتك يا أم أحمد..

تحفزت ملامح رشدي من فوره، وتنبهت أم عدنان لوجوده:

- امك يا رشدي.. سمعتها هسّع في الراديو.. عرفتها من اسمها.. خضرة صالح الشيخ يونس.. إن شا الله تكونوا سمعتوها..

حين رأت وجه رشدي ينقبض بشدة ويطرق إلى الأرض، أدركت الحال:

- يا حسرتي.. راحت عليكم! بسّ هيه مليحة وبتسأل عن الكل.. ما خلت واحد إلا قالت اسمه.. ابنها وامها وأبوها وإخوتها.. الكل..

بينما اقتربت أم أحمد من رشدي وأحاطته بذراعها تهزّه بعطف، ولم تكن أقل منه شعوراً بالأسف وخيبة الأمل، نكست أم خالد صاحبة الرسالة رأسها أسفاً وحرجاً:

- سامحوني يا جماعة.. أنا السبب..

قالت أم أحمد:

- مش ذنبك يا أم خالد.. الله لا يسامح اللي فرّق الناس عن بعضها. المهم عرفنا إنها بخير.. ومين عارف؟ إذا الله كاتب يجمعنا على خير.. كيف الله أعلم.. بس الله قادر.

هزت رشدي من جديد بمحبة وعطف:

- ولا يهمك يا ستي.. فاتك تسمع صوت امك.. بس ما فاتك الأجر من الله إنك طلعت تقرا المكتوب تبع أم خالد.. زكاة العلم والقراية يمّه للي ما بعرف يقرا..

كل شيء بقدر. حدَّث نفسه. وقد واساه كلام جدته بعض الشيء، ولكن الشعور بالأسف والأسى لم يفارقه تماماً..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«مين عارف.. إذا الله كاتب يجمعنا على خير». هكذا قالت أم أحمد. ولكن إذا حدث هذا في وقت ما، فلن يكون «الختيار» أبو أحمد حاضراً!

انتهت أيام التيه.. ومعها أيام العمر. وكان آخر ما فعله أبو أحمد وهو على فراش الموت أنه فتح عينيه على وسعهما وبدا حائراً وهو ينظر حواليه وتساءل عما جاء

به إلى هذا المكان الغريب. ثم سأل عن حسن، ولم يستطع أحد أن يجيبه. ثم هدأت ملامحه ولاحَ على وجهه طيف ابتسامة، إذ بدا أن حسن قد لبّى رغبته أخيراً، وشخص أمامه، ثم سكنت جوارحه.. إلى الأبد!

وكان أكبر عزاء فيه أن الله أراحه مما كان فيه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العــرس

(رحلة المخيم إلى جبل عمان)

1

الأفراح والأتراح.. الآمال العريضة وخيبات الأمل المريرة.. لا تتجاور وتتزاحم فقط في عالم الفلسطيني المنفيّ، لا سيما ابن المخيم، كما تتزاحم بيوت المخيم، ولكنها تتداخل، ويستدعي أحدها نقيضه.. فالفرح يذكِّر بمن فاتهم أن يشهدوه ويشاركوا فيه، ومناسبات الحزن تزداد ثقلاً بالمقارنة بأيام الفرح وهدوء البال أيام البلاد.

مات «الختيار» أبو أحمد، في السنة التي تخرّج فيها عليّ من الجامعة الأمريكية بتقدير امتياز، في تخصص الفيزياء. ووضع اسمه على لائحة الشرف. وكان قد لمع نجمه في سنوات الدراسة بين الأساتذة والطلبة سواء. لم يعد يوصف بالذكاء والتفوق فقط، كما كان في مدارس فلسطين، فالآن يشار إليه بالنابغة والعبقري، وقد يصفه بعض أقرانه بأينشتاين العربي. ولذا لم يكن من الغريب أنه لم ينقضِ الفصل الدراسي الأخير، حتى كان بعض أساتذته الأمريكان مع إدارة الجامعة، قد دبروا له منحة دراسية جديدة في جامعة برنستون المرموقة في نيوجيرسي بالولايات المتحدة الأمريكية لإكمال دراسته العليا حتى درجة الدكتوراه. برنستون، الجامعة التي احتضنت أعظم عقلية في الفيزياء في القرن، وربما في كل القرون: آينشتاين.. نفسه!

وكانت سلمى التي تخرجت من قسم اللغة الإنكليزية وآدابها أكثر الناس فخراً به وسعادة بإنجازه. وأدركت أكثر من أي وقت مضى أنها اختارت الرجل المناسب. فأين تجد مثله إنساناً يجمع بين العبقرية العلمية والموهبة الأدبية. وها هو المستقبل العظيم ينفتح أمامه مع مواعيد برنستون التي لا يصل إليها إلا أعظم العقول، مع أخواتها هارفارد وييل وستانفورد ومعهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا. لقد صار الارتباط به امتيازاً لها ولأسرتها على الرغم من حاجز المخيم وفارق العمر. ولا يسع جدّها وأمها أن يعترضا بالفروق الاجتماعية بعد الآن.

ولم تستطع أن تخفي حماسها وهو يلقي كلمة الخريجين في حفل التخرج الذي حضره جدها وأمها، قادمين من عمان حيث انتقلا من طولكرم إليها منذ سنتين، ليكون أبو أكرم قريباً من أخويه ومن مصالحه التجارية التي يشاركهما فيها. وأثبت عليّ في الكلمة التي ألقاها في الحفل أنه بارع في الكلمات براعته في فهم الجسيمات النووية التي تشيّد الكون من الكبير إلى الصغير، ومن الحيّ إلى الجماد.

لم يكن ينافسها في الفخر به إلا أهله في مخيم طولكرم. أخيراً يستطيع أبو صالح أن يتلفت في الأهل، لا سيّما أمه وأخيه مسعود الذي كان قد وصل زائراً من الكويت مع لطيفة، بعينين تفيضان فخراً واعتزازاً بأخيه، ورضاً بنفسه! ولسان حاله: ألم أكن مصيباً حين أصررت على أن يكمل تعليمه بعد مدرسة القرية على الرغم من معارضة الأب، رحمه الله، وقلة الحال؟ أين الآن شيخ الكُتّاب الذي سخر من منظره ومنظر أخيه حسن الرثّ، وتساءل عمّا يدعوهم إلى تعليم ولدين يتشاركان في دفتر واحد، وتبرز أصابع رجليهما من نعليهما المقطّعين.

أين أبو عايد الذي لم يحضر للتهنئة وقد أقعده العمر وانقلاب الدهر عليه.. والحسد! أين ولده حمدان الذي كان مع عليّ وحسن في مدرسة القرية، ثم لم يكمل غير صف واحد في مدرسة حيفا، ورسب فيه. وهو يعمل الآن سائقاً على خط طولكرم نابلس؟

لا بأس، لا يستطيع أبو عايد أن يأتي الآن لاستقبال عليّ وتهنئة العائلة لأحد تلك الأسباب، أو كلّها، ولكن، لا شيء يمنع مسعود من أن يرسل إليه سفط حلوى بالمناسبة! وبالطبع، لم يكن ذلك من باب التكرّم والتجمّل فقط!

أقبلت أم محمود يسبقها صوتها بزغرودة قصيرة وقد صارت عند باب الحوش، ثم تدفق لسانها كالعادة بالتهاني والدعاء بمزيد من التوفيق والنجاح للأستاذ عليّ الذي لم يرفع رأس أسرته فقط، وإنما رفع أيضاً رؤوس أهل المخيم كلهم. ولم تتلبث طويلاً حتى استدارت لتخرج. فنادتها أم أحمد أن تجلس عندهم قليلاً، فقالت أم محمود:

- هسّع انتو بدكم تقعدوا مع بعض.. أنا بس قلت أهنيكم.. يالّلا السلام عليكم.

واستدارت من جديد، وتابعت مشيها إلى باب الحوش، وفي هذه الأثناء كان عليّ قد استخرج من جيبه دينارين، ورجع بقبضته وراء ظهره يهزها لأمه بالنقود. وتنبهت الأم للقصد. فتناولت منه الدينارين على عجل، وصاحت بأم محمود تستوقفها وقد صارت لدى الباب. فالتفتت حتى وصلت أم أحمد إليها وأخذت بيدها ووضعت النقود في يدها وضمّت عليها قبضتها، وقد حجبتها بظهرها عن الآخرين لتجنبها الحرج. وهتفت أم محمود:

- ييه يا أم أحمد. أنا والله ما جيت إلا..

قاطعتها:

- عارف يا أم محمود.. سلامة خيرك.. هذي حلوان.

- الله يسلمك ويسلّم أولادك وأولاد أولادك.. الله يعمّر بيتكم وما تشوفوا إلا الخير.. الله يخلف عليكم ويفتحها بوجوهكم وين ما رحتوا ووين ما جيتوا.. الله يستر عليكم وعلى ولاياكم، ويحن عليكم زي ما بتحنوا عليّ..

ومضت مبتعدة وهي ما تزال تدعو.

لم ينسَ عليّ أحداً من هداياه التي جاء بها من بيروت، وكان قد ادخر مبلغاً لا بأس به من فائض منحته وسبقه مسعود بهداياه من الكويت التي اجتهد في انتقائها بنفسه، فلم يوكل بها لطيفة التي يعلم أنها ستمسك بيدها في الإنفاق على الهدايا، فتنتقي الأردأ والأرخص. ومسعود الآن في وضع مادي جيد، يستعلن في مظهره: جاكيت «كاروهات» على بنطال «كاروهات» على قميص مخطط، على حذاء من لونين، أبيض وأحمر، ويعلق في جيب جاكيته أو قميصه قلم «باركر»!

رسالة بصرية صامتة للجميع عن نجاحه في الكويت. أما عدم التناسق في الألوان والأشكال، فلم يكن أهل المخيم ليميّزوه أكثر مما يميّزه هو نفسه، ربما باستثناء أخيه عليّ القادم من بيروت والجامعة الأمريكية، وفتحية بنت حيفا، وبالطبع أصحاب الذوق المصقول من «الوطنية» من أهل المدينة، ولسان حال المتحفظ منهم: «حديث نعمة»، وسليط اللسان: «هجين واقع في سلّة تين». ولكن مسعود ليس ثرياً بعد، وإن كان يشقّ طريقه نحو حلم قديم.

وعلى الرغم من أن لطيفة لم تعد تشكو من القلّة، واستعادت شيئاً من تعاليها القديم بما حققه زوجها في الكويت حتى الآن، مقارنةً بأمثاله وأمثالها، فقد أخذت تقلّب

قطعة القماش التي جاء بها عليّ لها في هداياه، ثم قذفتها إلى جانبها بتبرّم واضح. ولم يخف ذلك على مسعود الذي سأل:

- إيش؟ مش عاجبتك يا بنت أبو عايد؟

أجابت:

- يعني ما شفتش بعينك إنه شقفة أم صالح أحسن من شقفتي؟ أنا بعرف الغالي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. انت ما بدّك تكبري على هالخراريف يا بنت أبو عايد؟ يعني ما خطر لك إن المرة لبسها غير لبسك.

- آه يا خوي.. ما هيه مدنية! بلبق إلها.

ثم قلّدتها بأسلوب ساخر:

- ساق الله على أيام حيفا! هه. كيف لو ظلت حيفا.

- ولك هوه ظل مدني وفلاح وبدوي في هالمخيم؟

- لعاد ليش بعدها على أواعي المدينة؟ ما تلبس زي كل الخلق اللي في المخيم؟

- وانت ما لك؟ كل واحد بنام عالجنب اللي بريحه. وبعدين أنت ناقصك شي؟ أنا ببخل عليكِ؟ جيبي القماشة اللي بدك إياها، ورقبتي سدّاده.

- مش قصة ناقصني والا مش ناقصني.. قصة تقدير ومساواة.. هذي مرة أخوه، وهذي مرة أخوه. ليش التفريق؟ انت المفروض إنك تزعل.. ما هوه المرة وجوزها واحد.. وانت ما قصّرت في الهدايا اللي جبتها.. طيب والله لُوما خايفة يصير زعل كان رجعت إله الشقفة، وبديش إياها.

نفخ وقال:

- آخ منكم.. آخ منكم يا هالنسوان.. إذا الواحد جاب بتقولوا لو ما جاب أحسن.. وإذا ما جاب بتفضحوه.. ضبي هالسيرة تاقلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

لأول مرة تجتمع الأسرة منذ سنين، يجلسون في المساء في حوش البيوت الثلاثة المتلاصقة التي يحيط بها الآن جدار ساتر. الإخوة الثلاثة يجلسون على مقاعد وطيئة. والنساء على الحشايا، وفي وضح النهار يظللهم عريش العنب المرفوع على قوائم خشبية والتينة الوارفة التي زرعها مسعود أول أيام المخيم، وقد طالت الآن واستغلظت على سوقها، وصارت تطرح الثمر فتطعم أهل البيت ويهدون منها جيرانهم.

وكان صلاح يقف مستنداً إلى إحدى قوائم العريش، ويمعن النظر في عمّه عليّ، مَثَله الأعلى في التفوق والثقافة، ويرى فيه ما يريد أن يكون، ولكن في زمن أقل. ولم يبد ذلك مطلباً بعيداً، فالكل يقارنه به، لفرط ذكائه وتفوقه الباهر في المدرسة، وإقباله الشديد على القراءة والكتابة. ولم يخيّب أبوه أمله في الثناء عليه أمام عمّه، إذ قال باعتزاز:

- صلاح يا سيدي صار معروف هون.. شعر وقصص وتمثيليات لمركز الشباب الاجتماعي.. وكمان في المدرسة.. وإيش ما صار من مناسبة بنادوه منشان يقول شعر.

قال عليّ مشجعاً:

- برافو يا صلاح.. عفارم عليك.

واستأنف أبو صالح مخاطباً صلاح:

- لازم تبقى تورّي عمك اللي بتكتبه.

تدخلت فتحية:

- بس كاسر ظهر أبوه في شِرا الكتب والمجلات.. ولما بقوله بكفّي اللي صار عندك، زي اللي بكون كفرت. عصبي كثير.

قال عليّ بصوته الهادئ:

- لا، مش لازم تكون عصبي يا صلاح.

ثم التفت إلى فتحية:

- بس يا أم صالح الثقافة والعلم ما بتنحط كلها في أكم كتاب ومجلّة.

- ومنين أبوه بدوا يظل يحط إله.

دارى أبو صالح ضيقه بصعوبة، بينما أرسلت لطيفة من مكانها المتنحي نظرة إلى فتحية وزمّت شفتيها. واستأنف عليّ مخاطباً فتحية:

- الله بيسّر يا مرة خوي. العلم والثقافة ضرورة زي الأكل والشرب. هذا كلام أخوي أبو صالح من زمان.. ولولا رايه هاذا، كان ما وصلت أنا للي وصلته والحمد لله. الله يخليه تاج راسنا.

تدخل مسعود:

- وفي الأخير، العلم هوه اللي بجيب الفلوس المليحة والبيت المزبوط..

كاد أن يكمل بالقول: «والمرة المقدّرة». ولكنه أمسك لسانه في اللحظة الأخيرة، وعدل إلى عبارة أخرى:

- وشو بقي إلنا إحنا الفلسطينية غير العلم حتى نكبر ونصير ونخلص من الشقا. ما هوه ما ظلّ قدامنا ولا ورانا.

لأمر في نفس صالح تدخل قائلاً:

- بس هياك يا عمي يا أبو حسين، حققت شي كويس في الكويت.

أجاب مسعود:

- قصدك بدون شهادة؟ إحنا جيل وانتو جيل.. الدنيا بتتغير.. واللي بزبط مع واحد من جيلنا ما بزبط مع الثانيين.. بعدين، انت عارف شو اللي مرينا فيه والشقا اللي شقيناه تحت الشمس حتى وصلنا لهالنقطة.

ثم تحول إلى أسلوب المزاج والدعابة:

- بعدين، بَعْدُ عمّك أبو حسين ما حققش اللي بطمح إله.. قصدي الحمد لله مستورة، وأنا وضعي أحسن من كثير غيري، بس اللي في راسي بعده ما صار.. والتوفيق من الله. على كل حال اللي قالوا علي مزبوط مية بالمية. وصلاح مش غلطان.. وأنا بأيّده.

عاد صلاح إلى الكلام مسوَّغا لنفسه، فذكر أنه لا يحصل على الكتب دائماً بالشراء، فكثيراً ما يتبادل الكتب مع أصحابه. وأحياناً يعيد الكتاب الذي قرأه لصاحب المكتبة، عبدالرحيم العلي، ويأخذ غيره، ولا يدفع إلا فرق الاستعمال. والرجل طيب النفس ويثق به، فيمكن أن يؤجّل السداد حتى تتوفر النقود. ثم سأله عليّ عن الشعراء الذين يفضلّهم، فبدأ بأبي القاسم الشابي، وقبل أن يتابع ذكر الأسماء قاطعه عليّ ببيت من إحدى قصائد الشابي:

- سأعيش رغم الداءِ والأعداءِ

كالنّسر فوق القمّة الشمّاء

«هكذا غنى بروميثيوس».

كان هذا عنوان القصيدة، فانطلق صلاح بأبيات غزلية من الشاعر نفسه:

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كالوردِ كالصباحِ الجديدِ

كالسماء الضحوكِ كالليلة القمراءِ كابتسام الوليدِ

«صلوات في هيكل الحب».

كان هذا عنوان القصيدة التي أنشد مطلعها، وصاح مسعود:

- علقنا بالحب.. بس هذا اللي داقق فيه يا ولد؟

وأعقب أبو صالح:

- احفظ الشعر الوطني، ودشرك من خراريف الحب الفاضية.

ضحك عليّ ضحكة خفيفة، وسأل من جديد:

- مين غير الشابي؟

أجاب صلاح:

- بدر شاكر السيّاب. نازك الملائكة.. صلاح عبدالصبور.. أحمد عبد..

قاطعه عليّ:

- شعر حر!

قال صلاح:

- ليش انت ضد الشعر الحرّ؟

تولّى مسعود الردّ مستنكراً:

- هذا الشعر اللي لا وزن ولا قافية، اللي صرنا نقراه في بعض الجرايد والمجلات هالأيام؟

ردّ صلاح مصححاً بثقة:

- مين قال لا وزن ولا قافية؟ هذا بعتمد على التفعيلة.. بس.. بعدين الشعر مش بس وزن وقافية.. الشعر صورة وإيحاء و..

قاطعه مسعود:

- عاد خش إلنا في هالحكي.. وين هذا الشعر من الشعر اللي تعوّدنا عليه، اللي برنّ رنّ..

وأردف مستشهداً بشوقي:

سلام من صبا بردى أرقّ

ودمٌ لا يُكَفْكَفُ يا دمشقُ

ومعذرة اليراعة والقوافي

جلال الرزءِ عن وصف يَدِقُّ

وللحرية الحمراء بابٌ

بكل يد مُضَرَّجة يُدَقُّ

والا لما يقول:

وما نيل المطالب بالتمنّي

ولكنْ تؤخذ الدنيا غلابا

هذا الشعر.. مش هذا الشعر اللي بتسمّوه حر والا فلتان.

وبالطبع، ما كان لصلاح المعتد برأيه أن يتراجع:

- هذا شعر كلاسيكي راح وقته.

قال مسعود:

- راح وقته؟ لعاد ليش بعدنا بنطرب عليه؟ هذا إحنا برضك راح وقتنا.

وتلفت إلى أخويه، قبل أن يتابع مخاطباً صلاح:

- ترى عمك مسعود يا ولد قاري مليح.. مش تقول إنك صرت في الثانوي وأنا كل اللي قريتهن أربع صفوف؟ اسأل عمك علي.. قال شعر حديث قال.. والله ما طلع من

خرجه إلا العقاد.. قريت له أكم مقالة، ذبح اللي خلفه. وبعدين يا صلاح بيك.. الشابي اللّي بتحبه وحافظه، مش برضه شعره عمودي؟ كيف بتقول..

كان جواب صلاح حاضراً كالعادة.. شعر الشابي عمودي، نعم. ولكنه ليس كلاسيكياً من حيث المضمون والصور والأسلوب.. شاعر رومانسي.. مجدِّد، وله قصائد تتنوّع فيها الأوزان والقوافي على كل حال.

كلاسيكي.. رومانسي.. كان صلاح يلقي المصطلحات والتقسيمات بثقة العارف. وعلى الرغم من أن أباه لم يكن يفهم هذه المصطلحات، فإنه لم يكن أقل اعتزازاً بولده من اعتزاز ولده بنفسه.

كذلك كان عليّ سعيداً بثقافة ابن أخيه في ذلك العمر، وفهمه لمصطلحات نقدية قد لا يفهمها كثيرون من معلّميه. وكان صلاح حريصاً على أن يعرف رأي عمه عليّ في الشعر الحديث، فهو لم يفصح بعد عن موقفه.

- أنا يا عمي مش ضد التجديد. هذي سنّة الحياة والأدب والثقافة.. وأنا بالفعل بستمتع وبتفاعل مع الشعر الحديث الجيد. بس، من حيث المبدأ ما بصير نحكم على الجديد بالنظر فقط لجدِّته، وإلا بنكون زي اللي بظن إنه إذا لبس البرنيطة صار عصري ومتحرر. التجديد إله أصول ودواعي.. مش فوضى بدخل فيها كل من هبّ ودب!.. الإبداع والأصالة همه الأساس في القديم وفي الجديد، وهمه اللي بصنعوا الأدب الخالد اللي ما بموت مع الزمن، مع موت أصحابه وانقضاء عصرهم. والاّ ليش بعدنا بنقرأ المتبني وشيكسبير مثلاً وبنتذوق شعرهم وبنكتب عنهم دراسات جديدة؟ هذول بخاطبوا الإنسان ومشاعره وتجاربه وأسئلته في كل زمان ومكان. هذي طبيعة الأدب الخالد.. وإذا حكمنا عليهم، زي ما قلت، بأنه أدبهم راح وقته لأنهم من عصر قديم، بنكون حكمنا على الشعر المعاصر نفسه بالموت بعد زمن من الآن.

مدّ أبو صالح رأسه وقال لولده:

- افهم شو بقول عمك يا ولد.

في أثناء هذا الحوار كلّه، كان رشدي وصالح يستمعان صامتين. لم يكن صالح يشعر بالغيرة من أخيه اللامع صلاح. وكان قد طوى صدره على قرار، ينتظر الوقت المناسب ليفصح عنه إلى أبيه. لا يريد أن يكمل الدراسة. ولن يضيّع سنة أخرى من عمره، وهو يعلم أنه لن يذهب إلى الجامعة بعد ذلك، فلا هو يرغب في هذا، ولا بوسع أبيه أن ينفق على ولدين في الجامعة. بل إنه يدرك أن أباه لا يستطيع الإنفاق على واحد بغير معونة أخويه. وهو لا يريد أن يزيد العبء على الأسرة. وإذا نجح في المهنة التي يختارها، فلربما صار بوسعه أن يعين أباه ويدعم دراسة أخيه. وقد أمدّه نجاح مسعود في الكويت دون أن يكون معه حتى الشهادة الثانوية، بحافز آخر.

حين اختلى أبو صالح بزوجته بعد تلك الجلسة عبّر لها عن امتعاضه من كلامها المتكرر أمام عليّ ومسعود عن ثقل أعبائه، كأنها تستجدي معونتهم، وهما لا يقصّران على كل حال.

لم تتكر مقاصدها. ولِمَ لا، وقد سبقت جمائله في الأسرة كلها في أيام البلاد، وشقي وكدّ من أجل الجميع؟ وما كان عليّ ليبلغ ما بلغ بغير جهده، والدنيا ديون، والإخوة يد واحدة. أسكتها، وذكّرها أن عليّ لم يتزوّج بعد على الرغم من سنّه، وما تأخر في

الدراسة الجامعية وهو أوْلى بها من كل زملائه، إلا وفاءً بمسؤولياته العائلية، حتى يسّر الله له تلك المنحة. ويوشك أن يسافر إلى أمريكا في منحة جديدة للحصول على الشهادات الكبيرة. وهو على كل حال لم يبذل ما بذل من أجل أسرته ليكون ذلك دَيْناً مستردًّا. فذكرته بما كان يردده من أن الكبير يضحي من أجل الأصغر، لتعلو العائلة كلها به. وعلى ذكر الزواج، كان لا بد أن تسأله عنه، كيف يتأخّر أكثر من هذا حتى يذهب إلى أمريكا ويقضي فيها أعواماً في الدراسة؟

آثر أبو صالح الصمت والتشاغل عن السؤال، وإن كانت ملامح وجهه تنمّ عن أنه يسرّ شيئاً.

ما لم يفت أبو صالح من تلميحات فتحية أمام عليّ ومسعود، لم يفت لطيفة أيضاً، وقد صار زوجها في وضع ماديّ أفضل من أخيه الأكبر. ولكنه أسكتها بحزم قبل أن تتم عبارتها الأولى: «عمرك ما تدخلي بيني وبين إخوتي. فاهمة؟».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

كان من طبع الإخوة أن يتكاتموا على أي أمر هامّ، حتى يتيقنوا من تحققه، فيحين وقت إعلانه.

حين أفضى عليّ لأخويه بمشروع الخطبة والزواج الذي توافق عليه مع سلمى، كانت ردة فعل أبو صالح الأولى استنكاره جرأة بنات هذه الأيام، لا سيما بنات العائلات والمدن. كيف لفتاة أن ترتّب هذا مع شاب أولاً، على أن تفاتح أهلها به بعد ذلك، فإذا حصلت على موافقتهم أرسلت إلى صاحبها تؤذنه بالقدوم مع أهله؟!

لهذا فهو لا يفكر بأن يسمح لابنته عائشة أن تدرس أكثر من الإعدادي! ما الذي حدث للناس، بعد أن كانت البنت إذا ذكر أمامها الزواج أطرقت برأسها واحمرّ وجهها حياءً. ضحك مسعود وقال مداعباً:

- لونها بصير زي الدم من ولعة قلبها يا خوي يا أبو صالح.

ثم عدل إلى نبرة أكثر جِدًّا:

- البشر همه البشر يا أبو صالح.. بس ناس بتخبّي وناس بتعبّر.. الفرق في العادات والتقاليد وعيون الناس. بنت أكرم السويدي اللي درست في الجامعة الأمريكية مش خضرة الشيخ يونس الله يورينا وجهها على خير.

استغرب أبو صالح وعليّ معاً من المقارنة، فأكمل مسعود:

- انتوا ما كنتوا تلاحظوا.. لما كان العبد الله يرحمه يلفي علينا كان وجهها يصير أحمر مثل الدم وتصير ترجف زي العصفور، وتدوِّر على خرقة نظيفة تحطها على رأسها! في الأخير، المهم الأخلاق والبُعد عن العيبة. وبنت دار السويدي مربّية وبنت حسب ونسب.. والدنيا بتتغير يا خوي يا أبو صالح.

قال العبارة الأخيرة وهو يرسل نظرة إلى عليّ. فهو كذلك ليس الفتى القديم الذي كان أشد حياءً من الفتاة. وهو شريك سلمى السويدي في ذلك التوافق الذي لا بد أن يكون وراءه حب. واستأنف قائلاً:

- بعدين بصراحة هذا شي نفتخر فيه. شو كنّا بالنسبة لدار السويدي أيام البلاد.. والآن صار ممكن تناسب زعيم ابن زعما. والسبب اللّي حققه أخونا واللي رايح يحققه بإذن الله..

وضرب على كتف عليّ اعتزازاً وتحبباً.. ثم استدرك:

- وبالطبع سمعة أخونا أبو صالح من أيام الثورة لما كان أبو أكرم وابنه المرحوم يوخذوا منه أوامر.

أطلق أبو صالح تنهيدة عميقة. واستأنف مسعود:

- بعدين، انتو عارفين شو صار أبو أكرم بعد ما انتقل لعمّان مع إخوته.. قصور وأراضي ومصالح كبيرة.. وما عنده غير بنت ابنه.. يعني..

تدخل عليّ مقاطعاً مستنكراً:

- الموضوع عندي مش موضوع مصاري ودور وإرث يا أبو حسين.

مالَ عليه مسعود، وقال مداعباً:

- يعني انت هسّع بدّك تعمل لي مثاليات وأنا بحاول أقنع أخوك الكبير؟ غطرش واسكت. بلاش يا سيدي. مش موضوع مصاري.. موضوع حب وبس! مليح هيك؟

لم يتحرر عليّ حقاً من طبيعته المجبولة على الحياء، وقد أحرجه كلام أخيه وتلوّن وجهه.

فليكن.. ولكن كلام مسعود عن ثروة «أبو أكرم»، زادت أبو صالح قلقاً، وتردداً. فأين هم من وضع «أبو أكرم» السويدي، حتى مع إنجازات عليّ ووعود مستقبله الزاهر. أبناء مخيم. وماذا عن اختلاف العادات والتقاليد والبيئة والأصول؟ وماذا عن متطلبات الزواج من فتاة من أسرة شديدة الثراء؟

تولّى مسعود الشرح نيابةً عن عليّ، على وفق ما أسرّ له به أخوه قبل عرض الموضوع على أخيهما الأكبر. هؤلاء الكبراء لا يطلبون مهراً لابنتهم، ويتكلفون نفقات عرسها. ثم إن الزواج الفعليّ سيكون مع سفر عليّ مع سلمى إلى الولايات المتحدة، والمنحة سخيّة تكفي الحاجة، حتى يحصل عليّ على درجة الدكتوراه التي تفتح له أبواب الرفعة والرزق. وعلى أي حال، فكل شيء مرهون بموافقة أبو أكرم التي ستعمل سلمى على الحصول عليها بكل ما تملك من طاقة، فإذا امتنع بعد ذلك، فهو أمر الله، ويمضي كلٌّ في طريقه، ولن تذهب نفس عليّ حسرات!

جلس أبو أكرم يقرأ بصوت مسموع نصّ التهنئة التي أصرّ مسعود على نشرها في الجريدة، بمناسبة حصول أخيه على الشهادة الجامعية، بتقدير امتياز، ولم يفته أن يذكر في النص حصوله على منحة للحصول على الماجستير والدكتوراه من جامعة برنستون تقديراً لتفوقه. كان يريد أن يعلن ذلك للناس جميعاً على الرغم من اعتراضات عليّ.

رفع أبو أكرم راسه عن الصحيفة، ووضع نظارته جانباً وقال:

- والله شي برفع الراس. مش بس راس هالشب وأهله، لكن روس الفلسطينيين كلهم. هذا مَثَل للجميع عن شعبنا.. عصامي ابن فلاحين بسطا، وابن مخيم.. والآن برنستون ما شاء الله.. وما أدراك ما برنستون..

كانت سلمى تستمع إلى جدّها بابتسامة عريضة. وتساءلت الأم هدى:

- طيب كل هالنجاح، وبعدهم أهله في المخيم؟

ردّ أبو أكرم:

- المخيم ما بنقّص منهم.. ومين همه أهل المخيمات؟ مش منا وفينا؟ مش كلنا من يوم النكبة بنبيع وبنشتري باسمهم؟ مش همه عنوان النكبة؟ لما بنحكي عن التهجير بنجمع حالنا معهم.. ولما بنحكي عن العودة بنجمع حالنا معهم.. بس لما بنحكي عن المقامات بنصير إشي وهمه إشي. والله لما شفته في حفل التخريج بيلقي كلمة الخريجين شعرت بالفخر.. علم وأدب، ما شاء الله.

شعرت هدى بالحرج، فقالت:

- أنا ما قصدت أقلّل من حدا.

ثم استرسل أبو أكرم في الحديث عن ذكريات ثورة الثلاثينيات، ودور أبو صالح فيها. وأعاد للمرة المائة التذكير ببيان أبو صالح في نعي الشهيد أكرم، حين كان إعلانه يفرق بين وصمة العار وبين وسام الشرف والوطنية. وزاد بأنه في ذلك

الحين، إذ كان قاضي صلح في حيفا، صار الكثير من قضايا الخلاف يذهب إلى قادة الثورة، ومنهم أبو صالح ليحكموا فيها بدلاً من المحاكم الرسمية التابعة للانتداب، يُعِينهم في ذلك محامون ومتعلمون من الحركة الوطنية في المدن. والآن نسي الكثيرون تلك الأيام وأبطالها الحقيقيين.

همّت هدى أن تدافع عن نفسها من جديد، وقد رأت حماسه وقوة مشاعره، ولكن ابنتها سلمى سبقتها بالكلام المفاجئ:

- ينصر دينك يا جدّو. هذا هو الحكي.. أنا كنت عارفة إنه هيك راح يكون موقفك من علي..

وشى كلامها ونبرة صوتها بمعنى ذاتي غير الذي ذهب إليه جدّها في كلامه، فاتجه بصره وبصر أمها هدى إليها، ولم تتأخر في الإفصاح والمكاشفة.

أطلقت أمها شهقة غلبت عليها، وأسرعت إلى غرفتها، ولحقت بها سلمى، بينما أطرق أبو أكرم وقد اعتراه الوجوم. وحين عادت إليه سلمى، وقفت أمامه تنظر إليه وتترقب ردّة فعله. وبعد هنيهة صمت، قال بصوت متردد اختفى منه حماسة السابق:

- إنت جادّة يا سلمى في اللي قلتيه؟

- بشوف وجهك تغيّر يا جدّو؟

- فاجأتينا؟

- مفاجأة سيئة؟

تلفت يميناً وشمالاً بحيرة ظاهرة، كأنه يبحث عن الكلمات والمسوّغات المناسبة، فلم يجد غير فرق العمر. قالت:

- أنا ما بناسبني غير الشاب الناضج.

عاد إلى الصمت والإطراق. وكان عليها أن تواجهه الآن بالكلام الصريح:

- يا جدّو.. انت مش شاغلك فرق العمر.. رغم كل الكلام الحلو الرائع اللي حكيته قبل شويّ عن علي وأخوه واللاجئين، ما كنتش تتصور بلحظة إنه راح يلزمك بموقف عملي.. لما صار الاختبار الفعلي، طار كلّه..

هزت رأسها بأسف:

- أنا متأسفة.. متأسفة فعلاً.

ثم مشت لتخرج من الصالة، وقبل أن تغيب، سمعت صوت جدّها يناديها. توقفت والتفتت نحوه:

- خلّي إمك عليّ.. أنا بعرف كيف أقنعها.

ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، وهرولت إليه واحتضنته بحرارة.

لم تكن مهمة أبو أكرم في إقناع هدى سهلة. وذكّرها بأن العلم يضيِّق الفروق، وأن معظم الناس من أصول ريفية، وهؤلاء الآن يُقبِلون على التعليم، ربما أكثر من غيرهم، لأنه سبيلهم الأهم، وربما الوحيد، للتقدم. والدنيا بدأت تتغير، وصار الكثيرون من العائلات المدنية يزوِّجون بناتهم لمتعلمين من أصل ريفي. فإن لم

يفعلوا قلت فرص بناتهم للزواج. وهذا الشاب أمامه مستقبل زاهر، ومثله تتخطفه الجامعات والمؤسسات الأمريكية.

أذعنت هدى على مضض أمام إصرار ابنتها وموافقة الجدّ. ولكنها ألحت على أن تكون مناسبة الخطبة وعقد القران عائلية ضيّقة، حتى لا تكون على عادات الفلاحين إذ يتدفق الناس بالطبل والمزمار والزغاريد والأغاني الريفية والدبكات والتلويح بالمناديل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

صاحت أم أحمد في وجه مسعود الذي تولّى الترتيبات والتعليمات:

- ليش يا خوي.. لا غنا ولا زغاريت ولا ناس غُرَبا.. همّه شرطوا عليكم؟

أجاب مسعود:

- يمّه، هذي بس جاهة وعقد قران.. والجماعة عاداتهم غير عاداتنا وحالهم غير حالنا.

- وليش يناسبونا إذا بدهم يستحوا فينا؟ والله كل واحد كبير بحاله. وابنّا مش قليل.. وأنا بدّي أزغرت وأرقص وأغني.. عاد إذا مستحيين فيّه روحوا لحالكم، الله يسهّل عليكم.

تدخّل عليّ:

- له يمّه.. انت الخير والبركة وتاج روسنا.

- قول لأخوك.

قال مسعود:

- وأنا شو قلت؟ يا ستّي انت أمّه، غني وارقصي، بس ما فيه داعي نلم الناس معنا.. بس العيلة.

تدخلت لطيفة:

- ودار أبوي وإخوتي وقرايبي يا مسعود؟ حاسبهم من العيلة والا لع؟

رد مسعود:

- مش القصد.. بس ما بدنا بكره يدشع مية مرة وولد.. هاذ بركض، وهاذ نازلة خنانته، وهذي بتصيّح على ابنها.. وهذا الولد بزق الناس تايوصل للحلو. يا جماعة مش حلوة إلنا..

قالت أم أحمد:

- وهالناس اللي طول عمرها واقفة معنا بالمليحة والعاطلة؟ هسّع لما بدينا نتنفس شويّة بدنا نشوف حالنا عليهم؟ ما بنسى ناسه إلا قليل الأصل. بعدين إحنا بدنا نعزم كل أهل المخيم؟ يعني أصحابنا وجيرانا اللي عمرهم ما قصّروا معنا.

قال مسعود:

- هيك صار بدنا باص.

قالت لطيفة:

- باص والا اثنين.. واللي قالته مرة عمي كلّه مزبوط.. خليهم يكونوا شو ما يكونوا. بشوفوا حالهم على حالهم. أنا أبوي وأبو أكرم كانوا صحاب أيام البلاد. هسّع بدّه يكبر عليه.. بس ناس خلت كل شي وراءها، وناس طلعت معها مصاري، وكان إلها مصالح ثانية..

وقالت أم أحمد أخيراً:

- يمّه الفرح مع الناس بزيد، والترح مع الناس بقل..

وختمت لطيفة بالقول:

- ينعل أبو اللي أحسن منا!

لم يملك مسعود إلا أن ينفخ ويستسلم.

كان الترتيب أن يخرج أبو صالح وعليّ في سيارة مستأجرة، ويلحق بهم الآخرون في حافلة متوسطة الحجم.

واعتذر صلاح ورشدي عن الخروج. ولما سألهما مسعود عن السبب أجاب صلاح متهكماً:

- ومين بدّه يحرس السرايا تبعتنا من الحرامية في غياب الجميع؟

أما رشدي فكان من النوع الذي يفضِّل الوحدة وينفر من التجمعات الكبيرة والضجيج. وأما صلاح فيرى نفسه أهم من أن يضيع في الزحمة، وهو الذي يمتلئ راسه بالأسماء والأفكار العظيمة التي التقطها من قراءاته في الترجمات: الوجودية والماركسية والواقعية الاشتراكية والرومانسية والكلاسيكية والسيريالية والعدمية، ولوركا وبابلو نيرودا وناظم حكمت وإيلوار و ت.إس. إليوت... كل هذه وهؤلاء وغيرها وغيرهم يطيرون به إلى أجمل البحار التي لم يذهب إليها بعد، وأجمل الأطفال الذين لم يكبروا بعد، وأجمل النساء اللواتي لم يرهنّ بعد، وأجمل الأيام التي ما زالت تنتظر الحالمين المبدعين!! فما شأنه بأولئك الناس الذين لن يشعروا بوجوده، وإن تنبهوا له لم يزيدوا على السؤال عن اسمه وعمره وصفّه وخياره بين العلمي والأدبي، وما يحب أن يكون في المستقبل. وأسوأ من ذلك أن يذكر أحد الحضور أنه يقول الشعر! فيطلب منه أن يُسمِعهم من شعره في زحمة الأصوات والثرثرة، فيبدو مثل طفل صغير يطلب منه أهله أن يلقي أنشودة أمام الحاضرين! وإذا اضطر إلى ذلك لم يلبث السامعون أن ينصرفوا بأسماعهم عنه، وقد يهمس أحدهم متضجراً أو مستصغراً: «آه.. شعر حديث».

لا مكان له بين أولئك الناس الذين لا يفهمون من «الوجودية» إلا الانفلات و«قلة الحيا» والإلحاد. فليبقَ في صحبة سارتر وكامي وكولن ولسون ولوركا وإيلوار وسائر الذين قرأ بعض ترجماتهم!

وعلى كل حال، لم يلح مسعود على رشدي وصلاح بالخروج مع سائر العائلة. فكلما كان العدد أقل، كان ذلك أفضل. وها هو البيت يعجّ بالحركة والضجيج ونداءات التعجل استعداداً للخروج إلى الحافلة التي تنتظر. وكان أكثرهم حماساً أصغرهم سناً: محمود، الذي رُزق به أبو صالح وفتحية قبل خمس سنوات، وحسين ابن مسعود ولطيفة الذي يَقارب محمود في السن: ثياب جديدة، وسفر إلى عمّان، وضجة الاحتفال، وما تعد به الأفراح من الأطايب!

ومسعود يستحث الجميع على التعجل، ولطيفة تعترض:

- كل شغلكم عجق بعجق.

وعائشة تتراكض فتدوس على طرف حذائه اللامع، فيصيح بها:

- ولك الكندرة.

وأخيرا وصلوا الحافلة، وكان في انتظارهم ما لم يكن في الحسبان: نساء وأطفال يملؤون الحافلة وآخرون يتزاحمون للصعود. وجُلهم لم يُدعَ إلى المناسبة. نظر مسعود إلى أمّه وفتحية ولطيفة متسائلاً. وقالت أم أحمد:

- أنا ما عزمتش حدّ غير اللي انت عارفهم.

اتجه بنظره إلى لطيفة:

- أنا لا قمت ولا حطيت. تقعدش تطلع عصبيتك عليّ، وإلا والله برجع وما بدّي كل هالطلعة.

نفخ بضيق شديد:

- انفضحنا واسودّت وجوهنا قدام أهل عمّان.

ثم صعد باب الباص وصاح بمن فيه:

- اللي ما انعزم ينزل لو سمحتو.. يالّلا يا حريم.. بلاش أغلط.. كلكم عالعين والراس.. بس الوضع ما بسمح..

قبل أن يكمل، انطلقت امرأة بالغناء لمسعود على الطريقة المعروفة بـ «المهاهاة» والتي تنتهي بزغرودة جماعية:

هيه يا أبو حسين، يا جار المجاورني

هيه ويا جار الرضا وما انت جار خوّاني

هيه وما انت طلّال على أبواب جاراتك

هيه ولا يوم تركتني إلا رفعت الضيم عنّي

وأقفلت الأخريات معها بزغرودة جماعية، وأعقبت أخرى فوراً:

هيه يا أبو حسين يا برجنا العالي سكنت حْداك

هيه ويا كل ما هب الهوا يفتح نداك

هيه ويا انا اتمنيت من الله يقلّ اعداك

هيه ويصبر عليك زمانك تاتنول مناك.

في لحظة واحدة ذهب عن مسعود الغضب كلّه، وتحوّلت مشاعره إلى الحرج والحياء.. بل الخجل من نفسه! هؤلاء ناس يبحثون عن واحة فرح وسط صحراء البؤس والشقاء. وكما يعتبرون أي مجلس عزاء مجلسهم، يرون مناسبات الفرح لهم جميعاً، فلا ينتظرون دعوة خاصة إليها. عائلة واحدة كبيرة تتقاسم الأفراح والأتراح والحنين والذكرى وحلم العودة، تتزاحم بيوتهم فلا تحتجب أسرارهم وأنّاتهم وشتائمهم ودعواتهم بالخير أو الشر!

فليتزاحموا الآن في الحافلة، وليكن ما يكون. فلن يكسر قلب أحد في يوم فرح أخيه. ولأول مرة، يجد نفسه يردّد عبارة لطيفة:

- ملعون أبو اللي أحسن منّا.

بين طولكرم وعمان لم يتوقف الغناء، يتقلب من نوع إلى نوع، ومن نغمة إلى نغمة:

وين دار الوزارة

وين دار الوزير
وين دار أبو أكرم
مفروشة حرير
وين دار الوزارة
وين دار الزُّباط
وين دار أبو أكرم
مصفوفة بلاط

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هالليلة وأخرى ليلة يا حبايب
روّح جَمَل العيلة، بقى غايب
هالليلة وأخرى ليلة يا بنت العم
روّح جمل العيلة كِن راح الهمّ
هالليلة وأخرى ليلة يا جيراني
روّح جمل العيلة على اوطاني

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

روح شوف الترويحة يا حبّابه
علي أخذ مليحة يا حبّابه
روح سوق البندورة يا حبّابه
علي أخذ غندورة يا حبّابه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يا رايحين ع حلب واصفوا لي نيتكم
حلفتكم بالله ومنين مَيّتكم
مَيِّتنا عين الليمون، شرب الحيفاوية

في هذه الأثناء، وإذ كانت الحافلة تقطع الطريق، والغناء يتتابع دون توقف، اتكأ مسعود برأسه على نافذة الحافلة، والجبال والوديان والأشجار تمضي مدبرة يتلو بعضها بعضاً، كما تدبر الأيام، ولا يبقى منها إلا الذكريات.. مناسبة فرح وذكريات مُرّة! فما هي حتى تلاشت أصوات الغناء الراهنة على صخبها، وطغت عليها أصوات الذاكرة، هو وسعيد وعايد في الرحلة إلى الكويت، يغنون الميجنا والعتابا وجفرة وزريف الطول والمُعَنّى في تلك الشاحنة المهترئة، تسبقها أحلامهم بالرزق والخلاص من أيام الفقر والشقاء. وقد وصل مسعود وعايد أخيراً إلى الكويت على الرغم من غدر الصحراء والليل، وتوقف الزمن عند سعيد، وودّع الحياة وهو يغنّي عن «زهر البنفسج البعيد في ربيع بلادنا»، بينما كانت الصحراء القاحلة تحيط به من كل جانب، في طريق الغربة والتيه، حتى دعته أخيراً إلى نفسها. والآن على

مسعود أن يُخرِج نفسه من تيه الذكرى المؤلمة، وما دهمه من الوجوم والشرود، ليعود إلى أجواءِ الفرح والغناء الذي تضج به الحافلة.

كانت سلمى تتزيّن أمام المرآة، وإلى جانبها أمها هدى، حين انفجرت أصوات الزغاريد والدفوف أمام البيت الفخم في جبل عمان.

لطمت هدى على خدّيها.. ذلك ما كانت تخشاه.

وجاء صوت «المهاهاة» من الخارج:

هيه ويا افتحوا باب لدار

هيه ويا خلّوا المغنيات تغنّي

هيه ويا أنا طلبت من الله

هيه وما خيّب الله ظنّي

وانفلتت ضحكة من سلمى زادت أمها غيظاً. وعلقت سلمى:

- وإيش يعني؟ أكم مرة دفعنا مصاري منشان نحضر حفلات فولكلور شعبية لأعمال خيرية؟ هلّا لما أجا الإشي الحقيقي صار فضيحة؟!

وما هي حتى انتقل ضجيج الاحتفال إلى صالة البيت الواسعة التي امتلأت بالحضور:

واحنا جينا عزومة يا أم الخاتم

ع صيت أبو أكرم في المحاكم

واحنا جينا عزومة يا أم اسوارة

ع صيت أبو أكرم في الوزارة

ومنها إلى «الدلعونة»:

على دلعونا على دلعونا

الهوا الشمالي غيّر اللونا

مرّت في الحارة تمشي وتزومي

يظهر ع دار الفرح معزومه

الكبرة يا عالم ما إلها لزومي

ما أحلى التواضع للي يحبّونا

لم تَدْرِ قريبات أبو أكرم الحاضرات إذا كان المقطع الأخير مقصوداً، فقد وقع في نفوسهنّ موقعاً خاصاً. إذ كنّ يجلسن بكامل أناقتهن وزينتهنّ وحليّهنّ البرّاقة يراقبن الزفة الصاخبة في الصالة، وفوضى الاحتفال العاصف.. والجميل على الرغم من كل شيء، جمال الأرض التي أنبتته مع زهورها البريّة وروائحها البدائية الطازجة. لقد حرّك شيئاً فيهنّ، ولكن ما كان ليحركهن مع موجاته العاتية، أكثر من الاهتزاز له قليلاً، وربما بعض التصفيق المتحفظ مع إيقاعه، حتى برزت أخيراً سلمى مع أمها، فانطلقت زغاريد الاحتفاء بالعروس مع «المهاهاة»:

هيه وجهك قمر يا عروس

هيه من وروده الغنيّة

هيه وانت قمر يا عروس

هيه وأهلك الأفنديّة

وردّت امرأة ثانية:

هيه ويا حوطتك بالله

هيه وبالثانية ثنتين

هيه وبالثالثة خرزة زرقا

هيه وبالرابعة تردّ العين..

ومع الزغاريد، أقبلت أم أحمد عليها:

- تعالي أحبك يا حبيبتي.

وقبّلتها على خدها بضع قبلات متوالية قوية سُمِع صوتها، بينما وقفت لطيفة وفتحية تتفحصانها بنظرات سابرة. وإذ تراجعت أم أحمد كانت دموعها تسيل على خديها، فتلقتها أم محمود:

- شو هاذ يا أم أحمد؟ هذا فرح الغالي.

مسحت أم أحمد دموعها. وكانت مناسبة الفرح قد ذكّرتها بمن حكم القدر بغيابه: حسن... وأبو أحمد.. وخضرة. لكأن فرحة اليوم تذكّر بحسرات الأمس.

في الصالة الأخرى حيث يجلس الرجال، وفيهم أحمد وعليّ ومسعود، وعدد قليل من أقارب أبو أكرم وأصحابه المقربين، أسهب أبو أكرم في استذكار بطولات أبو صالح ودوره القيادي في ثورة الثلاثينيات، وكيف كان يحكم ويرسم، ويأتيه أصحاب الطرابيش والأفندية. وتحدث عن عليّ وتفوقه على كل طلبة فلسطين في الكلية العربية التي لم تكن تستقبل غير النخبة، ثم تلا ذلك بالحديث عن نبوغه في الجامعة الأمريكية حتى صار فيها حديث الأساتذة والطلبة، وحصل على منحة للحصول على الماجستير والدكتوراه في واحدة من أعظم الجامعات الأمريكية. ولم يفت عليّ ومسعود معاً أن يدركا أن كل ذلك الإسهاب في الثناء والتعظيم لم يكن بريئاً تماماً من غرض تسويغ المصاهرة مع عائلة ريفية انتهى بها الحال إلى المخيّم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«يخلف عليكم كثّر الله خيركم

ولا عجبنا من نسايب غيركم».

كانت عائشة تشطف وتدندن بذلك الزجل الذي تخلّف على لسانها من المناسبة بأسلوب متظرّف. وفي الوقت نفسه كانت فتحية ولطيفة تجلسان معاً في تقارب غير مألوف، تتعاونان في تقميع كومة من البامية، وتتبادلان التعليق على سلمى، إذ قالت فتحية:

- هيه مش بطّالة. بس لو انها طويلة شوية.

زادت لطيفة:

- وهاذ مع الكعب العالي. عليم الله كان شبر تحت رجلها.

أردفت فتحية:

- وتقاطيعها مش عاطلة، بس لو كان ثمها أصغر شوية.

- ثمها أصغر شوية؟! خوف الله قد هالصحن.

- الزواق بعمل.

- قد ما بدّه يعمل يا ختي يعني بدّه يصغّر الثم؟ والا أقول لك! والله الحلو حلو بزواق والا بدون ازواق، واللي ما عنده ما بنفعه كل الزواق اللي في الدنيا. شفتي عينيها كيف قايلات؟

- همّه صغار شوية.

- بس صغار؟ وشُقُل يا أم صالح.. بس انتِ ما دققتِ..

- قصدك تطليعتها..

- أي والله لما تطلع على حدّ، عينيها تقول هيك.

وشخصت لطيفة المعنى المقصود بحركة عينيها على نحو مبالغ فيه.

وتابعت:

- أي زيحي غاد.. والله إيش ما قالوا، أنا ياختي ما شفتها شلبيّة.

- بس متعلمة.

- وشو بدّه يعمل التعليم للمرة؟ يعني بدّه يحلّيها، والا بدّه يخلّيها معدّلة؟ هه.. ظلوا يصوتوا فيها ويوصفوا لحتى شفناها. ساعتها عرفت ليش أعطوهم وهمه المسعدين. هاذ خافوا لا تبور البنت.. قال لو فيها خير ما رماها الطير!

هنا سُمِع صوت أم أحمد تصيح بهما مؤنبة، وقد سمعت طرفاً من الكلام.

- طب استحين وبطلن هالخراف الفاضي.. الغيرة حارقة قلوبكن.

بينما بدا الحرج الشديد على وجه فتحية، علقت لطيفة:

- آه، ما هي عروس الغالي.

ردت أم أحمد:

- مين بتفرّق بين أولادها؟

لم ترتدع لطيفة:

- ما هوه المتعلم أبو الشهادات. حسرتي على اللي راحت عليه.

نهرتها أم أحمد:

- طب اسكتي وضبي لسانك.

ثم تحولت إلى فتحية:

- وانت من وينتا صرتِ تلفّي عليها وتحطّي راسك براسها؟

أطرقت فتحية وقد تملّكها الخجل، وعلقت لطيفة من جديد:

- اللي شاف جديده نسي قديمه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أبناء مخيم..

وأبناء «وطنية»!

(عواصف وعواطف)

1

١٩٦٢

وقف الناس ينظرون إلى اثنين من الشرطة يقودان عطية مكبَّلا عبر أزقة المخيم، تلاحقهم أم عطيّة. وعلى غير المعهود من الأم في مثل هذا الموقف لم تكن تتوسّل لإطلاق ولدها أو حتى الرفق به، بل كانت تدقه بقبضتها وتصفعه من خلفه وتصيح به:

- الله يسوّد وجهك زي ما سوّدت وجوهنا.

حال أحد الشرطيين بينها وبينه.

ولم يكن هذا بالأمر الجديد، فمشكلات عطية مع القانون والشرطة لا تنتهي، بين السرقة والمشاجرات العنيفة والتهديد بالسكين، حتى صار المشتبه به الأول في حوادث خلع أقفال الدكاكين في الليل ونهب ما فيها. ومثل هذه الحوادث قليلة في طولكرم على كل حال. وأصحاب السوابق كذلك. فإذا بلَّغ أحدهم عن حادثة منها، كان أول من يؤتى به عطيّة، ولم يكن يُسلّم للشرطة بسهولة حتى يدخل معهم في عراك شديد يستعينون فيه عليه بالعصي الغليظة.. والكثرة! فقد كان الفتى قويّ البنية، شديد الجرأة، لا يبالي ما يمكن أن يصيبه من العراك أو ما يترتب عليه من العواقب. أما في التحقيق فلم يكن يرهق الشرطة بالمراوغة والإنكار. فإن كان هو الفاعل حقاً فلا يتأخر في الاعتراف. وليس ذلك ليتجنب الضرب والصفع والركل الذي يصحب التحقيق في العادة، ولكن ذلك ببساطة لأنه لا يأبه بالتهمة ولا بالوصمة التي انطبعت عليه، كما أنه لا يخشى السجن الذي يوفر له الطعام والشراب. وحسبه أن يخافه أقرانه، وألا يجرؤ أحد على مواجهته.

وبقدر ما كان أهل المخيم ينكرون أفعاله الشنيعة، فقد كانوا يتعاطفون مع أبويه المعروفين بالشهامة والنخوة. فهما أول من يصل لنجدة الناس في الملمات، وآخر من يصل في دعوات الطعام، على ما هم عليه من الفقر والقلّة. وكان الناس ينسبون ذلك إلى أصولهم البدوية التي جاؤوا منها في وادي الحوارث، ويعرفونهم بالبلاونة، ولا يعلم معظمهم أن أصل التسمية يعود إلى اسم قديم لقبيلة عربية عريقة كبيرة هي قبيلة «بليّ» التي حافظت على اسمها أو ما يقاربه منذ ما قبل الإسلام، وتنتشر في بلاد عربية مختلفة، ولكن مواطن أغلبهم ما تزال في شمال الجزيرة العربية.

أي بلاء رمى هذين الأبوين المحترمين بهذا الولد «الأزعر»؟ لقد أخذ منهما الشجاعة والصلابة وقوة العزيمة، ولكنه بخلافهما استعملها في أعمال الباطل. ولم تكن أم عطية أقل صلابة ونخوة من زوجها، حتى شبّهها البعض بالرجال. ولطالما شكت أعمال ولدها لأم أحمد التي كانت تنهاها عن الدعاء عليه، وتحثها على الدعاء له، لعل الله أن يهديه إلى طريق الصواب ويُصلح بال أبويه به أخيراً.

وكان صلاح ممن شهدوا القبض عليه هذه المرة. ولأمر ما لم يستطع أن يدفع شعوراً غامضاً بالإعجاب إذ رآه يمشي مكبَّلا بين الشرطيين منتصب القامة، ينضح قوةً واعتداداً، كأنه يتحدّى العالم، ولسان حاله «يا جبل ما يهزّك ريح». وما هي حتى اشتغل خياله الأدبيّ ليحوّله أولاً إلى ضحية، ثم إلى بطل! وتقدمت صفات

الشجاعة والقوة على وصمة اللصوصية والعنف. الظروف الجائرة هي السبب. وهذه ردة فعل وصرخة في وجه العالم الجائر. وقد يكون الدواء من نوع الداء! ما لصٌّ يسرق بعض مواد البقالة وبعض القروش ليستمتع ببعض ما يستمتع به أبناء جيله الأحسن حظاً: الذهاب إلى السينما، وشطيرة الفلافل والسجائر، والبنطال المصنوع من قماش جيّد، والقميص ذي الياقة المقساة، والحذاء اللامع، وحلوى الكنافة.. ما هذا اللص من أولئك الأفندية ذوي البذلات الفاخرة وربطات العنق المخططة والساعات الذهبية اللون، أصحاب المناصب والنفوذ والألقاب الذين يسرقون أموال البلد بالألوف، ثم لا يَلْقَون غير التقدير والتبجيل والاحترام؟ لقد شاهد صلاح بعض الأفلام وقرأ بعض الروايات التي تدور حول موضوعات من هذا النوع، وقد غذت الآن خياله النَّشِط في صنع صورة مغايرة لعطية الذي كان في مثل سنّه، إلا أنه ترك المدرسة مبكراً، بينما وصل صلاح الآن إلى السنة الثانوية الأخيرة، ومن بعدها ستكون الجامعة، وكلية الطب.. والقاهرة، كما تعهّد عمه مسعود الذي ما زالت أوضاعه المادية تزداد تحسناً في الكويت، حتى تجاوز حال المستور إلى حال الميسور.

قالت أم أحمد، حين بلغها خبر عطية:

- الله يعينك يا أم عطية.. الولاد يا برفعوا راس أهلهم يا بكسروه. الحمد لله اللي أولادتنا وأولاد أولادتنا عمرهم ما عملوا الغلط.

قال صلاح مداعباً:

- شو عرّفك يا ستّي.. بجوز أنا بعمل من وراءكم السبعة وذمّتها.

صاحت به جدته بروح الدعابة نفسها:

- طب قوم من قدّامي، وإلا على راسك بهالمكنسة.

ضحك. وضحكت فتحية. واسترسل صلاح وقد دخل في مزاج «الكوميديا»:

- قولي لي يا ستّي.. بقيتِ حلوة بزمانك؟

- ولك يا اللي ما بتستحي.

- وأنا شو قلت؟ يعني الحلاوة عيب؟

- آ آخ على ولاد هالأيام.

واسترسلت في المقارنة بين الأجيال. فمن كان يمكن أن يُخاطَبَ الكبار بهذه الطريقة. وعلّق صلاح:

- هاه؟ عرفت ليش زعلتِ. لأني قلت «بزمناتك».. يعني راحت أيام الحلاوة والغندرة.

التفتت أم أحمد إلى فتحية التي كان تضحك:

- يعني عاجبك خرّاف ابنك.

ثم ارتدت بنظرها إليه:

- ولك أنا ستك الختيارة.. استحي على دمّك.

لم يكن في نبرة صوتها ما يوحي بالاحتجاج الحقيقي، بل إنها كانت تغالب ضحكتها، وتضع طرف الخرقة على فمها. وتابع صلاح:

- طيب احكي لي بصراحة، كيف تعرفت على سيدي، الله يرحمه؟ تلاقيتوا في السينما والا في منتزه؟ تمشيتوا مع بعض وأكلتوا ترمس؟ وشو قال لك حتى فتل عقلك؟

غلبها الضحك:

- ولك يا أزعر.. سينما وكزدرة في الفِلِح؟

هنا دخل صلاح في جو الأفلام المصرية:

- ليه، هوّه انتو فلاحين؟ يعني علشان كان لكم عزبة في الريف تبقوا فلاحين؟ وأنتم بشوات. بس قولي لي.. أبوك الباشا وافق عالجوازة من أول مرة والا قال لك: الجوازة دي مش حَتِمّ يعني مش حَتِم. وبعدين حصلت حاجات، وقام باشا ثاني شرير تآمر على أبوك وكان حيخرّب بيته. ومين اللّي أنقذه وكشف المؤامرة؟ آه.. جدّو المكافح الشهم. قام أبوك لما عرف الحقيقة راح عند جدّو وقاله له: سامحني يا ابني يا صالح.. أنا غلطت بحقك. بعد كده تجوزتم، رغم كل العوائق والتحديات والفروق، وعشتم في سبات ونبات، وخلفتم صبيان وبنات.. وبعد سنين جالكم حفيد اسمه صلاح.. ده يبقى أنا.. جمع المجد من أطرافه، وأهو عايش في أحسن مخيم في الدنيا كلّها! النهاية.

كادت أم أحمد وفتحية أن تتكفئا من الضحك. وعلقت فتحية:

- هاد اللي طلعت فيه من السينما؟

ردّ صلاح:

- وهوّه فيه في السينما غير ده يا ماما؟ يا أحسن ماما في الدنيا انت.

مضى خارجاً وهو يقول:

- أروح بقى أشوف مستقبلي.

لم يكن في الجيل الجديد من الأسرة من يتمتع بذلك الخيال الخصب وتلك الجرأة المتمردة، غير صلاح، فيتقلب بخياله وتفرّده وذكائه المتوقد بين السخرية من كل شيء، وبين الجدّ والقلق، والتحدّي والغضب، والاعتداد بالنفس، والاكتئاب أحياناً. يحمله خياله وكتبه إلى المدن البعيدة حيث تحدث الأشياء الكبيرة، وتتولّد الأسئلة العظيمة، ومعها نوابغ الفكر والآداب والعلوم الذين يقرأ لهم. ثم يصحو على نفسه في هذه المدينة الحدودية الصغيرة، وهذا المخيم الكئيب. ويراهما أضيق من خياله وطموحه ومواهبه.

لم يكن ابن عمته رشدي، وأخوه الأكبر صالح، يشبهانه في شيء. أما صالح فقد توقف عن الدراسة منذ عامين ووافق أبوه على مضض. وامتهن الحلاقة حتى برع فيها، واستطاع بمساعدة عمّه مسعود أن يفتتح محلاً خاصاً به بالقرب من المخيم.

أما رشدي، فقد أنهى الثانوية، والتحق بمعهد تدريب المعلمين في رام الله. وكان يأتي إلى المخيم في عطلة نهاية الأسبوع، ولا يتأخر في تفقّد أم سالم المجنونة.

على الضدّ من صلاح، كان رشدي بطبيعته قليل الكلام، حتى ليبدو انطوائيا بعض الشيء. وما كان ليترك مخيلته تأخذه بعيداً عن المخيم والبلد. ولكنه يتركها تحمله عبر الحدود القاتلة التي تقطع سهل طولكرم، إلى حيث قرية أهله ومشاهدها التي تفتّح عليها وعيه في صغره، وإلى قبر أبيه الشهيد، وإلى أمه التي حجبها خط النار عنه، وكان عنده من هذا الخيال ما يشيّد به قصة ووقائع تعبر به الحدود إلى بيت أمه في أم الفحم، فيقف أمام الباب، ثم يقرعه، حتى تطلّ أمّه.. هل تميّزه لأول وهلة؟ أم تحدق فيه هنيهة قبل أن تميّزه؟ أم سيكون عليه أن يناديها «يمّه... أنا ابنك رشدي؟» وكيف ستكون ردة فعلها في تلك اللحظة بعد كل تلك السنين من الفراق القسريّ؟ تنثال الصور، وتتغير وتتقلب إذ يعيد تشكيل الرواية، مرة إثر مرّة، حتى يصبح الخيال أثقل على صدره من الواقع!

لم يكن عنده أدنى شك في ذكاء صلاح ومواهبه. وعلى الرغم من أنه لم يكن ليفصح بلسانه، فقد كان شديد الإعجاب بثقافته المبكّرة وتوقده، ولكن ذلك لم يكن ليحرره من الشعور بالضجر، وربما الضيق، حين يكون عليه أن يستمع إليه يستعرض معارفه، ويسوق أمامه وأمام أصحابه، تلك المصطلحات الفكرية والنقدية المتزاحمة، ويقرأ عليهم بعض نصوصه. ولطالما تساءل رشدي في نفسه، أهو الذي لا يفهم الكثير مما يقوله ابن خاله في تلك المجالات، أم أن ابن خاله يدّعي أكثر مما يعلم حقاً، معوَّلا على أن ما يعلمه أكثر على كل حال من علم من يستمعون إليه، فلا يَسَع أحدهم أن يعترضه أو يجادلَه؟ ومهما يكن، فأين كل هذه المدارس والفلسفات والمصطلحات القادمة من عوالم بعيدة، أينِ هي من هذا المخيم، ومن هذه البلدة الحدودية التي تنام مع غروب الشمس، وجلّ أهلها من أصول ريفية؟ ولطالما حار في الحكم على هذا. أهو تعبير عن صبوة الفعل الحيّ النشط للانفتاح على العالم والفكر على الرغم من حصار البؤس، أم هو غزو ثقافيّ للعقل بعد احتلال الأرض؟ وما شأننا نحن بالقلق الوجودي وأزمة اغتراب الفرد وضياعه في المدن الصناعية الكبرى التي تسحق إنسانيته، ونحو ذلك من الأفكار التي يسمعها من صلاح نقلاً عن قراءاته، بل يتقمّصها كذلك في بعض نصوصه التي يتلوها عليه وعلى أصحابه؟ الضياع.. الغثيان.. القلق.. الضجر.. العبث.. الاغتراب!! ما لنا نحن وهذا كلّه. فاللاجئ لا يملك ترف الانشغال بهذه القضايا، والاغتراب الوحيد الذي يعيشه هو الاغتراب عن دياره. وهل مشكلتنا في هيمنة الآلة على الإنسان أم الافتقار إلى الصناعة والآلة، وكل ما يُعمَل به مستورد من الخارج حتى الإبرة وعلبة الكبريت!!

وهل يكون العيش في تلك النصوص بديلاً عن مواجهة اللصوص الذين سرقوا الأرض والوطن والحياة وقوس قزح؟ وكيف تتجاور في العقل نفسه قصائد ت. إس إليوت اليميني المحافظ الذي ينعى فيه الأرض اليباب مع قصائد بابلو نيرودا وناظم حكمت اليساريين اللذين يبشران بعالم جديد شجاع يحطم قيود البؤساء المقهورين ويعد بفردوس الحرية والخبز والشعر والحب؟

لن ينسى رشدي ذلك الحوار الذي دار بينه وبين خاله عليّ قبل سفره إلى أمريكا منذ عامين حول هذه الأفكار والتساؤلات حين انفرد به، وأخذ ينظر في كتب صلاح الملقاة هنا وهناك في الغرفة، ثم سأله عما إذا كان مهتماً بمثل هذه القراءات. فأجاب بأنه لا يملك الوقت لها بين دراسته وعمله. ولكنه يستمع إلى صلاح يحدِّث بها ففهم أموراً منها وفاته غيرها. وكان ذلك فاتحة كلام طويل من خاله معه. عبّر فيه عن

تلك التساؤلات التي تدور في ذهنه، بما لا يستطيع هو التعبير عنها. وسرّه أن ينفتح خاله النابغة عليه، فيتحدث معه حديث القلب والعقل دون اعتبار الفرق في السنّ والثقافة. وكان لعليّ طريقة في تسهيل الصعب اكتسبها من خبرته في التعليم، وربما كذلك من تواضعه.

وبقي في ذهن رشدي من حديث خاله عدد من الأفكار التي ظلّ يراجعها في عقله. العالم يتغيّر، والحدود بين الثقافات تتلاشى.. والحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها. وها هي نخبة منا تُقبِل على الدراسة في الجامعات الأجنبية وتتزوّد من معارف الغرب وعلومه. ولكن المشكلة في أننا نأخذ ونتلقى ونستهلك أكثر مما نعطي وننتج. والنتيجة أننا نصير إلى معسكرين: أولئك الذين يدفعهم الخوف على الهوية الثقافية إلى التقوقع في ماضي الذات، وأولئك الذين يتقمصون ثقافة المتغلّب ويتنكرون لحضارتهم وتاريخهم. وكلا الموقفين تقليد: إما تقليد ماضي الذات، وإما تقليد حاضر الغير.. أما حاضر الذات فغائب. وكل من الطرفين يستمد مسوّغاته من أخطاء الآخر. وهذا حال الأمة التي لا تنتج واقعها.. حال التبعية والاستلحاق.. وبهذا يصير الصراع على الأفكار في ذاتها، بدلاً من أن توظف الأفكار في خدمة الواقع وتغييره. أما الأمة الناهضة المستقلة فتتقدم في سياق شروطها وتحدياتها، فلا تقطع مع ماضيها ولا تنقطع فيه عن حاضرها، ولا تنعزل عن العالم ولا تغترب فيه! ماذا عن فجوة الأجيال في عالم متغيّر مع التعليم، ألا تفسّر بعض هذا التضارب القائم في الأفكار والقيم؟ عليّ يرى أنها فجوة مبالَغ فيها على الأقل. إذ تجد من الشباب من هو أشدّ تمسكاً بالقديم من آبائه، وتجد نقيض ذلك. وتجد من يتجاور في عقله وسلوكه ومواقفه هذا وذاك معاً.. زمن التغيّر نعم، ولكنه زمن الحيرة والتناقضات أيضاً!

خرج رشدي من تلك المحاورة أكثر إعجاباً بخاله الذي أجاب بلغة ميسّرة وعميقة معاً، عن الكثير من التساؤلات التي كانت تدور في ذهنه. بل يستطيع القول إنه خرج منها أكثر وعياً وأوسع فهماً، بعيداً عن المصطلحات الغامضة والاستعراضات الثقافية! وهو ما فتح له باباً على الثقافة الأجنبية، وجعله أكثر ثقة بنفسه. وصار بوسعه أن يواجه صلاح بأسئلة محرجة، من حين إلى آخر. فحين سمعه يكرر الكلام عن الوجودية بأسلوب العارف المحيط، ويسخر من معلّميه الذين لا يفهمون منها إلّا الانفلات الأخلاقي، تجرّأ على السؤال:

- أنا برضه مش فاهم شو يعني «وجودي»!

ربما أراد أن يختبر مدى فهمه، وربما خالط ذلك رغبةً خفية في المناكفة والإحراج، ولكن صلاح وجد فيها فرصة لاستعراض معرفته، فتنفّج في مكانه، وتحدّث بثقة العالِم، فذكر أن الوجودية فلسفة إنسانية عظيمة تركز على حرية الإنسان ومسؤوليته معاً. كل شيء يسبق جوهره وجوده. فالغرض من الكرسي مثلاً يسبق صنعه. إلّا الإنسان، فوجوده يسبق جوهره. وهو يملك الحرية في اختيار هدفه ومعنى إنسانيته. وبهذا تجتمع الحريّة مع المسؤولية.

وإذ فرغ من هذا، بدا على وجهه تعبير الرضا عن نفسه، ورجع بجسمه إلى الخلف وأخذ نَفَساً عميقاً. ولكن رشدي فاجأه بالسؤال عن الأفكار الأخرى التي تدور حول هذه الفكرة المركزيّة.

انحسر شعور صلاح بالراحة والاعتداد بالنفس، وبدا عليه بعض الارتباك، وأخذ يحوم حول الموضوع دون أن يضيف شيئاً كثيراً، حتى قاطعه رشدي:

- يعني فكرك إذا فهمت الفكرة اللي شرحتها، بكون فاهم الوجوديّة؟

لم يجد صلاح إلا أن يغمغم:

-أممم.. تقريباً.. يعني..

- لعاد ليش كل هالكتب اللي طالعة ونازلة عن الوجودية؟ ما يحطوا هالكلمتين في صفحة ويوفروا على الناس وجع القلب وحقّ الكتب؟

انكمش صلاح في مكانه. وصبّ له رشدي كأس شاي، وهو يشعر بخليط من الرضا عن نفسه ومن لومها على ما انطوت عليه أسئلته من الرغبة اللئيمة في إحراج ابن خاله. وليس اللؤم من طبعه. واعترف في دخيلة نفسه بأن ما قاله صلاح يكفي لتأكيد ذكائه وتحصيله وتميّزه عن أقرانه، بالنظر إلى عمره، لو أنه فقط يرى ما حوله بقدر ما يرى نفسه ونصوصه، وإذن لأعانه واقع شعبه ومجتمعه وقضيته على تحديد مواقفه الفكرية مما يقرأ، بقدر ما يمكن أن تعينه قراءاته على فهم واقعه في سياق العالم الكبير الذي يجول فيه عقله.

لا، لم يكن اللؤم ولا الغيرة دافع رشدي لإحراج ابن خاله. بل هو معجب وفخور به حقاً. وكيف ينكر موهبته المبكرة وهو ينشر نصوصه الشعرية والقصصية في مجلة الأفق الجديد التي تصدر في القدس، وينشر فيها أهم الأدباء على ضفتي الأردن، وينشر كذلك في الصحف اليومية وملاحقها الثقافية، دون أن يعرف المحررون والأدباء أن صلاح أحمد الشيخ يونس، ما يزال طالباً في الثانوية؟

وبالطبع، كلما أرسل نصاً للنشر، كان يبكّر متلهفاً إلى مكتبة الرجل الطيب عبدالرحيم العلي لالتقاط الصحيفة أو المجلّة في الموعد المنتظر، ثم يسرع في البحث عن اسمه ونصّه فيها، فإذا وجدهما مشى بعد ذلك في الناس وقد طالت قامته شبراً أو شبرين!

موهبة أدبية حقيقية، لا يكافئها إلا تفوقه في العلوم أيضاً.. موهبة لفتى ما يزال مراهقاً لم ينضج بعد. لعلّ هذه مشكلته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

طرق الباب ليسأل عن صاحبه ماهر، ابن أم ماهر الحيفاوية التي تتردد أمه على زيارتها منذ سنين، وتخيط لها بعض الثياب من حين إلى آخر، فأطلت أخته نادية بنت السابعة عشرة، فخفق قلبه بشدة وأطرق حياءً، ولم يكن حياؤه الزائد أمامها إلا تعبيراً عما يتحرك في قلبه من العواطف. فهو لم يكن خجولاً بطبيعته، بل ربّما عاب عليه البعض جرأته الزائدة النابعة من ثقته واعتداده بنفسه. ولكن هذا كله تلاشى الآن في حضرة الجمال والأنوثة والرّقة وشريط الحرير الذي تربط به شعرها، وكل ذلك في إطار ساحر من الياسمين الذي يتسلّق جانبي الباب، كما يتسلّق سور الحديقة، وكما يتفتح الآن في قلبه!

لا.. ماهر ليس في البيت الآن.

وقبل أن يرتد راجعاً، سمع صوت أم ماهر تستوقفه:

- اسمع يا صلاح.. هادي نادية مستحيّة تطلب منك.. عاملين عندهم حفلة في المدرسة، وطالبين منها..

التفتت إلى ابنتها وتابعت:

- احكي انت يا نادية.

غالبت نادية خجلها وقالت بصوت عذب:

- كلمة عن فلسطين.. مش أكثر من صفحتين.

أعقبت أم ماهر:

- عاد لأنك شاعر وكاتب، ما شا الله، وبتنشر في الجرايد، فكرت نادية إنك تكتب لها الموضوع.. وأنا شجعتها.

حين صار على بُعد أمتار من المنزل، توقف وأخذ نَفَساً عميقاً، وتألقت عيناه مع ابتسامة عريضة. شاعر وكاتب! هذه أول الجوائز.. وتابع طريقه محمولاً على جناح فراشة!

لم يكن عند «أبو ماهر» اعتراض على صحبة ابنه صلاح. فهو وإن كان ابن مخيم فقد عُرِف بتفوقه ونبوغه وموهبته، وهو لا يتوانى عن مساعدة ابنه ماهر في دروسه، لا سيّما مادّتي الرياضيات والفيزياء اللتين يجد صعوبة خاصة فيهما. وإلى جانب ذلك، فإن أسرته بصفة خاصة تحظى بسمعة طيبة تتجاوز المخيم إلى المدينة، بل خارج المدينة أيضاً: أبوه «القائد» أبو صالح، وعمّه النابغة عليّ الذي يدرس الآن في إحدى أهم الجامعات الأمريكية، وأمّه ما تزال منذ سنين تتردد على أم ماهر، وهي حيفاوية مثلها. وقد عُرِف الجميع بحُسْن الخلق والاجتهاد.

لا بأس بصحبة صلاح إذن، ولكن اعتراض أبو ماهر كان على تردد ابنه على المخيم وعلى مركز الشباب الاجتماعي فيه مع صلاح، وهذا يعني مخالطة شباب المخيم الآخرين، وليسوا جميعاً مثل صلاح وأسرته.

ولما اعترض ماهر على ذلك التمييز المجحف، وبدأ يذكّر بالمعاني الوطنية، سبقه والده إلى تلك المقدّمة المكرورة التي يموّه بها البعض نظرتهم الدونيّة إلى المخيم.

فهم أبناء الوطن الواحد، وضحايا النكبة التي اقتلعتهم من ديارهم وقذفت بهم إلى شقاء المخيم. ولكن الظروف الصعبة التي وجدوا أنفسهم فيها تخلق الكثير من المشكلات والتصرّفات غير المقبولة كالشجارات والشتائم البذيئة. وزاد على ذلك بالقول بأن تلك الظروف كان يمكن أن تخلق مشكلات وانحرافات أعظم لو وُجِدت في مجتمع آخر أقل تمسكاً بالعادات والتقاليد وقيم الدين. ولكن، حتى تتغير الظروف التي أنشأت تلك الظواهر، فإن من كان مثل أبو ماهر يجب أن يُجنِّب ابنه التأثيرات السلبية.

آثر ماهر ألا يتابع الجدال العقيم مع أبيه، وإن لم يغيّر رأيه في تلك النظرة الظالمة. فهو يعلم أن الشتائم البذيئة ليست حصراً على بعض شباب المخيم، وأن من شباب «الوطنية»، وهو أحدهم، من هم أسلط لساناً وأشدّ بذاءة حين يجتمعون بعيداً عن عيون الكبار ومسامعهم، سواء في حال الاختلاف والمشاجرة، أم في حال التبسّط وتبادل النكات!

أحلم بالنهارْ
بوردة تفتّحتْ على فم الصغارْ
بنجمة تدرج في شوارع الطفولة
بفلّة تلوح في جديلة
أحلم بالقمر
يحبو على سطوحنا وينثر الغناءْ
ويزرع الأحلام والنغْناع والصفاءْ
أحلم يا صديقتي بغيمةٍ نديّة
تحملني إلى الشواطئ القصيّة
لعالم لا يعرف الأبواب والأسوار
ومُشْرع على الرياح والجنون والأمطار
أحلم يا حبيبتي..
فتستعيد لونها الأشجارْ
وتستعيد ماءَها الأنهارْ
ويشرق النهارْ.
خزائني فقيرة
وأنت يا حبيبتي أميرة أميرة.
لكن قلبي عامر بالشمس والأشعار والبحار.

إذ فرغ، تلفت بين صاحبيه ماهر وخليل، ليرى أثر قصيدته فيهما. هز خليل رأسه:

- جيّد.

قال صلاح معترضاً:

- بس جيّد!

- تزعلش.. ممتاز.

كان خليل مثل ماهر من «الوطنية»، أي من غير اللاجئين. وكانت الصحبة قد توثقت بين صلاح وبينهما، خلال المدرسة الفاضلية الثانوية التي يدرسون فيها، إذ لم تكن مدارس وكالة غوث اللاجئين تضم صفوفاً ثانوية. فكان على الطلبة من أبناء اللاجئين أن ينتقلوا إلى المدرسة الحكومية الثانوية بعد فراغهم من الإعدادية. ولم يكن خليل ذا موهبة أدبية مثل صلاح، ولكن كان كلاهما الأوّل على شعبته من الصف نفسه في القسم العلمي. وبخلاف صلاح، كان خليل ذا نظرة واقعية، لا يميل إلى تلوين الأشياء بألوان الشعر والأحلام.. والأوهام! يسمّي الأشياء بأسمائها ويصفها كما يراها بحواسّه وعقله. على نحوٍ ما، كان أكثر نضجاً من صلاح. وكان مثل معظم سكان طولكرم من أصول ريفية.

التفت كلاهما إلى ماهر الذي بقي شارداً صامتاً بعد أن فرغ صلاح من إلقاء قصيدته الجديدة. وكان دونهم في الأداء المدرسيّ والثقافة، ولا يدلي برأي فيما يعرضه صلاح من نصوصه. وما كان ليدري في تلك اللحظة أن «الحبيبة الأميرة» التي تغنّى بها صلاح في تلك القصيدة، ليست إلا أخته نادية!

ولكن، لم يكن صلاح وحده الذي يكابد نار العشق. فكذلك كان ماهر الذي حركت قصيدة صلاح مواجده.

كان الثلاثة يجلسون عند وادي «الزومر» كما يسمّيه أهل طولكرم. ويقع على حافة السهل الشمالية، وخلفه تلال قرية شويكة القريبة، ويجري فيه ماء الشتاء قبل أن يجف بعد إدبار موسم المطر.

تغامز صلاح وخليل إذ لحظا شرود ماهر وصمته، وكانا يعلمان أنه عاشق محروم! وأحب خليل أن يداعبه، فأخذ يدندن له بمقطع من أغنية مشهورة لعبدالحليم حافظ:

بحلم بيك أنا بحلم بيك

وبأشواقي مستنيك

وإن ما سألتش بيّه

يبقى كفايه عليّه

عشت ليالي هنية بحلم بيك

أنا بحلم بيك.

علّق صلاح:

- أحلام المحروم عذاب، مش هَنَا.

التقط خليل الورقة التي قرأ منها صلاح قصيدته، وقال متهكماً:

- وحضرتك شو كنت تقول الآن في قصيدتك؟

وقرأ:

أحلم يا حبيبتي

فتستعيد لونها الأشجار.

وتستعيد ماءَها الأنهار

ويشرق النهار.

خزائني فقيره

وأنت يا حبيبتي أميرة أميرة

لكن قلبي عامر بالشمس والأشعار والبحار.

واستأنف تهكمه:

- فقير وأميرة! بس بكفيها منه إنه قلبه عامر بالشمس والأشعار والبحار! وين بتتصرف هذي يا خوي؟

تخلّص منه صلاح بالقول:

- شعر.. هذا شعر.. وشو أعمل لك إذا قلبك ناشف مثل وادي «الزومر» في هالوقت؟ خلينا في مشكلة ماهر.

تحدث ماهر لأول مرّة مخاطباً صلاح:

- يا خوي يا صلاح.. مالي غيرك.

- أنا؟ شو بدّي أعمل؟ رسول غرام؟

تدخّل خليل من جديد، بأسلوب التهكم نفسه:

- أنا عندي طريقة، صلاح بيتعرّض للبنت في طريق المدرسة، وبحكي لها كلمتين بايخات.. يعني شغل زعرنة.. بالصدفة، بكون ماهر ماشي قريب في هذيك اللحظة.. يا محاسن الصدف! بتهب فيه روح النخوة والحمية العربية الأصيلة.. وبقرر يدافع عن البنت.. وبطعمي صلاح قتلة نصّها موت. هون بتقع البنت بدباديب الفارس المنقذ الشهم: ماهر بني عبس!

ضحك خليل وصلاح، وقال ماهر لخليل:

- اتمسخر.. مش انت اللي بتسهر الليل..

ثم شرح طلبه من صلاح: أن يكتب عنه رسالة حبّ من عيّنة شعره، ليتوصّل إلى فتاته بها بطريقة ما.

وافق صلاح بلا تردد.. بل بحماس.

على نحوٍ ما خفف ذلك عنه بعض الشعور بالذنب، بأنه يكتم حبّه لأخته. فهما في الحب سواء. وإذا كان ماهر يبيح لنفسه أن يحب فتاة ما، ويستعين به على مراسلتها، فلماذا يَحْرُمُ مثل ذلك على صلاح؟

خطبة مدرسية لنادية عن فلسطين والقضية ومحنة اللاجئين، والآن رسالة حب لأخيها يتوصل بها إلى فتاته، مستلهماً عواطفه هو نحو أخت صاحبه!! فلماذا يحجم بعد الآن عن التعبير عن عواطفه لنادية بالطريقة نفسها؟

أما ماهر، فأدّت الرسالة التي كتبها له صلاح غرضها. وعاد إلى صاحبيه خليل وصلاح يتقفز من الفرحة، وأقبل على صلاح يحتضنه ويقبّله. بقي أن يحقق صلاح مثل ما حقق صاحبه بمساعدته، وهو الأوْلى بحصاد كلماته وأشعاره. وكان قد أعدّ رسالة حب لنادية اعتصر فيها قلبه وروحه ومعجمه الشعريّ. وظلّ أن يتوصّل إليها بها. ولكنه اكتشف أنه في مثل هذه الأمور أقل جرأة من ماهر وأكثر خجلاً، على

الرغم من كل اعتداده بنفسه وقوّة شخصيته فيما عدا ذلك. ماذا لو كان الأمر كما علّق خليل ساخراً ولم تُغنِ الأشجار والأشعار والبحار التي تعمر قلبه عن خزائنه الفقيرة، عند الأميرة!

لم تكن أميرة، وإنما كانت من أسرة متوسطة. ولكن قياساً بحال المخيم وأهله، بدت له كذلك. وماذا لو رفضت وصله بعد مصارحته لها. سيكون الرفض مريراً وموجعاً. وماذا لو زادت على ذلك فاشتكته لأهلها؟! ستقوم الدنيا عليه ولا تقعد من أبويه ومن أهلها معاً.

الحياة مجازفة على كل حال، وفاز باللذة الجسور.

ولكنه فَقَدَ شجاعته إذ أقبلت عائدة من المدرسة، وكان يترقب مجيئها، ويضع الرسالة في داخل كتاب، حتى إذا صارت على قرب وضجّ صدره بمزيج من الخجل والتردد والخوف، نكص على عقبيه، وقضى بقية نهاره وشطراً من ليله يلوم نفسه على جُبنها.

في المحاولة الثانية، مشى في اتجاهها ولم يتراجع، وإذ صارت قريبة منه، تغلّب على خجله، والتقت نظراتهما، ورآها تبتسم له بصمت دون أن تتوقف.. وعلى الرغم من أن شجاعته خذلته مرة أخرى فلم يسقط الرسالة أمامها، ولا مدّ يده إليها بها، فقد حملته نظراتها وابتسامتها فوق السحاب، واشتعلت في صدره الأشعار والبحار!

نظرة، فابتسامة.. يمهّدان للسلام والكلام، حتى لو كانا صامتين، تنطق بهما الرسالة عنه!

هكذا تجرّأ في المحاولة الثالثة على إسقاط الرسالة في طريقها وهو يكاد أن يسمع وجيب قلبه، ولم يلتفت وراءه ليرى مصير الرسالة إلا بعد أن تجاوزها مسافة كافية. كانت تبتعد مدبرةً بالمشية نفسها.. وكانت الرسالة في مكانها على الشارع، فأسرع ليستردها قبل أن يسبقه إليها أحد، فينكشف أمره.

وعاد ساخطاً هذه المرة. إنها تبادله النظرات والابتسامات، فلماذا أحجمت عن التقاط الرسالة؟

حين رآه خليل على هذه الحالة وسأله عن السبب، صارحه، دون أن يسمّي الفتاة، بالطبع. ضحك خليل، وحين رأى صاحبه يرسل إليه نظرة عتاب، حاول أن يجد لها عذراً، فلعلّها لم تتنبه إلى الرسالة وهي مشغولة بأفكارها ومشاعرها وخجلها.

وإذ دخل عليهما ماهر في بيت خليل، باح له خليل بما يؤرّق صاحبهما على الرغم من محاولات صلاح إسكاته!

ضحك ماهر وقال:

- وليش تخبي عني يا خوي؟! ما إحنا في الهوا سوا. ومين سعيدة الحظ؟

تدخّل خليل وذكر أن صلاح مصرّ على إخفاء اسمها. علّق ماهر:

- ما سرّي عندك. وليش بتكتم سرّك عنّا؟ على كل حال، انت خدمتني.. وأنا هلّأ بنصحك.. لا تيأس.. تابع المحاولة. انت اللي دايماً بتقول وفاز باللذة الجسور. وإذا زبطت معي برسالتك، ليش ما تزبط معك؟! والا زي ما قالوا: «باب النجار مخلّع»!

ربما كان خليل مصيبا، ولم تتنبه الفتاة لرسالته التي ألقاها على عجل في غمرة ارتباكه وارتباكها. فليحاول مرّة أخرى.

وهذه المرة نجحت المحاولة.. والتقطت الرسالة. وهزّ صلاح قبضتيه فرحاً، وبدت الأشجار أكثر خضرة والدنيا أكثر ألقاً والياسمين أكثر عبقاً!

«أفكر بك، فتشتعل الخضرة في الأرض اليباس، ويستيقظ النخيل ملء روحي وملء الصحراء.. أفكر فيك، فترتج الأرض تحتي، وتتزين السماء بمصابيحها.. أفكر فيك فيدرج القمر على الدروب، ويطارد الصبايا ويوزع الكعك والعيد والمهرجان على الأطفال المنتظرين تحت الشبابيك العتيقة.. أفكر بك فتصهل الجياد ملء المدى الأزرق..

أفكر فيك، فتقترب النجوم من يدي، ويحوّل النهر مجراه إلى داري، وتتبعني الفراشات المضيئة إلى بابي، وتلتجئ القبرات إلى كتفي وذراعي، ويمتد البحر إلى شرفتي، وتستريح الغزلان في ظلّ قامتي..

هو الحبُّ لولاه ما كانت القبّرات تُغنّي على شجر الذاكرة

وما كانتِ السُّحُب المُثْقلاتُ التي تكسر الهاجرة

وهذي النجم التي منذ فاجأني العشق لمّا تَزلْ ساهرة

وهذي البحارُ التي حيّرتني زماناً..

فلما وضعتُ مراسِيَّ خَلَّفتها حائرة

وهذي الظّباء التي اشتملت بردائي

وهذي الجِمال التي لا تَشُدُ بغير حِدائي

وهذي الزهور التي طَلَعت من شقوق الفضاءِ

وهذي الجبال التي أسندت رأسها في تخوم السماءِ».

كيف لفتاة مراهقة أن تقرأ هذه الكلمات دون أن يذوب قلبها وتحملها سحابة ورديّة إلى منازل النجوم؟ سحابة ورديّة تظلّل المدينة والمخيم.. «الوطنية» وأهل المخيم، سواء. ولا يمنع من ذلك ألا تفهم كل ما فيها، فللكلام الشعريّ الجميل سلطان على القلوب حتى لو احتجب وراء غلالة من السحر والغموض.

ولكن «أبو ماهر» ليس على مذهب السحابة الورديّة التي تطل على المخيم والمدينة دون تمييز!! فبعد وقت من تبادل رسائل الحب الصامت بين صلاح ونادية، عاد ماهر إلى بيته، وإذ قفز على درج البيت وصار عند الباب، سمع بكاء أخته مختلطاً بصياح أبيه، فدخل مسرعاً ليجد نادية تبكي منهارة وقد ظهر على خدها أثر صفعة. وأمها تقف بينها وبين أبيها الذي كان يكيل إليها الشتائم، وهو يحمل بيده مجموع الرسائل التي وجدها في أحد أدراج خزانتها. وقبل أن يسأل ماهر، قذف أبوه الرسائل في وجهه وقال:

- اتفضل يا أستاذ.. شايف صحبتك لأولاد المخيم شو جابت لنا؟ وهذا اللي كنا نقول عنه آدمي غير عنهم..

اندفع ماهر داخل غرفة خليل في بيته وهو يتفجر غضباً، وتوجّه مباشرة إلى صلاح وصفعه بقوّة، وعلى الرغم من صدمة المفاجأة قفز خليل ليحول بينهما. وانفلت

لسان ماهر بسيل من الشتائم المقذعة، للخائن السافل. وصاح صلاح متحديًّا:

- أيوه بحبها.. وهيه بتحبني.. حب شريف مش أقل طهارة من حبك انت لصاحبتك.. والقلم اللي كتبت فيه إلها هوه القلم اللي كتبت فيه رسائلك انت لصاحبتك.

هزّ ماهر إصبعه في وجهه مهدِّدا:

- طب اسمع مني قبل ما أطلع.. إذا عرفت انك عدّيت بطريق أختي، يا بقتلك يا بتقتلني..

ومضى نحو الباب، وقبل أن يخرج استدار نصف استدارة:

- الحق عليّ اللي سمحت لنفسي إني أصاحبك.. كان لازم أسمع كلام أبوي.

ثم توجه بنظره إلى خليل:

- وبالنسبة إلك يا خليل.. يا إما صداقتي أو صداقته.

وصفق الباب وراءه.

بقي صلاح واقفاً يلهث، بينما أخذ خليل ينظر إليه بوجه منقبض، وقال صلاح:

- شفت النفاق؟ سمعت؟ المعنى واضح.. لأني ابن مخيم.

ردّ خليل:

- سيبك من هالحكي.

- هذي هي الحقيقة بدون رتوش.. اللي بحق له ما بحق للي مثلي.. كل الحدود ممكن تغيب إلا حد المخيم.

- مش هيك.. مش هيك. ما خطرش على بالك إنه الناس بتناقض؟ ما خطرش على بالك إنه الازدواجية بتقطع الحدّ بين المخيم وغيره.. بس اسأل نفسك، لو انعكست الصورة واكتشفت انه واحد من أولاد «الوطنية» والعزّ براسل أختك، بنت المخيم؟ شو رايحة تكون ردّة فِعْلك؟ نفس الشي..

صمت صلاح هنيهة، ثم قال:

- بس على الأقل مش رايح يكون زعلي لأنه من «الوطنية»!

رد خليل:

- يا خوي يا صلاح.. انت صاحبي وشاب ذكي وموهوب، ما شاء الله. بس بصراحة بتحب تمثل دور الضحية، أو بالأحرى البطل المعذب. دخيل الله، مين أهل البلد و«الوطنية» اللي بتحكي عنهم، وين عايش أنت؟ هذي مدينة ريفية صغيرة، أهلها مجمّعين من قراها، وفيهم ناس أفقر من أهل المخيم، والأرض اللي أنا وإياك عايشين فيها جزء من فلسطين.. والباقي اللي راح فلسطين.. وطنك ووطني. المخيم ما بعطيك امتياز وطني عليّ.. مش من حقك تزاود علينا باسم فلسطين لأنك لاجئ. فلسطين مش قضية لاجئين بس.. فلسطين مش الدار اللي كان عايش فيها أبوك أيام البلاد ولا قطعة الأرض اللي كانت ملك لكم، تماماً زي ما إنه دارنا هذي مش فلسطين.. الوطن اللي ضاع ضاع منا كلنا.. واللي قاتلوا عنه ما انتهوا كلهم في المخيمات. كفاية إذن تستخدم المخيم أداة للمزايدة الوطنية علينا حتى تخفي عُقَدك الشخصية!

أطرق صلاح لحظات، ثم نظر إلى خليل:

- ماهر خيّرك بيني وبينه.. أعتقد إنك اخترت!

ومضى خارجاً.

ما كان ينتظره في بيته أعظم.

- تفوووه عليك وعلى تربيتك.. سوّدت وجهي الله يسوّد وجهك.

كان أبو صالح يتفجّر غضباً، وقد توصّل إليه أبو ماهر بالشكوى من جريمة ولده، وختم بالتهديد والوعيد، وبالثبور وعظائم الأمور إذا لم يتوقف صلاح عن التعرّض لابنته.

- ولك أنا اللي ما نزلت راسي للإنكليز واليهود، لقيت حالي مش قادر أرفع راسي قدّام الزلمة.. ومين بقدر يرفع راسه لما تكون التهمة تهمة رزالة وقلة حيا؟ هذا اللي طلع إلنا من كتبك الفاضية والسينمات!

قرّر صلاح أن يتحدّى ويواجه:

- أنا ما عملت شي غلط.. بس انتو اللي عايشين في الماضي..

تدخلت فتحية التي كانت تقف وترتجف، لا خوفاً على ولدها المتمرد، ولكن على زوجها الذي تعاوده شكّة الشظيّة التي بقيت في صدره منذ حرب النكبة.

- لا تردّ على أبوك وَلَه.

وأعقب أبو صالح:

- الرزالة رزالة في كل زمن.. امبارح واليوم. ما ضاعت الأخلاق مع ضياع فلسطين.. في البلاد والا في المخيم.. إحنا نفس الناس.. سمعتنا زيّ الثوب الأبيض. ما هوه شغلات زي هيك اللي بتخلي الناس يقولوا: أولاد مخيم؟

ردّ صلاح:

- أولاد مخيم؟ طب الزلمة شكى لك علّي.. بس ما قالك إنه بنته برضه بتحبني وبتراسلني..

- إذن تفووه عليك وعليها. وهذي كلمة حب، ما بديش أسمعها منك. إذا ما بتستحي من أبوك استحي من إمك. ولْكُم شو صاير بأولاد هالأيام؟

- ما فيش شي أستحي منه.. عواطف طبيعية.. هذي هيه اللي موجودة في كل زمن.. جيلكم وجيلنا.. الفرق إنكم تتكتموا عليها إلا في أغانيكم.. وعمي عليّ، مش من جيلكم؟

- وشو جاب سيرة عمّك علي هسّع؟

- الكل بعرف إنه أخذ مرته عن حب! والا شو جابهم على بعض؟

تلجلج أبو صالح، وعرف صلاح أنه أحرجه. ومضى صلاح خارجاً، ولحق به صوت أبيه:

- عمّك علي ما كانش مراهق مستهتر لما تعرّف عليها.. جيب الشهادة أول واعمل زيّه!

لم يكن يدرك من قبل أنه يختزن كل ذلك الغضب الذي تفجّرت براكينه في صدره مرة واحدة. تلاشت مفاهيم السأم والاغتراب الوجودي والعبث، وسائر تلك المفاهيم التي كان يستعيرها من عالم الترجمات. ولا ثمّ الآن إلا وجعه الشخصي الحقيقي الذي يرتد به قسراً إلى واقعه: واقع المخيم والوصمة الظالمة التي تلحق بأبنائه، ومن أوجاع المخيم إلى الوجع الفلسطيني بجملته.

لا، لن يستسلم.. سيتحدى ويقاوم أعداء الحبّ والشعر، حتى لو انهزم في نهاية المطاف. يكفي أن يهز قبضته في وجوههم ويلقي حجراً في البركة الآسنة الساكنة. فالبطولة ليست في الفوز، وإنما هي في السباحة ضد التيار، والصمود في وجه العاصفة، والتمرد على السائد والمألوف، حتى لو كلّفه ذلك غضب أبيه.. المجاهد القديم الذي غفلت عنه الكتب وذاكرة الرواة ولم تغفل عنه الشظية التي ما زالت تقيم في صدره وتتكأ عليه. ولا يملك من نفسه إلا ماضيه، فلا يفتأ يستخرج تلك الصورة التي أخذت له مع رفاقه الثوار في معسكره يتأمل فيها ويمعن النظر كمن يمعن في شمس غاربة. ثم إذا خرج إلى سهل طولكرم، انمحت صورة اليوم وحلّت مكانها صورة الأمس إذ كان ينضم بفصيله إلى القائد العام أبو كمال، عبدالرحيم الحاج حمد، ابن ذنابة، لمباغتة دوريات الإنكليز «.. هنا صنعنا كميناً وهناك أقمنا حاجزاً من الحجارة.. وهناك..».

ولكنّ المجاهد القديم كان أكثر بساطة من أن يجمع بين ثورة السلاح ضد العدو الغازي، وثورة الوعي ضد التقاليد المتخلّفة التي حرمت أخاه حسن من حبيبته، كما عرف صلاح متأخراً. الآن زمن آخر. وما غاب عن أبيه، سيكمله هو.. حتى لو وضعه ذلك في مواجهة أبيه!!

لم يتوقف عن ترقب نادية على الطريق.. وفي المرة الأولى بعد الإعصار، بدا عليها الاضطراب الشديد، وأخذت تتلفت حولها، وبغير إرادة تنحت عن طريقه ولكنها قذفت له رسالة، أكدت له فيها أنها مقيمة على حبه، ولكن الرقابة شديدة، وترجوه أن يبتعد في الوقت الراهن، ليجنبها ويجنب نفسه المشكلات.

فليكن.. يكفيه منها الآن أنها أكدت له عواطفها الثابتة. وغداً يوم آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انظر بغضب

(عطية.. بطل بلا قضية)

1

في مركز الشباب الاجتماعي في المخيم، سمع بعض أقرانه يتهامسون بضيق في عطية الذي خرج من السجن. فما الذي جاء به إلى المركز وليس له صاحب فيه، ولا أحد يحب أن يخالط نزيل سجون يلطخ سمعة المخيم والمركز؟ فإن لم يكن ذلك، فهم يخافون فورات غضبه وعنفه الذي يمكن أن تنتهي بإشهار سكينه.

لكأن موقف الآخرين من عطية، قد أغوى صلاح، وهو في ذلك المزاج المتمرّد الناقم على الدنيا والناس، أن يتحدّى نفسه، ويتحدّى أقرانه.. ويتحدّى عطية، على نحوٍ ما. وما عليه لو ركب الريح، أو حاول ترويضها، أو أعاد توجيهها؟

فوجئ عطية الذي كان يستند إلى جدار صالة الألعاب الرياضية ويدخن، بصلاح يُقبِل عليه:

- الحمد لله على السلامة.

نفث عطية من سيجارته، وحدّق في صلاح متشككاً ومستنكراً، ولم يرد عليه تحيته. ثم طلب صلاح منه سيجارة. فلم يتردد في تقديمها له، وأشعلها له.

تكرر اللقاء بعد ذلك بين الشابين أمام حيرة الجميع. ما الذي يجمع هذا الفتى المتفوّق الموهوب بهذا «الحرامي» المشاكس العنيف المنبوذ؟ ويمكن أن يكون السؤال في المقابل: كيف استجاب عطية نفسه لصلاح حتى ليبدو أنه تخلّى عن أنيابه ومخالبه وهو في رفقته، وأنه أسلم قياده له، وهو الذي يتجنب مخالطة الآخرين بقدر تجنبهم لمخالطته.

إذا كان عطية قد تخلّى عن نابه مع صلاح، فقد كان صلاح يشعر بأنه أضاف إلى عدّته ناب عطية.. عطية الضحية الذي لم يقدم على خلع الأبواب إلا حين سدّت في وجهه. وإلى جانب تعاطفه الحقيقي معه، فقد كان يعيش برفقته في عالم روائي درامي مألوف عنده، حيث يجتمع الضدان على قاسم مشترك: رجل الدين والخارج على القانون في سجن واحد! الثوريّ والغانية التي تسعفه وتخفيه عن كلاب السلطة! العقل المفكّر والذراع الضاربة.. ونحو ذلك.

لم يبادر أحد إلى سؤال صلاح عن سرّ هذه الرفقة الغريبة.. إلا عطية نفسه الذي كان أشدّ الناس استغراباً وتعجباً. اجتهد صلاح في أن يفهمه بأنه لا يشجعه على الطريق الذي يسلكه، ولكنه يتفهم أسبابه ويشاركه الغضب والاحتجاج على الظروف الظالمة التي تحاصرهما وتغتال أحلامهما في العدل والحرية. قد لا يحب صلاح أفعال عطية، ولكنه يكره الواقع الذي دفعه دفعاً إليها أكثر منها. ثم سأله عما إذا كان يفضل أن يكون صاحب البيت أو الدكان الذي يسطو عليهما، أم يكون «الحرامي»؟ ولم يتردد عطية في الجواب.. بالطبع يفضل أن يكون صاحب البيت أو الدكان!

لم يسوّغ له صلاح سلوكه، ولكنه حاول أن يعطي له معنىً وقع في نفس عطية موقعاً خاصاً. أثبت عطية أنه لم يكن غبياً؛ فعلى الرغم من مستوى الكلام الذي تحدث به صلاح، استطاع أن يفهم مجمله.

أما الآن، فقد استخرج صلاح من جيبه ورقة كتب عليها مقطوعة شعرية، وقرأ على عطية:

انظر في غضبٍ..

أَطْلِق ساعدك من الصخر ودقّ به الأسوار

أَسْرِج صهوات الريحِ..

تقحّم مملكة الشمس وأشعل كفّك قبضة نار.

ازأرْ، أطلق من حلقِكَ صوت الرعدِ..

وألقِ إلى الرَّمل المزمارْ

خذْ جُنْحَ الصقر، تعلّمْ لغة الإعصارْ

ارفعْ رأسك في غضبٍ واجعل قامتك الأشجارْ

اخْرُج من ظلّ الخوفِ، افتح شباكك..

واصرخ في وجه العالَم: لي خلف الشباك نهارْ

لي في كل بلاد الدنيا فرسٌ وعروسٌ وقطار

وأنا آتٍ من كل جهات الأرضْ

وأنا ألبس جلد الريحِ وطينَ الرفض

وأنا آتٍ حجراً مشتعلاً..

شجراً ملتهباً لا تطفئه الأمطارْ

فتأهّب يا عالمُ إنّي قَدَرٌ، ليس تضّل الأقدارْ

وإذ فرغ، قال:

- عارف شو عنوان القصيدة؟ «عطية ينظر غضباً».

تفحّصه عطية بنظرة حائرة، وأشار إلى نفسه متسائلاً. قال صلاح مؤكداً:

- أيوه.. عطية أنت.

لن يدرك صلاح نفسه عمق الأثر الذي تركه كلامه وقصيدته تلك في نفس عطية إلا بعد مرور بضع سنين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

كيف يمكن أن تكون مظاهر البؤس في المخيم هي عين الطلب عند رشدي، في ذلك اليوم الذي كان يقود به مجموعة من الزوار الأجانب الذين جاؤوا للاطلاع على أحوال المخيم ونقل صورة صادقة عنه؟ وكان قد تطوّع بهذه المهمة. لم يكن متدفقاً في الحديث بالإنكليزية، وهو يحاول الشرح. ولكن مشاهد البؤس تنطق عن نفسها دون ترجمان. كذلك كان الزوار يعينونه إذ يتلقطون طرف الحديث، فيكملون عنه أو يعيدون صوغ الكلام بالعبارة الصحيحة. أشار إلى اكتظاظ السكان، وفقر الخدمات، وانعدام تمديدات المياه والكهرباء ونظام التصريف الصحي.. وقلة فرص العمل، وسوء التغذية، إلى آخر قائمة الظروف المُؤْسِيَة.

وكان عدد من الأطفال، بينهم من كانوا نصف عراة، يلاحقونهم من موضع إلى آخر، ووقف آخرون من الرجال والنساء أمام بيوتهم يرقبون. ثم بلغ بهم رشدي قريباً من بيوت أسرته. وكان في خطته المسبقة أن يدعوهم إلى الداخل لاحتساء الشاي، ورتب ذلك مع أهل البيت. ولكن صلاح أبى إلا أن ينتهز الفرصة ليُعلِن غضبه للعالم كلّه، أمام الزوار الأجانب وكاميراتهم. فبرز خارجاً من الحوش. واستشعر رشدي من نظراته ولغة جسده أنه يهمّ بشيء سيكون محرجاً. ولم يخيّب صلاح سوء ظنّه. فبادر بالسؤال متهكماً:

- شو، بتسوّق تعاسة اللاجئين للعالم؟ الخواجات اللي معك إن شا الله بدهم يرجعوا لنا فلسطين؟ أو يرجعونا لفلسطين؟ والا بدهم يحسنوا أوضاع المخيم؟

إذ لحظ الزوار اضطراب رشدي وتعبير الحرج على وجهه، شعروا بأن الفتى الآخر يقول شيئاً يرغبون في فهمه. فسأل أحدهم رشدي عما يقوله الشاب، بينما تابع صلاح كلامه لرشدي:

- لازم تحدّد هدفك. إذا بدّك يحسنوا أوضاعنا هون وين راحت فلسطين؟ وإيش بظل بعدها شي نبيعهم إياه في المخيمات؟ وإذا ما بدّك يحسنوا أوضاعنا، حتى ما يكون بديل عن العودة، عليش قاعد تشكي لهم؟

أعاد أحد الزوار السؤال عما يقوله الشاب. ولكن رشدي حاول أن يقودهم إلى مكان آخر، فصاح صلاح:

- ليش ما بترجم الهم؟

ثم توجه إليهم صلاح بكلامه، معلناً أنه يستطيع الحديث بالإنكليزية، وتدخل رشدي راجياً ابن خاله أن يكف ولا يسبب لهم الخزي والإحراج. ولكن صلاح لم يأبه له. وبدأت كاميرات الزوار تلتقط صوره وهو يتخذ أوضاعاً تمثيلية في هيئات مختلفة تجسد أحوال اللاجئ، وكأنه مخلوق غريب أو ممثل في جلسة تصوير، أو مهرج مسرحي يبدّل أقنعته. فاتخذ أولاً قناع الحزن والشقاء بملامح وجهه، وشرح:

- وجه فلسطيني يلخّص حياة البؤس والتعاسة في المخيمات.

أعقبها بوجه آخر شارد الملامح غارق في التأمل: «اللاجئ يتذكر الوطن السليب».

لقطة أخرى ووجه آخر: «اللاجئ.. نظرة على المستقبل وحلم العودة».

لقطة أخرى ووجه آخر و«نظرة تصميم وإصرار».

وأخيرا رفع قبضتيه وهزّهما وقد تقمّص تعبير الغضب الجارف، وصاح بصوت هادر: «اللاجئ.. يهز قبضته في وجه العالم».

وإذ فرغ من استعراضاته، توقفت الكاميرات وهتف في الزوار:

- هذا كل الي بتحتاجوا تعرفوه عن المخيم.. روحوا حمضوا الصور وضمّوها لألبوم صور الرحلات في أدغال إفريقيا والصحاري. ولا تآخذونا ما ظلّ عندنا بيت شعر وجمل في المخيم حتى تكمل.. ما كناش حاسبين حساب الزوار اللي زيكم لما رضينا يوخذوا الخيمة ويعطونا بيوت مسخّمة!

ثم تحوّل إلى رشدي:

- ترجم يا خوي ترجم.. بالذات كلمة «مسخّمة».

وانطلق مبتعداً أمام حيرة الزوار فيه، وحرج رشدي الممتزج بشيء من الغضب المكتوم الذي ما لبث أن تلاشى، إذ رجع إلى نفسه وإلى المشهد الذي أدّاه صلاح، فوجد أنه عبّر عن مكنونات صدره، على الرغم من فظاظة التعبير، وفظاظة الحقيقة، ووجد نفسه يحاول أن يترجم لهم مرافعة صلاح الأخيرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجته أن يبتعد عنها في الوقت الراهن. وقد انقضى على ذلك شهر نصف، وهو يتقلّب في فراشه على مثل الجمر الذي يتوقد في صدره. لا، ليس حبّه لها من طيش المراهقين وأوهامهم، وإن لم يكن بينهما غير الرسائل. فلا موعد ولا لقاء ولا كلام، فهذا لا يكون في هذه البلدة الصغيرة. ولكن ما الحب إن لم يكن سهر الليالي وتسلّط طيف الحبيبة وفيض الشعر ومحاورة النجوم واشتعال الياسمين، وتألق الكون في إقبال الحبيبة، وانطفاء مصابيحه في إدبارها وصدودها؟

وإلّا:

من أين يأتي كل هذا البحر، هذا الجمرِ،..

هذا الورد، هذا الشهد، هذا الوجد، هذا الرعدِ..

من أين العصافير التي تحتلّ حنجرتي، ومن أين الغيومُ؟

من أين موسيقى السنابلِ، لسعةُ «القُرّاص»..

أصداء النوارس، دفقة الشعر العصيّ

من أين مزمار الرعاةِ يعيدني منّي إليّ؟

من أين يخطف لونَه هذا المساءُ؟

والأرض تصعد كي تقبّلها على ألَقٍ سماءُ

إن لم يكن هذا حباً حقيقياً فما يكون الحب؟

ليس واقعياً ولا مستقبل له، كما يقول صاحبه خليل الذي عاد يواصله على الرغم من صدوده عنه وقتاً. فليكن.. ولكنه حقيقي.. وهو لا يريد أن يسلم لحظته الراهنة المجنونة لمستقبل الحكمة المتأخرة! ولن يصغي لصوت خليل يواجهه برأيه الفظّ أن افتتانه بها على ذلك النحو الجنوني، وعلى الرغم من كل الظروف المعاندة، إنما هو

افتتان بمستواها الاجتماعي ورغبته في اعتلاء الأسوار المضروبة بين ابن المخيم وبنت المدينة الأنيقة، ليؤكد تفرّده وجدارته وانتصار إرادته.

لا، لن يصغي لتلك الأصوات، حتى لو كانت تأتي من عقله وزوايا داخله. وقد سبقه إلى جنون العشق عشاق شعراء قدماء، ذهبوا وبقي شعرهم وأخبارهم يتمثل بها السادرون في أنواء العشق والحرمان. فليعلن جنونه، إن كان ذلك جنوناً، وليذهب التعقل إلى الجحيم ومعه روادعه، وليحاول من جديد التوصل إليها.

ولكن نادية الآن غير نادية الأمس! فهي لا تكتفي برفض رسائله والصدود عنه بوجه ممتعض كلما انتظرها في الطريق، بل صارت تغيّر طريقها حين تراه، وتحثّ الخطى، ثم صارت تبدّل طريقها ابتداءً حتى لا تجده أمامها.

أقنع نفسه أنها مجبورة خائفة مغلوبة على أمرها. ولكنه ليس مثلها، فصار يحوم على بيتها أملاً في أن يلمحها تطلّ من الشرفة أو تخرج من البيت لبعض حاجاتها.

حين تكرر ذلك، خرج له ماهر أخيراً. لم يبادره بكلام عنيف ولا بالتهديد والوعيد، وإنما رجاه أن يبتعد ويكف عن ذلك حتى لا يجلب لهم ولنفسه المتاعب. وإذ يئس ماهر من إقناعه عاد إلى بيته، وما هي حتى خرج ثلاثة رجال من البيت، واندفعوا نحو صلاح ونزلوا به ضرباً.

حاول الدفاع عن نفسه ما وسعه ذلك بلا جدوى. وفجأة ظهر عطية راكضاً، وتصدّى للرجال الثلاثة بكل ما أوتي من قوة، وكانت لكماته ساحقة أدمت وجوههم. وأخيراً أشهر سكينه، وتراجع الرجال مذعورين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- مبسوط هسّع يا هامل؟ شرطة ومخافر وتحقيق.. ولَك شو اللي صار لك؟ ولد ذكي ومتفوّق والمستقبل كله قدامه، وأهله متأملين بعد الله فيه، شو اللي خرّبه في آخر سنة في المدرسة ولفّه على أهمل ولد في المخيم.. عطية؟ إذا كان أبوه بفكر يتبرّا منه. أنا ابني يصفّي في المخافر؟ ومنشان إيش؟ ولك إحنا دخلنا المخافر بس من أجل الوطن والقضية، مش الهمالة ورفقة المجرمين؟ ولولا جماعة أبو ماهر احترموا تاريخ أبوك وبرأوك عند الشرطة، كان انت هسّع مع عطية في الحبس، وضاع مستقبلك.

ردّ صلاح على أبيه بأنهم برّأوه خوفاً على سمعتهم في المقام الأول. أما عطية فأثبت أنه رجل ذو موقف وشرف ووفاء. فهو الذي أنكر في اعترافاته وجود أي صلة له بصلاح، وأنه المسؤول الوحيد عمّا وقع منه.

أعلن أبو صالح يأسه من ردّ ولده إلى صوابه، ومشى داخلاً منزله وهو يتحسس صدره وقد نكأ عليه من أثر الشظية القديمة، وبدت خطواته ضعيفة وظهره أكثر انحناءً.

شهد صالح الموقف. وعلى الرغم من صمته في أثناء ذلك، فقد كان يغلي كماء القدر في داخله. وإذ رأى أباه يدبر مكسور الخاطر بخطوات ثقيلة، سقطت وداعته، وكشف عن وجه آخر لم يعهده فيه أخوه، إذ تقدم إليه بعينين صارمتين يتطاير منهما الشرر:

- وآخرتها معك وله؟ بدك تكسر أبوك؟

أشاح عنه صلاح مستخفا.

- انت روح حلّ عني.. مش ناقصك.

هنا جذبه صالح إليه من قميصه جذبة قوية، وصاح في وجهه:

- لا تدير وجهك عني وأنا بحكي معك.

تفلّت منه صلاح:

- عال والله. أنا عندي أبو واحد والا اثنين؟

- إذا ظليتك هامل مش رايح يظل لك أبو.. وعندها بدك تواجهني أنا بس.

- طب ابعد عني. والله وصرت تهدّد!

جذبه صالح من جديد وصاح بنبرة أشد:

- إياك من اليوم وطالع تحكي معي بهالطريقة. وبدّك تحترمني غصب عنك. سامع!

فوجئ صلاح بموقف أخيه وشدّته غير المألوفة. ثم أرخى صالح قبضته عنه.. وقال بنبرة أخرى:

- بس صحيح.. عطية سجّل لنفسه موقف شرف ورجولة وإخلاص.. ووفاء، لما ورّط حاله لحسابك وطلّعك منها. بس السؤال: قدّيش كان موقفك انت منه فيه شرف وإخلاص ورجولة؟

اهتزت ملامح صلاح وتغضن وجهه، وتابع صالح:

- روح فكّر فيها هذي. روح اكتب قصيدة في عطية.. إذا ما نفعته بتنفعك.. يا شاعر الأمة والوطن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

تركت كلمات أخيه الأكبر أثراً عميقاً في نفسه، هز كيانه ورأيه في نفسه. نعم، أخوه الحلّاق الذي ترك الدراسة من أجله، كي يسهم في الإنفاق على تعليمه. فصلاح أوْلى منه بإكمال دراسته الجامعية بسبب تفوقه. ولا يسع والده أن يعلم واحداً في الخارج، فكيف باثنين. ولا يريد أن يزيد عبء المساعدة على عمّيه مسعود وعليّ. ولم يعرف صلاح هذا إلا من أمّه. وبدلاً من أن يثني على شهامة أخيه علّق على ذلك مستنكراً بأنها تضحية غبية. هل كان يستجيب في تعليقه هذا لطبيعته المتمردة التي تنفر من النماذج التقليدية الموروثة؟ القصة تتكرر.. وعلى الأخ الأكبر أن يضحّي من أجل الأصغر.. كما فعل إخوة عمّه عليّ. وعلى الأصغر أن يردّ الجميل بعد حين. وما عساه أن يفعل مستقبلاً ليردّ جميل صالح؟ لماذا يحمّله هذا العبء النفسي ويقيّده به؟ أما عمّاه فهما يردّان جميل أبيه السابق. أم أنه كان على نحو ما كان يقارن حال أبيه وأسرته، بحال عليّ الذي أهَّلتْهُ تضحيات إخوته للصعود حتى تزوج فتاة من أرفع العائلات، وما يلبث أن يحصل على الشهادات العليا من أعظم الجامعات الأمريكية، فيقيم في عالم أبعد ما يكون عن عالم والده المحصور في هذا المخيم البئيس. ولو أتيح لوالده ما أتاح لأخيه لكان حاله الآن غير هذا الحال.

هل كان يشعر ببعض الغيرة على أبيه من عمّه المحظوظ، بينما لم يداخل والده يوماً مثل هذا الشعور، وكان أشدّ فخراً وسعادة بإنجازات أخيه من أخيه نفسه! غداً يرجع عليّ بالدكتوراه مع زوجته ابنة الحسب والنسب وطفلته التي رزق بها في الغربة، ولا تشبه هي وأمها أحداً من أهل هذا المخيم، وربما تأففت من الزيارة ومن مشاهدة المخيم وبيوت الأسرة الوضيعة. كل هذه الأفكار والتصورات والمشاعر ألقاها على صالح وعلى نفسه، حين علم بغرضه من ترك الدراسة، فداهمه شعور بالإشفاق على أخيه وبالضيق من نفسه، ولعل هذا بعض ما دفعه إلى استنكار تضحيته.

وها هو الآن يسمع منه كلاماً يخترق شغاف روحه ويخرجه من نفسه ويلزمه مراجعتها لتتقشع أوهامه، وينحسر تعاليه بثقافته وتفرّده وتميّزه! هذا أخوه الحلاق الوديع الذي لا يحسّ أحد وجوده، ويفضل أن يمشي في ظلّ الحائط، ويقنع بالقليل، يثبت أنه قادر على المواجهة في مقامها، وأن يكشف عوراته المموهة بالشعر والفلسفة، بعبارات مباشرة قصيرة فيها من الشجاعة بقدر ما فيها من الصدق.

كانت هذه الخواطر والتأملات تدور في رأسه وهو يمشي وحيداً في سهل طولكرم على غير هدى، حتى جلس على صخرة، ووضع رأسه بين يديه، وما هي حتى غلبه البكاء على نفسه ومن نفسه.. وحين رأى رشدي يقترب منه بهدوء وخطى بطيئة، مسح دموعه بسرعة، وأشاح بوجهه ينظر في فضاء ملبد بالغيوم.

أجال رشدي بصره في الطبيعة، ثم ذهب به إلى المدينة التي تقبع فوق تلتها وتشرف على سهلها! ثم قال بصوت عميق هادئ:

- طولكرم.. بلدة صغيرة على تلّة.. بسيطة من جهة، زي أي بلدة ريفية، ومعقدة من جهة أخرى.. بلدة بتنضج بسرعة من طفولتها الريفية.. محيّرة بين بساطة الطفولة اللي بتطلع منها، وبين هموم ومسؤوليات النضج اللي بتدخل فيه.. تماماً زي الإنسان لما يكون في مرحلة التحوّل.. النضج ولادة ثانية.. والولادة مخاض وأوجاع.. مع فرق.. هِون الإنسان يمارس ولادة نفسه، لازم يموت فيه شي حتى

يتولد فيه شي جديد.. أوجاع وصراعات وحيرة وبحث عن الشخصية الموزعة بين الماضي والحاضر والمستقبل.. وكلها بتتجاور وبتتصارع فيه. بتتعقد المشاكل لما يكون الإنسان ذكي.. معرفته أكبر من حاجته، وأكبر حتى من ظروفه. هون، ممكن لفترة من الوقت يعجز عن التمييز.. بالضبط بين الواقع والخيال، وحتى بين الخيال اللي بنطلق من الواقع نحو المستقبل المطلوب، وبين الوهم اللي بكون بديل عن الواقع. هون الأفكار بتتعالى على الواقع، وبتحاول تشكيله في قوالبها المسبقة.. بس الواقع أقوى وفي الأخير بفرض شروطه.

تريث هنيهة، بينما سأل صلاح بصوت واهن دون أن يلتفت إلى رشدي:

- يعني نستسلم للواقع؟

- أبداً، بس لازم نفهم شروطه ونتفاعل معه حتى نغير ونتغير. إذا ما عرفت كيف تتعامل مع النار ممكن تحرقك بدل ما تخدمك.

- شو هو الواقع، وشو هو الوهم؟

- الواقع إنك متأزم فعلاً.. وأنا متأزم.. وغيرنا كثير.. اللي مش واقع إنه أزمتنا هي أزمة أبطال سارتر اللي بتحكي عنهم كثير.. هذا وهم.. على الأقل بالنسبة إلنا. الواقع إنه قضيتنا قضية وطن مسلوب ومجتمع بعاني من التخلف.. اللي مش واقع في حالتنا هيّه قضية الإنسان المطحون في المدينة الصناعية القاسية.

تابع الحديث وهو يشير إلى سهل طولكرم من شرقه إلى غربه، فذكّر بأن السهل يبدأ ضيقاً من جهة «نور شمس» و«ذنابة»، ثم يبدأ في الاتساع أكثر فأكثر في اتجاهه نحو الغرب وبحر فلسطين. وحين يبدو كأنه يفرد ذراعيه على وسعهما ليحتضن البحر القريب، يقطعه خط النار مع العدو. وكل ما نحلم به أو نطمح إليه، يجب ألا ينسينا هذه الحقيقة. والحد بين المخيم والمدينة هنا، ينبغي أن يردنا إلى الحدود التي رسمها العدو بالنار. فهي الأصل في كل الحدود الأخرى.

ثم جلس إلى جانبه لأول مرة منذ وصوله.. واستأنف وهو يرمقه مصارحاً إياه بأن أصل تأزمه أنه ناقم على نفسه ومخيمه، وأنه يريد أن يتحرر منه ومن وصمته في أسرع وقت، وأنه يرى نفسه أكبر منه، بل أكبر من طولكرم كلها. ولذا يرى الناس جميعاً خصوماً وكأنهم تآمروا عليه شخصياً. ولكن، أوْلى به أن ينقم على من اقتلعوه وقومه ورموا بهم إلى المخيم.

مرت فترة صمت طويلة. ثم التفت صلاح إلى رشدي لأول مرة بأسلوب ينم عن الإعجاب والتقدير والدهشة معاً:

- عمري ما سمعتك بتحكي بها الطريقة.

ابتسم رشدي ابتسامة خفيفة:

- أنا بالفعل بسيط.. يمكن لأني عشت أكثر منك في القرية ووعيت على البلاد.. يمكن الريفي بميل للحقيقة البسيطة المباشرة، مهما كانت عميقة.. التعقيد أحياناً ماكياج.. ادعاء.. انتفاخ ثقافي مزيف.. بدلّ على أنه الشخص معني بصورته كمثقف، أكثر من قضايا الثقافة نفسها.. هون الشكل بسبق الوظيفة والجوهر.. إذا بدّي أستخدم مصطلحاتك.

بعد لحظة، ضرب على كتف صلاح بتحبب. ثم قام ومدّ يده إليه ليساعده على النهوض.. ثم سارا معاً في السهل نحو المخيم!

خليل.. الزميل الذكي المثقف بلا ادعاء ولا مجاملات.. الواقعي المخلص للحقيقة الفظّة.

وأخوه الحلّاق صالح الذي أعمل مقصّه في زوائد تمرّده بضربات سريعة، وجعله ينظر في المرآة.

وأخيراً، رشدي الذي استدرجه بحكمة متلطفة إلى مواجهة نفسه ومراجعة مساره.

هؤلاء جميعاً أسهموا في صحوته من حلم لذيذ وموجع معاً، وفي إعادة توازنه. ولن ينسى لهم ذلك أبداً.

أما نادية التي صنعها خياله الشعري، فسيعلم من خليل أنها لم تتصرف عنه خشية أهلها ومقالة الناس، ولكنها ارتبطت بحبيب آخر من شباب المدينة، ومن أسرة ميسورة الحال!

لم يشعر بالمرارة ولا الغضب، ولكن ذلك شحنه بعزيمة جديدة لأن يحقق هدفه في التفوّق في اختبارات الثانوية العامة، وفي أن يصير طبيباً مرموقاً يشار إليه بالبنان.. لتعلم الحبيبة القديمة وأهلها أي فتىً أضاعوا!

هل كان حب مراهقين لا حقيقة له؟ سيبقى مصرًّا أنه كان حباً حقيقياً في وقته على الرغم من كل شيء. كل ما في الأمر أنه لم يكن واقعياً حقاً كما وصفه خليل، وأنه إذ تلاشى تحوّل إلى مستودع الذاكرة. والذاكرة موطن الحنين.. ليس الحنين إلى الفتاة نفسها، ولكنه الحنين إلى ميعة الصبا ومدارج الشباب، بعد أن تنقضي آلامها، فلا يبقى منها إلا حكاية من حكايات العمر وأطواره، يقصّها الإنسان من مكانه المريح الآمن في المستقبل، متقلباً بين التهكم وروح الاحتفال بتجارب الحياة في حلوها ومرّها. ويبقى معها كذلك أثر من دهشة الحب الأول!

لا، لم يشعر بالمرارة من انصرافها عنه إلى آخر من «الوطنية»! ولكن.. نعم.. مرارة واحدة.. عطية الذي يقبع في السجن من أجله، وقد حكم عليه بسنة لإشهاره سلاحاً وإلحاقه ضرراً جسدياً بضحاياه. ولا عزاء لعطية، ولا فيه. عطية بطل بلا قضية!

ولا عزاء كذلك لأم صالح التي خسرت صاحبتها الحيفاوية أم ماهر. وبالطبع ألقت باللائمة على ولدها صلاح الذي حرمها من الصديقة الوحيدة التي تشاركها لهجة حيفا وذكرياتها، سقى الله أيامها.

«صاحبتك؟» قال صلاح مستنكراً. صار مستعداً للاعتراف بأخطائه وحماقاته وأن يعتذر لأبيه عنها، وأن ينقطع منذ الآن لدراسته تحضيراً لامتحان الثانوية العامة. ولكنه لم يتردد في الإفصاح لأمّه بأنه إن كان ثمة خير فيما جرى، فهو انقطاعها عمن تصفها بالصاحبة.

«حيفاوية عن حيفاوية بتفرق». ذهبت حيفا وكرملها وهادارها وبحرها، أما الآن فحيفاوية في بيت جميل من بيوت المدينة، وحيفاوية من أهل المخيم. واللهجة المدنية والذكريات القديمة لا تكفي لتذويب الفروق القائمة. وإذا كانت أم ماهر تهدي أم صالح بعض ثيابها المستعملة بين الفينة والأخرى، وترى أم صالح ذلك مما يكون

بين الأخوات، فأين التبادل الذي يقع بين الأخوات حقا؟ بل هي صدقة لا أكثر. ومن التي تبادر إلى الزيارة؟ هل بادلتها أم ماهر زيارة بزيارة في أي يوم؟ وهل دعتها يوماً إلى اليوم الذي تخصصه لاستقبال صاحباتها من نساء المدينة؟

لطالما واجه أمّه باعتراضاته تلك، فلم تكن تصغي إليه، حتى وقع منه ما أنهى تلك العلاقة، وهو عين المطلوب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

إذا كان صلاح قد تطلع بقلبه إلى الأعلى، وإلى خارج المخيم، فإن أخاه الأكبر صالح كان يطوي صدره على حب صامت، ليس فيه شيء من صخب أخيه.. ولكن عواطفه لم تغادر المخيم، بل ذهبت إلى بيت دون بيتهم.. بيت من أكثر البيوت بؤساً وفقراً. بيت أم محمود وابنتها صبحية. بل كان يتجنب أن يحدّث نفسه بلفظ الحبّ لما يلابسه من معاني التأثيم في وسطه الاجتماعي. أهو عطف أم عاطفة، أم أن هذا من ذاك؟ كيف له أن ينسى رعايتهم له وهو في ضياعه يوم التهجير؟ كيف له أن ينسى قطعة الخبز التي قدمتها له صبحية الطفلة وواساه جلوسها إلى جواره في تلك المحنة!

ومنذ أن بدأ يكتسب رزقه بنفسه من محل الحلاقة، صار بوسعه أن يزيد من مساعداته لبيت أم محمود من الطعام والثياب دون أن يستشير في ذلك أباه، أو يطلب منه على تردّد واستحياء.

كان يراود نفسه على أمر مؤجّل، ولكنه في زيارته الأخيرة لبيت أم محمود يحمل لهم بعض الأغراض كعادته، أطلت صبحية وفوجئ بدموعها تنهمر من عينيها. وحين هَمّ بسؤالها على حذر، اختفت بسرعة داخل الغرفة الوضيعة. وضع ما بيده على مصطبة البيت وعاد حائراً.

لم يطل الوقت حتى عرف السبب. فقد خطبها شيخ تجاوز السبعين، وأمها تراودها على القبول، وهي تأبى.

لم يكن ذلك الشيخ غير «أبو عايد»!

لأول مرة يراه أهل البيت غاضباً متسخِّطا، لا يتورّع عن الشتم.

أبو عايد مرة أخرى. هذا الرجل «العايب الشايب» كأنه أخذ على نفسه عهداً أن يذيق أسرته المرّ.. من أيام البلاد إلى أيام المخيم الآن.. أولاً أبوه، ثم عمّه حسن، رحمه الله، حين وشى بحبيبته عند أبناء عمومتها، كما سمع من أهله. فقُتِلت الفتاة وأورث عمّه حسن حسرة العمر حتى أفضى إلى ربّه شهيداً، ثم عمّه عليّ في أمر تلك المدرسة عند ضريح الوليّ.. ثم عمه مسعود الذي ظن أنه يذلّه لولا أن ألزمه حدّه، وسبق إليه بالإذلال.. والآن..

تدخلت أم أحمد وسألته:

- هسّع مين؟ شو دخلنا إحنا؟ بنت وأمها، وشو حارق دمك انت؟

تردد لحظة، ثم قال:

- الذمّة.. حق الوفا للناس اللي نشلوني وأنا ضايع..

علقت جدته من جديد:

- عالعين والراس.. وإحنا ما بنقصّر.. وانت ما بتقصّر.. بس هذي شغلة بين البنت وأمها وأبو عايد.. وعلى قولة المَثَل: «أنا راضي وأبوها راضي وإيش ما لك فينا يا قاضي»..

صاح من جديد:

- مش راضية.. مش راضية.. ووين أبوها حتى يرضى والا ما يرضى.. ما هوه راح في التسلل في هذاك الوقت.

ردّت أمه الآن:

- ما هوه لو ظل أبوها عايش كان ما تشحروا هالشحار.. وكان أجاها شاب مليح غير أبو عايد.

زادت الجدة:

- وبعدين، شو ما قلنا في أبو عايد.. بظل إنه كان زعيم أيام البلاد، وهسّع مختار المخيم. على الأقل بستر على البنت.. شو بصير فيها إذا ماتت أمها؟

أجاب:

- وأبو عايد ما بدّه يموت؟ ما هوه أكبر من أمها، ويا دوب حامل اجريه. يا ناس والله حرام. والزعامة تبعته راحت مع البلاد يا جماعة.. شو بدّها تنفعها؟ وشو اللي خرّب بيوتنا غير الزعما اللي من نمرته.

قالت الجدّة وقد نفد صبرها:

- طيب يا شاطر.. جيب لها شاب أصغر عليه القيمة، وأنا بضمن إنه أم محمود تردّ أبو عايد.. ما هيه ما أعطته كلمة لهالحين.

ألقت العبارة من باب التعجيز وإنهاء الكلام الذي لا جدوى منه. ولكنها وفتحية فوجئتا بصالح يقول:

- آه عندي شاب إلها.

اتجهتا بأنظارهما إليه حائرتين في مغزى كلامه، ثم جاءت المفاجأة الكبرى:

- أنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آثرت الجدّة أم أحمد ألا تفصح عن رأي في الموضوع. فلم تقل خيراً ولا شرًّا. أما أبو صالح وفتحية فلم يترددا في إبداء اعتراضهما. والحُجَّة أن الوقت مبكر على الزواج. وكيف له أن يساعد في تعليم صلاح كما تعهّد وينفق على زوجة في الوقت نفسه، وحتى لو كان في الوسِع تدبير ذلك، فلِمَ التسرّع قبل أن يعطي نفسه فرصة في التفكير والانتقاء، فالبنات كثُر، وقد يغيّر رأيه بعد وقت.

ردّ صالح بأن الزواج من صبحية لن يكلّفه الكثير، فالغرفة متوفرة، ولقمة الواحد تطعم اثنين. ولن تكون النفقة عليها أكثر من الصدقات التي يخرجونها لأمها ولها.

اعترض أبو صالح:

- يعني بدك تتجوزها صدقة؟ والا ردّ جميل على اللي عملوه لك لما ضعت؟

أجاب صالح:

- أبداً.. أنا بالفعل راغب فيها.

قال أبو صالح متبرِّما:

- ليش بنت أم محمود من دون العالم؟ أنت شو ناقصك؟

اهتزت ملامح صالح إذ وشى أبوه بما يداري في نفسه:

- وهيه شو ناقصها يابا؟ قصدك..

سُمِع هنا صوت صلاح وقد وقف عند الباب:

- قصد أبوك إنه إحنا وضعنا أحسن من وضعهم، وانت بتستحق بنت أعلى مستوى.. لاجئ عن لاجئ بفرق! وهيه وأمها مقطعات، لا أب ولا عم ولا خال ولا أخ.

تغضن وجه أبو صالح، وأطرق صامتاً. ما أشبه الليلة بالبارحة. هكذا تحدث حسن في يوم بعيد. واستأنف صلاح وقد اقترب من أبيه متحدثاً بصوت عميق ليس فيه أثر من حدّته السابقة:

- إذا كان عليّ.. أنا ما بدّي أخوي يصرف عليّ ويضحّي من أجلي.. وعمي مسعود تعهّد بتعليمي.. وحتى لو ما نفذ تعهده، أنا بروح دار المعلمين زي رشدي، وبعدين بشتغل أكم سنة وبجمع مصاري بعلّم نفسي فيها. أحسن مني عملوها.

تريّث لحظة، ثم قرفص أمام أبيه، وتابع بصوت مفعم بالحبّ والعطف:

- انت مجاهد قديم يابا.. بعت الدنيا كله منشان تجاهد وترضي ربك وتعمل لوطنك وشعبك. كان ممكن تستشهد منشانهم. ما استكثرت عليهم روحك، هسّع بدك تستكثر عليهم نسبك؟ له يابا.. هذي ما بتركب على هذي!

كان صالح يراقب وينصت إلى مرافعة أخيه عنه، وقد بلغ به التأثر مبلغاً عميقاً حتى ابتلّت عيناه بالدموع. أما أبو صالح، فرقّت ملامحه، ثم رفع رأسه من إطراقته ونظر إلى ولديه نظرة حب واعتزاز. وهز رأسه لصلاح وقد لاحَ على وجهه طيف ابتسامة الرضا.

وما كان للأخوين أن يدركا أن عمّهما الشهيد حسن كان يقف إلى جوارهما، وأنه ضمّ صوته الخفي إلى صوتيهما. وكان أبلغ الجميع.

أقبل صالح على أبيه واحتضنه وقبّل رأسه ويده، بينما وقف صلاح وتراجع خطوتين ينظر سعيداً مبتسماً. استدار إليه صالح واحتضنه بحرارة. ثم خاطب أبو صالح ولده صلاح:

- وانت.. ما بدّك تبوس راس أبوك وإيده؟

وفعل.

وبعد أيام انطلقت الزغاريد من بيت العائلة ومن بيت أم محمود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الدكتور علي الشيخ يونس

(عالِم بين عالَمَيْن)

1

شتاء ١٩٦٦

انشغلت الأسرة أياماً في الاستعداد للمناسبة الخاصة التي انتظرتها طويلاً. فعملت على إصلاح شقوق الجدران وعزل السقوف بطبقة أخرى من الصفيح كيلا يدلف منها مطر الشتاء، وأعيد تمهيد الأرضيات وسدّ الحفر الصغيرة فيها. وطليت الجدران الداخلية والخارجية بطلاء ملوّن مطبع برسم الزهور. وأعدّت غرفة خاصة للزوار، وضع فيها سريران يدخلان البيت لأول مرة. فالجميع ينامون على فرش تُبسَط على الأرض. ولكن هذا لا يليق الآن بالدكتور علي الشيخ يونس وزوجته سلمى.. والحقيقة أن كل هذه الاستعدادات والإصلاحات والإضافات معنية بسلمى، ابنة العز والحسب والنسب، في المقام الأول. هذه أول مرة تزور فيها بيوت العائلة في المخيم لتقيم بضعة أيام مع زوجها وابنتها مها البالغة ثلاث سنوات.

شيء واحد لم يكن بوسع الأسرة أن تغيّره: وجود مرحاض عربي خارجي واحد في حوش البيت للأسرة كلها! ولكنهم مع ذلك بذلوا جهدهم في تحسينه.

وإلى جانب الاستعدادات المادية، صدرت التعليمات الصارمة من أبو صالح بطرق السلوك اللائق أمام الضيوف، فلا صياح ولا ضجيج، مع ضرورة التأدب في الكلام وتناول الطعام، والاهتمام بنظافة المظهر.

والحقيقة أن سلمى كانت تدافع ضيقها بتلك الزيارة، فهي تعرف ما ينتظرها في المخيم. ولم تكن الظروف المادية والمعاشية وحدها ما يقلقها، وإنما كذلك العلاقات والعادات الاجتماعية المختلفة الغريبة عنها.

وبقدر ما تخشى أن تضيق بها، فإنها تخشى أن يغلب عليها النفور ويرى الناس ذلك منها، فيظنوا بها التعالي والترفّع، فتُحرج نفسها وزوجها، وتترك للقول فيها سبيلاً. ولكن ما بوسعها أن تفعل غير المضي مع زوجها في زيارته الأولى للبلد والأهل بعد حصوله على درجة الدكتوراه في الفيزياء النظرية قبل زهاء سنتين، بتفوق استثنائي، جعل جامعة برينستون التي تخرّج منها تعرض عليه العمل فيها عضواً في هيئة التدريس، وهو ما يتمناه كبار العلماء النابهين الأمريكان أنفسهم. وفوق ذلك بدأت بعض المؤسسات والوكالات العلمية والتقنية تطلب خدماته البحثية، وكل شيء ينبئ أنه سيكون شيئاً مذكوراً في الوسط العلمي والأكاديمي والتقني في الولايات المتحدة. وقد تردد أولاً في قبول عرض العمل في جامعة برينستون، حتى اقتنع أخيراً بأن الفرص التي تتيحها الولايات المتحدة لأمثاله، لن يجد منها في بلاد العرب. وما عليه لو مكث هناك بضع سنين، على الأقل، ثم يرى رأيه في البقاء أو العودة.

وبالطبع كان لسلمى دور في إقناعه. ثم حاولت أن تثنيه عن عزمه على زيارة الأهل تلك السنة. ولكنه أصرّ. وها هي الآن تستعد معه لزيارة أسرته في مخيم طولكرم، بعد أن نزل معها ثلاثة أيام في بيت جدّها في عمّان، وتستعين على مشاعرها الخفية بأن تذكّر نفسها بكل ذلك الكلام القديم الذي احتجت به عند جدها لتقنعه بالموافقة على خطبة عليّ لها، على الرغم من الفروق الواسعة. والآن لم تعد الفروق فقط بين

أسرة جدها من جهة وأسرة الشيخ يونس من جهة أخرى، وإنما هي كذلك بين عليّ نفسه وأسرته الصغيرة، وبين أسرته الكبيرة!

وعلى الرغم من تلهف الأسرة على لقاء ابنهم الدكتور عليّ، ومفاخرتهم به، فإن أم أحمد لم تخفِ على ابنها الأكبر أبو صالح ضيقها بأن يُقدّم ابنها الأصغر النزول أولاً عند أصهاره في عمّان على أسرته في المخيم. فمن الأوْلى؟ حاول أبو صالح أن يسوّغ تصرف أخيه بأن عمّان في طريقه إلى الضفة الغربية، ولكنها أصرت على رأيها، ورجحت أن زوجته قد حكمت عليه! ومن يدري، لعله بات يستحي بأهله، وأحوالهم أمامها، ولولا مراعاة أهله لربما فضّل أن يزورهم وحده! والأصول أن المرأة إذا تزوجت صار عليها أن تلزم زوجها، وتقدّم ما يقدّم على كل شيء.

اعترض أبو صالح بأن هذه ليست طبيعة عليّ ولا أخلاقه، وأن الغائب عذره معه.

أين الدكتور عليّ صالح الشيخ يونس الذي تلقفته أرفع الجامعات الأمريكية، أين هو الآن من ذلك الصبيّ القرويّ الذي كان يرتدي ثوباً بالياً مرقعاً ونعلاً مهترئاً تخرج منه أصابعه، ويشترك مع أخيه حسن في دفتر واحد في كتاب القرية؟ وأين شيخ الكُتّاب الذي سخر من مظهره ومظهر أخيه الرثّ، واستنكر على أبيهما أن يتكلّف تعليمهما، على فقره ورقّة حاله؟ الفرق بين عليّ الصغير ذاك وعليّ الذي يحمل الآن درجة الدكتوراه في الفيزياء النظرية كالفرق بين كُتّاب القرية وجامعة برينستون. ولطالما عاودته هذه المقارنة وهو يقف على البسيط الأخضر أمام مباني الجامعة العظيمة في نيوجرسي. ولقد يخالطه بعض اللوم لنفسه من تلك المقارنة التي يمكن أن تنطوي على شيء من التصغير لمنبته المتواضع. ذلك المنبت هو وطنه وهويته وذاكرته وسيرته وكفاحه وكفاح أهله. لا أحد يعرف مصير شيخ الكُتّاب ذاك، وإن كان ما يزال حياً أم أفضى إلى ربّه. ولكن أبو عايد ما يزال حيًّا، وقد قنع من الحياة في المخيم بختم المختار. وسيكون عليه الآن، وقد علم بما حققه عليّ وأنه يزور أهله قريباً، أن يذهب لتهنئته وتهنئة الأسرة التي صاهرها قبل النكبة على مضض وترفّع. وعليه أن يتجرّع المرارة المتجددة كلما رأى تقدّم أبناء الشيخ يونس من نجاح إلى نجاح. فهذا صلاح قد صار في السنة الرابعة من دراسة الطب في جامعة القاهرة، ويوشك أن يصير طبيباً يشار إليه بالبنان. ولكن الأغرب هو مشاعره الملتبسة تجاه مسعود، زوج ابنته لطيفة، الذي صار رجل أعمال في الكويت يتاجر في مواد البناء مع شريك كويتي محترم، ويعمل له موظفون وعُمّال. فمن المفترض أن يسعده نجاح صهره وما يأتي معه لابنته لطيفة من نِعَم المال والمسكن والملبس والرقيّ. ومع ذلك فإن صدره لم يبرأ من حسد مسعود. فإذا كان عليّ قد ارتفع بالتعليم الذي لم ينجح فيه أولاده، فإن مسعود لم يؤت حظاً من التعليم أكثر من حظ أبنائه، وقد صحبه عايد في رحلة التسلل إلى الكويت، فبلغ مسعود ما بلغ من النجاح والثروة دون عايد الذي كان غاية ما وصل إليه هو العمل موظفاً عند مسعود.. مسعود الشيخ يونس.. ابن «الغربيّة المقطّعين»! هل يدفع أبو عايد الآن ثمن آثامه وخطاياه القديمة أيام الزعامة، وأيام البلاد؟ لا يستطيع أن يتحرر من هذه الخاطرة، فيكثر الاستغفار، ويزيد على الصلاة المفروضة بالنوافل، لعل الله أن يغفر له، فيعقب عليه في أواخر أيامه بما يصلح باله وحاله من بنيه، ولكن حتى يحدث ذلك فإن صلاته واستغفاره لا يحرران من مشاعر الغيرة والحسد والمرارة

من تغيّر الزمان وتقلب الأحوال والأدوار. ألا لعنة الله على الإنكليز والصهاينة، فهم أصل الداء ورأس البلاء!

وقف الناس أمام بيوتهم يرقبون الدكتور عليّ وزوجته الأنيقة سلمى يعبران أزقة المخيم الموحلة نحو منازل العائلة، يحيط بهما أبو صالح وصالح ومحمود الصغير، آخر أبناء أبو صالح، الذي يبلغ الآن التاسعة من عمره. وكان عليّ يحمل ابنته الصغيرة ذات السنوات الثلاث. خشية أن تخبط في الوحل وتتزلق به. أما سلمى فكانت تحيط شعرها بمنديل أنيق لا ترتديه في العادة، ولكنها استجابةً لرغبة عليّ مراعاةً لمجتمع المخيم. واختارت من فساتينها أطولها. ومع ذلك بقي المنظر غريباً على الناس. وتهامست بعض النساء عما جاء بامرأة مثلها إلى المخيم، حتى لو كانت زوجة واحد من أهله. ولكن، أما يزال عليّ من أهل المخيم وقد صار إلى ما صار إليه كما ذاعت الأخبار؟ بل إن منظره قد تغيّر، ليس فقط في ملبسه وقبعته الصوفية ونظاراته السميكة، ولكن كذلك في بشرته التي تبدو أكثر نقاءً وبياضاً ونعومة. أهكذا يفعل الرقيّ والتنعّم والعيش في بلاد «الخواجات»؟

لم يكن المنظر غريباً على العيون التي تنظر فقط، وإنما كذلك على سلمى نفسها التي طغى عليها الشعور بالغرابة والغربة، وهي العائدة من أرض الغربة! وجعلتها العيون التي تحاصرها والهمسات التي تتناهى إلى سمعها، تشعر بمزيد من الضيق والحرج. وكانت تنقل قدميها بالكعبين العاليين بصعوبة وبطء خشية أن تنزلق في الوحل.

وفجأة انغرز أحد نعليها في الوحل وخرجت قدمها عارية منه وكادت أن تفقد توازنها وتقع على الأرض، لولا أن تلقاها علي بإحدى يديه، بينما كان يحمل مها الصغيرة بالأخرى. فأسرع صالح وتناول الطفلة من يده. وهنا شهد المراقبون منظراً غريباً سيضاف إلى حكايات المخيم. علي الشيخ يونس يُسنِد زوجته التي تقف على رجل واحدة كيلا تخبط بقدمها الأخرى العارية في الوحل، وفي الوقت نفسه يلتقط الحذاء المنغرز ويضربه على حافة عتبة بحذائه ليزيل منه طبقة الوحل الغليظة التي علقت به، ثم يلبسها إياه! وهذه المرّة لم تعد التعليقات همسات مبهمة:

- عزاااا.. شايفين يا بنات؟

وأعقب ذلك ضحكات مكتومة ولكنها مسموعة، وحولت مشاعر سلمى من الضيق إلى السخط، وظهر ذلك على وجهها. أما أبو صالح فشعر بحرج شديد، انقبضت معه ملامحه. وتمنى لو جاءهم أخوه بمفرده، حتى لا يختلط شعور الفرح والفخر به مع شعور الحرج أمام الناس.. وأمام سلمى! وهو ما سيلازم الأسرة طوال الأيام التي سيقضيها علي وزوجته عندهم!

انهالت القبلات مُفَرْقِعةً على خدود سلمى وابنتها الصغيرة. وكادت سلمى أن تمسح آثار القبلات عن خدّها، لولا أنها تداركت نفسها، ولكن الطفلة بادرت بحركة عفوية بريئة إلى مسح خدها بعد أن أمطرتها أم أحمد بالقبلات، فصاحت بها جدتها بلهجة الدعابة:

- وَلِك، قرفانة من ستك يا قليلة الأصل؟

وبينما ضحكت فتحية وعائشة وصبحية (زوجة صالح)، حاولت سلمى أن تخفي امتعاضها ما وسعها ذلك وإن بدا بعضه في ملامح وجهها. ولكن، إذا كانت قبلات

العائلة مما يجب أن تتغاضى عنه مراعاة لمشاعر الأهل، فماذا عن سيل القبلات التي سيدهمها مع ابنتها من نساء المخيم اللواتي سيتدفقن على البيت للسلام والتهنئة مع الزغاريد؟ وما يدريها بأحوالهن الصحية ومستوى نظافتهن الشخصية؟ هل يجب أن تغضي عن هذا أيضاً؟ بعد أن تكرر ذلك إلى حد لم تعد تطيق صبراً عليه، قررت أن تستبق الزائرات بمد ذراعها على طولها للسلام مع الدفع والضغط الخفيفين اللذين يكفيان للردع وردّ الزائرة المقبلة، وتزيح ابنتها إلى الخلف قليلاً.

وبالطبع لم يَفُتْ مغزى هذا التصرف على الجدة أم أحمد وفتحية وعائشة التي بلغت الآن نحو الثامنة عشرة من عمرها، وبقي عليها سنة واحدة من المرحلة الثانوية. وكان مزاجها في منزلة بين المزاج المعتدل لأخيها الأكبر صالح، والمزاج المندفع لأخيها صلاح. وما كانت لتبلغ المرحلة الثانوية لو تُرك الأمر لأبيها الذي كان يرى أن البنت لا تحتاج إلى أكثر من إتمام المرحلة الإعدادية قبل أن تتزوج. ولكن إصرارها وافق تدخل عمّيها مسعود وعليّ وأخيها صلاح من أجلها. بل ألحّ هؤلاء على ضرورة التحاقها بالجامعة بعد الثانوية أسوةً بالذكور. وتعهد عليّ بالإنفاق على دراستها الجامعية في الجامعة الأردنية الفتيّة التي أُنشِئت حديثاً في عمّان. وكان هذا خارج تصوّر أبو صالح. ولكن الدنيا تغيّرت، كما تردد في كلام مسعود، ورسائل عليّ. والزواج كالبطيخة لا تعرف لون داخلها. ولا ضمان إلا بالشهادة، شأن الفتاة في ذلك شأن الفتى.

ولكن هذا كلّه لم يشفع عندها لزوجة عمّها الآن، وقد رأت منها ما يوحي بالترفّع: تجنب الأحضان والقبلات، منع ابنتها من الخروج من باب البيت، إيثارها الصمت أو اقتضاب الكلام مع الزائرات، تقلّبها الواضح في جلوسها على الأرض من جانب إلى آخر، على الرغم من اختصاصها بالمساند والحشايا، مبالغتها في طقوس النظافة، تمنُّعها عن تناول الطعام من الطبق الكبير مع الآخرين، إلا أن يؤتى لها بصحن، فتأخذ من الطعام لنفسها وابنتها، ولا تأخذ إلا القليل.

لا، لم يكن ذلك الجو مريحاً لأحد. ولكنهم كتموا مشاعرهم، إلا عائشة التي علّقت أمام أمها بأسلوب متهكم، مردّدة عبارة لطيفة الأثيرة التي كانت تسمعها منها: «ينعل أبو اللي أحسن منا».

نهرتها أمها وهي تغالب ضحكتها:

- ولي هدا عمّك اللي لولاه ما وصِلتِ للثانوية، واللي تعهّد بتعليمك في الجامعة.

أجابت فوراً:

- ولولا أبوي ما صار الدكتور عليّ..

ثم استدركت:

- عمّي على عيني وراسي.. بس مرته شايفة حالها وما عاجبها العجب.. والكل بركض منشان يخدمها.

- لا تلوميها.

وأضافت بشيء من الدعابة:

- هوه كل المدنيّات بصبروا على هالعيشة وبتعودوا عليها زي أمك؟

أحبّت عائشة أن تناكفها قليلاً:

- بس لأنها مدنية؟ مدنية عن مدنية بتفرق يمّه!

وأردفت بمزيد من التهكم متقمّصة لهجة سلمى:

- والّا أأول يا ماما!

ردّت فتحية:

- طب ضبي لسانك.. هادي لهجة إمك كمان.. بس ما طلع بإيدي أخليكم تحكوا زيي.

- آه، منشان نصير مضحكة عند أهل المخيم!

انفجر الجوّ حين خرجت سلمى من الغرفة لترى ابنتها تلحس حبة «عنبر» - تفاحة صغيرة تكسى بطبقة من السكر الملون بالأحمر ويُغرز فيها عود. وكان محمود الصغير قد اشتراها لها من بائع متجوّل مع أخرى اشتراها لنفسه. لم تتمالك سلمى نفسها وأسرعت إلى ابنتها وخطفت الحبة من يدها وقذفتها في برميل الزبالة وهي تصيح:

- مين اللي جابلك هالوسخ؟ ألف مرة قلت لك لا تاخدي إشي من حدا، وتظلّي جنبي طول الوقت!

كانت تعرف الجواب، وقد رأت محمود يلحس حبته. وأرسلت إليه نظرة غاضبة. فتوقف عن اللحس منكسفاً. ثم قذف حبته، وأسرع داخلاً إلى البيت. وشهد الجميع الموقف: أم أحمد، وفتحية، وعائشة،.. وعليّ الذي وقف منقبضاً، وتبادل نظرة مع أمّه التي اشتدّ عبوسها، ثم توارت في غرفتها.

آن أوان التدخل واللوم والعتاب.

- كان لازم تتمالكي نفسك، وما تكسفي الولد، وتشعريه وتشعري الجميع إن اللي بصلح له ما بصلح لبنتك..

أجابت بنبرة قاطعة:

- أنا مش مسؤولة عنه، أنا مسؤولة عن بنتي وصحتها..

- أنتِ مش طبيعية من ساعة ما وصلنا.

- كيف يعني مش طبيعية؟ لازم أرقص؟

- انت عارفة قصدي.. الكل بجاملك، وانتِ..

- كيف بدّك إياني أجامل.. لا حكيي حكيهم ولا حكيهم حكيي.. مش قصدي أهلك.. قصدي النسوان اللي بيجوا.. انت ما بتقعد معهم وبتسمع زيي.. هادي بتجوّز بنتي لمحمود من هلأ.. قال ابن العم بنزل بنت عمّه عن الفرس.. وهادي بتقول لي: إن شاء الله بجيك صبي. وثانية بتسب على البنات وهَمّ البنات. وثانية سمعتها بتهمس لأمك: هيّه مرة ابنك بتفرّع قدام الزلام؟

- يعني شو كنت متوقعة؟ يناقشوك في نظرية «الجشطلت» في علم النفس.

- وهمّه مش لازم يتوقعوا مني أحكي عن هَمّ البنات وسترتهم بالجيزة..

- لأ، بس المفروض إنه المتعلم المحظوظ يتفهم وضع الناس المحرومين.. مش يزدريهم؟

- أنا ما بزدري حدّ.. بس دور المثقف، زي ما بفهمه، هوه إنه يعلم الناس حتى يغيروا العادات الغلط.. الصحية والاجتماعية.

- بالتدريج، وبدون ما يجرح مشاعرهم. وبعضها مش خيار منهم، ولكن بفعل الظروف الصعبة.

- والله فاهمة.. بس كيف أنا مفروض أتصرف، وما فيه غير مرحاض عربي واحد للكل.. وما فيه توصيلات ميّة.. لما الواحد بدّه ياخذ حمام لازم يجيب مية ويسخنها في تنكة على بابور الكاز، ويتحمم في الغرفة ورا ستارة عند فتحة التصريف للخارج.

قفزت فجأة من مكانها وهي تصيح وتشير بيدها:

- صراصير.. صراصير..

أسرع عليّ إلى قتلها بالنعل، وهي تنظر بتقزز.. ثم انفجرت باكية.

- كيف بدنا ننام بين الصراصير؟ ممكن يطلعوا علينا وإحنا نايمين.. أنا مش طايقة.. مش قادرة.. مش بإيدي.

جلس عليّ على حافة السرير مطرقاً.. ثم تحدث بصوت هادئ عميق مذكّراً زوجته بالكلام الذي دار بينهما في أثناء دراستهما في الجامعة الأمريكية في بيروت قبيل الخطبة، وكيف كان صريحاً معها في تصوير الظروف بلا رتوش، وكيف كانت ردود فعلها الجميلة في ذلك الحين.

أقسمت له أنها لم تغيّر شيئاً من أفكارها، بل هي الآن أكثر تفهماً وتعاطفاً بعد أن عاينت الأوضاع بنفسها، وأنها ما كانت لتختار عليه رجلاً آخر، فهو أفضل ما وقع لها في حياتها. وإن كان ثمة من لا يستحق الآخر فهي من بينهما، وهي لن تنفك تحمد الله الذي وهبها إياه. وحسبه أن كل ما حققه لنفسه ولها، كان من صنع نفسه مع توفيق الله، على الضدّ من كل الظروف الضيقة. أما هي فقد وجدت كل شيء ممهداً لها. فهو زوجها وحبيبها وبطلها أبد العمر. ثم توسّلت إليه أن يتفهم ضعفها ويعذرها على ما غُلِبت عليه من عدم الصبر والاحتمال. ولسوف تبقى تؤيده في دعم أسرته الأولى والوفاء لهم دائماً وبلا تردد.

كانت نبرتها مفعمة بالحرارة والصدق. وانتهى به الرأي والتفكير إلى أن تسبقه إلى عمان حيث منزل أهلها. فذلك أهون عليها، وأهون عليه إذ يجنبه المزيد من الحرج. وسيعتذر عنها بأن إجازتهم قصيرة قبل العودة إلى أمريكا، وأنها لم تتمكن بعد من لقاء أقاربها جميعاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

ما لم تفصح عنه الألسنة من الشعور بالارتياح لمغادرة سلمى، وشت به أسارير الأسرة المنفرجة وتصرفاتها العفوية وانطلاقها في الكلام مع العم الحبيب وتحلّقها حوله. ليس عليها الآن أن تتصرّف على غير عاداتها وسجيّتها، وأن تحسب حركاتها وسَكناتِها على وفق ما يناسب سلمى. ولم يخف ذلك كله على عليّ. وهو أيضاً شعر بأنه تخفف من حمل ثقيل. الآن يستطيع أن يفعل ما يريد فعله مع أهله، وأن يقول ما يريد قوله، دون أن يتأكد أولاً أن سلمى لا تسمع ولا ترى. وليس ذلك خشية اعتراضها، فما هي كذلك، ولكن حفظاً لكرامة أهله ودفع الحرج عنهم أمامها.

مدّ يده برزمة من النقود لأخيه أبو صالح، الذي نظر متعجباً ومستنكراً في آن. أخبره عليّ أنه يريد منهم أن يحسِّنوا وضع البيت، فيشتروا طقم كنب، وخزانات وأسرّة. اعترض أبو صالح بأن البيت لا يتسع لهذه الأشياء. ولكن عليّ أصرّ على ذلك. والحقيقة أنه أراد أن يعطي أخاه الأكبر تلك النقود وتذرّع له بتلك الأسباب. ثم له أن يتصرف بالمال على مشيئته.

ثم أردف عليّ بأنه يرجو شراء جهاز راديو ترانزستور لعائشة. وفهم أبو صالح من اختصاص عائشة بالجهاز أنها أسمعته رغبتها على نحوٍ ما.

تمنّع أبو صالح على الرغم من إلحاح عليّ، حتى تدخلت أم أحمد وخاطبته بلهجة آمرة:

- طب خذ من أخوك. يعني هو بتصدّق عليك؟ كل واحد بحمل الثاني عقدّ قدرته.. في يوم انت كنت حامله وحامل الكل.

أيّدها عليّ بقوة. وكرر الكلام عن فضل أخيه الأكبر، وأنه لولاه لكان الآن يعمل في الحقول أو بعض الصنائع. فكل ما أنجزه منسوبٌ إليه.

قَبِلَ أبو صالح النقود أخيراً. ثم تحول عليّ إلى أمه:

- وانت يمّه.. صار الوقت تتريّحي.. شفتك بعدك بتشتغلي في البيت: غسيل وطبخ و.. والبيت ملان باللي يحمل عنك.. عائشة وصبحية ومرة أخوي.. والشباب.

أجابت بحسم:

- إن شا الله ما أعيش لليوم اللي ببطّل فيه أقدر أغسل ثوبي وأطبخ طبختي.

قال عليّ:

- الله يطوّل عمرك يمّه.

بدا أنها نقزت:

- لا تدعي عليّ يمّه.

- أنا بدعي لك.

- لع يمّه.. هيه عيشة لما الواحد يتكرسح ويصيروا الناس يحملوه؟ إذا بدك تدعي لي قول إن شا الله ما تموتي إلا وانت واقفة زيّ هذيك التينة.

وأشارت إلى التينة العالية التي زرعها مسعود في حوش البيت في سنة النكبة. وتابعت:

- عاد إن شا الله طولة العمر إلكم ولأولادكم. إحنا أخذنا نصيبنا منها.. المليحة والعاطلة. وظل حُسْن الختام.

أطرق عليّ لحظة، ثم رفع رأسه ونظر إلى أمه:

- طيب يمّه، ليش ما أطلعك من المخيم.. تيجي عندي لأمريكا.. أو..

قاطعته وقد انتفضت ملامحها كأن أفعى قد لسعتها:

- أمريكا؟! فيه هناك أم محمود وأم عطية وأم فايز وأم.. يعني زي السمكة اللي تطلعها من البحر..

- وهذا المخيم بحر؟

- الناس يمّه.. الناس.. أنا ما بطلع من المخيم إلا لمطرح من مطرحين.. يا للقبر.. يا للبلاد التي راحت.

ثم نظرت إلى أبو صالح الذي كان يستمع واجماً:

- وأبو صالح.. كلكم تيجان راسي وأولادي.. بس أنا ما بقبرني إلا أبو صالح!

جاشت عواطف أبو صالح حتى كاد ألا يمسك دمعته. ثم قال بصوت متهدّج:

- الله أعلم مين يدفن الثاني يمّه.

ردّت الأم:

- الله لا يذيقني حسرة على حد منكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أثر الكلمة

(بطل من أجل قضية)

1

حين وصل صلاح في صيف ذلك العام من القاهرة لزيارة الأهل في الإجازة، كانت الأسرة ما تزال تتحدث في زيارة عليّ وسلمى قبل شهور. كان قد أنهى السنة الرابعة من دراسة الطب. ومن الآن صار ينادى بالحكيم أو الدكتور. وكان قد هجر الشعر إلا ما يعاوده من نفثاته من حينٍ إلى آخر، دون رغبة في النشر. فدراسة الطب لا تترك له مساحة لينشغل بغيره. ولكنه كان يعد نفسه بالعودة إليه وإلى قراءاته الفكرية بعد أن يفرغ من دراسته وتدريبه. وبدا أنه تغيّر كثيراً. فهو أمْيَل الآن إلى الحسّ الواقعي، وإلى الاعتدال في الأحكام. ولم يبقَ فيه من مزاجه القديم إلا الاعتداد بالنفس الذي يعزّزه لقب الدكتور وهو ما خفف في الوقت نفسه من نقمته على واقعه.

فاليوم ليس كالأمس. وبعد سنتين فقط يصبح طبيباً بكل معنى الكلمة، والطريق أمامه مفتوح على وعود المركز والمال والزوجة الجميلة الراقية. فما الذي يدعوه إلى الشكوى بعد؟

ولكن صاحبه وبطله القديم «عطيّة» لا يدرك ذلك، وما زال يعيش في زمان تلك الصحبة، فما إن سمع بزيارته حتى جاء يسأل عنه. ولكن صلاح لا يريد الآن أن يقابله، وقد انقضت تلك الظروف والأسباب التي جمعت بينهما في أيام الرفض والتمرد والغضب. فطلب من أهل بيته أن يعتذروا له. فمرَّة بأنه غير موجود في البيت، ومرة بأنه نائم، ومرة بأنه متوعّك. في المرة الرابعة نفخ متبرماً:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. يعني ما وصلته الرسالة حتى الآن؟ منين أجاني هالهم.

أجاب صالح:

- منك. انت اللي صاحبته أيام زمان.

- أيام زمان.. أيام زمان..

قال صالح بنبرة ذات مغزى:

- قبل ما ينادوك حكيم!

تدخلت أم صالح إلى جانب موقف صلاح:

- آه قبل ما ينادوه حكيم. كل الناس بتجهل في وقت من الأوقات.. وبعدين بتتغيّر.

قال صالح:

- الشاب من مدّة ما عمل شي غلط.. من يوم ما طلع من الحبس اللي قضى فيه سنة منشان الدكتور صلاح! والا نسيتوا؟

قال صلاح:

- أنا ما طلبت منه يضرب حد ويرفع السكين منشاني.

ردّ صالح:

- مش ضروري تقول له. بكفي إنك أقنعته إنك صاحبه وإنك بتتفهم وضعه، وحشيت راسه بكلامك عن ظلم الناس والحياة، وإنه ضحية. والشاب صدّقك! بعدين يا جماعة، أمه وأبوه ناس محترمين.. ومن يوم ما هدي وترك المشاكل صاروا

يترضوا عليه. والزلمة كان غايب شهور خارج البلد.. واللي فهمته أنه بدّه يسافر قريب من جديد.. يعني مش رايح يلزق فيك.. هيه زيارة واحدة.. وبعدين إذا أجا مرة ثانية تجنبوا زي ما بدك.

خضع صلاح أخيراً واستقبل عطية، الذي أقبل عليه محتضناً إياه بحرارة. وتجنب صلاح أن يريه بعض ما أراه عطية من الترحيب والإقبال والاحتفاء. فبقي جامد الوجه، مقتضباً في كلامه. لعل عطية يحسّ جفاءه فلا يعود إليه بعد. ومع ذلك انطلق عطية بالكلام المشوب بالدعابة:

- كيف الحال يا حكيم.. والله اشتقنا لك.. عاد لما توخذ الشهادة بدنا تفتح عيادة عندنا. انت بس افتح العيادة وأنا بصدّر لك المرضى. خلي واحد يسترجي يروح عند دكتور غيرك.. بشرط.. إلي نسبة من أتعابك.

ثم انطلق بالضحك، وتابع:

- والله كانت أيام يا دكتور.. رغم كل شيء.. بكفي إني تعلّمت منك كثير.. انت أستاذي..

ثم استخرج ورقة مطوية من جيب قميصه، وفتحها وهزّها أمام صلاح.

- عارف شو هاذي؟ «عطية ينظر غضباً». القصيدة اللي كَتَبْتْها فيّه..

ثم بدأ يتلوها عليه غيباً عن ظهر قلب:

انظر في غضبٍ..

أطلق ساعدك من الصخر ودقّ به الأسوار

أسْرِج صهوات الريحِ..

تقحم مملكة الشمس وأشعل كفّك قبضة نار..

ومضى في ذلك حتى أتمّها. والغريب أنه لم يرتكب غير أخطاء قليلة في وزنها ونحوها، لكأنه تدرّب عليها طويلاً واستعان بمن يصحح له حتى الإتقان. وبدا كذلك أنه يستوعب كل معنى من معانيها.

ثم أرسل نظرة طويلة إلى صلاح الذي بقي صامتاً، قبل أن يستأنف عطية بنبرة عميقة:

- ما توقعت إني محتفظ فيها وحافظها؟ صدّقني هذي عندي أحسن من كل الشهادات اللي فاتتني.. وما عندك فكرة قدّيش أثّرت هذي القصيدة على حياة أخوك عطية وغيّرته.. بسّ في يوم من الأيام.. يمكن قريباً تعرف قصدي!

ثم احتضنه من جديد مودًّعا. وخرج وهو يهز ورقة القصيدة، ويتلو أواخرها:

وأنا آتٍ من كل جهات الأرض

وأنا ألبس جلد الريح وطين الأرض

وأنا آتٍ حجراً مشتعلاً..

شجراً ملتهباً لا تطفئه الأمطار

فتأهب يا عالمُ إني قَدَرٌ، ليس تَضِلّ الأقدار

وغاب خارجا، مخلفا صلاح في حالة الدهشة والذهول والحيرة. فإذا كان هو قد تغيّر ولم يعد فتى الأمس، فإن عطية قد تغيّر أكثر منه، وبدا أكثر وعياً وفهماً و.. غموضاً على نحو محيّر. أحقاً أن تلك القصيدة قد تركت كل ذلك الأثر في نفسه؟ وما مدى هذا الأثر؟ وما طبيعته؟

قبل انقضاء إجازة صلاح الصيفية، جاءه الجواب، حين ذاعت الأخبار بأن مجموعة فدائية تنتمي لقوات العاصفة، الذراع العسكري لمنظمة جديدة غامضة اسمها «حركة التحرير الوطني الفلسطيني.. فتح»، قامت بعملية فدائية في قلب الكيان الصهيوني، في شمال فلسطين. وتمكنت من تفجير إحدى المنشآت، واشتبكت مع قوة إسرائيلية قتلت منها واحداً وأصابت آخر، بينما استشهد من المجموعة الفدائية واحد، وأصيب آخر تمكنت المجموعة من الرجوع به إلى قواعدها. ولكنه ما لبث أن فارق الحياة..

لم يكن هذا الأخير إلا عطية نفسه!

كانت فتح قد بدأت عملياتها قبل نحو سنة. ولم يكن معظم الناس قد تسامعوا بها بعد.. ولكن عطيّة من دون الكثيرين قد عرف عنها، ولم يتردد في الخروج من الضفة الغربية والأردن ليلتحق بها ويتدرب في معسكراتها السريّة.

اجتمع أهل المخيم حول بيت أبو عطية وداخله وهتفوا باسم الشهيد وفلسطين. حبس أبو عطية دموعه، وتغلّب شعوره بالفخر على شعور الحزن، أما أم عطية فأطلقت زغرودة مع دموعها المنحدرة. وصاحت:

- لا تعزونا فيه.. هنونا بالشهيد.

أخيراً بيّض عطية صفحته، وكان من السابقين في العمل الفدائي في مستهل أمره، وعرّف بدمه الناس بالمقاومة الناشئة، وأنار الدرب إليها، وأحيا شعلة الآمال المؤجّلة! الحرامي الذي كان يسرق من أهله عرف طريقه أخيراً ليقاتل من سرق وطنه ووطن شعبه، ويموت في سبيل ذلك!

نظّم مركز الشباب الاجتماعي في المخيم جنازة رمزية لعطية، طافت أزقة المخيم وهي تهتف للشهيد وفلسطين وحق العودة. ومشى فيها صلاح وصالح ورشدي، وأبو صالح نفسه إلى جانب أبو عطية الذي بدا الآن منتصب القامة مرفوع الهامة. أما أبو صالح فقد أطلق الموقف شرارة قديمة كامنة في روحه. الثورة والجهاد مرّة أخرى بعد ثلاثين سنة من بدء ثورة الثلاثينيات ضد الانتداب البريطاني، وثمانية عشر عاماً منذ الجهاد المقدس في عام النكبة! شعر بأنه استرجع شيئاً من فتوّته مكّنه من مجاراة الشباب في طوافهم الطويل بالنعش الرمزي.

أما صلاح فلبث مطرقاً شديد الوجوم، حزناً وخجلاً معاً أنه صدّ عن الشهيد وخشي أن تصيبه منه معرّة. ترى هل حمل عليه في صدره حين أحسّ صدوده قبل أن يفارقه في ذلك اللقاء الوحيد؟ كل شيء بدا الآن مفهوماً.. ما قاله أخوه صالح عن غياب عطية شهوراً خارج البلاد، ثم عودته القصيرة التي وافقت زيارة صلاح، قبل أن يفارق من جديد.

أهذا ما كان يعنيه حين تحدث له عن الأثر العظيم الذي تركته في نفسه قصيدته «عطية ينظر غضباً»، وأنها غيّرته كثيراً؟ وما الحبر من الدم، والكلمات من الرصاص؟ إن كان كذلك فيجب أن يشعر بشيء من الفخر؟ ولكن كيف يفخر بإسهام

وطنيّ لم يقصد إليه؟ كيف يقاسم عطية مجد الشهادة في خفاء نفسه؟ وصدمته المفارقة التي نزلت عليه. قريباً يصير طبيباً يعمل في إنقاذ الأرواح، ولكن إذا صحّت خواطره وكانت قصيدته في عطية أحد أسباب تحوله حتى الشهادة، فيكون دوره في مثل هذا الموت الجميل مكافئاً لدوره القادم في رعاية الحياة الجميلة! كلاهما إنقاذ.. للروح أو الجسد! وتذكّر كلامه القديم الوجوديّ عن سبق الوجود الإنساني على الماهية والجوهر اللذين يختارهما الإنسان لنفسه ويعرفها بهما، فتقترن الحرية بالمسؤولية. ولأول مرة يعينه عطية الشهيد على أن ينزل الفكرة منزلها من واقعه وواقع شعبه وقضيته، بدلاً من التهويمات الذهنية المجرّدة.

أخيراً، عطية بطل بقضية.

بعد أيام جاءته حصّته في مجد عطية، حين طرق باب البيت شاب مجهول، وسأل عن صلاح أحمد الشيخ يونس. أبى أن يدخل أو يتريث. استخرج ورقة مطويّة ملطخة بالدم، وأعطاها لصلاح الذي وقف حائراً مندهشاً، وقد أدرك أنها ورقة قصيدته عن عطية. واكتفى الشاب بالقول بأنه من إخوة الشهيد عطية ورفاق السلاح، وكانت هذه الورقة في جيبه في تلك العملية. وقبل وفاته بالإصابة التي تعرَّض لها، أوصى بأن تعاد إلى كاتبها في مخيم طولكرم. وغاب الشاب من فوره، مخلّفاً صلاح في حالة من الذهول والصدمة. ولبث وقتاً يتأمل الورقة التي اختلط عليها حبره بدم عطية!

سوف يحافظ عليها بحياته منذ الآن. فهي شهادة له دونها شهادة الطبّ التي سيحصل عليها. وإذا كان قد أسهم في تغيير سيرة عطية بلا قصد، فعطية يغيّره منذ الآن إلى الأبد.

رحل عطية محموداً مذكوراً، ورحل معه اعتداد صلاح المفرط بنفسه وشعوره بالتفوق والتميز. كان منذ وصل في تلك الزيارة محتجباً عن مخالطة أصحابه القدماء في المخيم. الآن يخرج لهم ويخالطهم مخالطة الأنداد. وحتى نظرته إلى مستقبله قد تغيّرت. كان يتطلع أن يعمل خارج البلاد في الدولة الأجنبية التي سيكمل فيها تدريبه حتى التخصّص، والآن يأخذ على نفسه أن يعمل بوصية عطية في ذلك اللقاء حين دعاه إلى فتح عيادة في طولكرم، وقال ممازحاً بأنه كفيل بأن يُلزم الناس بعيادته دون الآخرين. لن يفعل عطية هذا.. ولكنه على نحوٍ ما ألزم صلاَح الذي وعد نفسه أن يخصص وقتاً للمرضى الفقراء بلا أجر. هذا أقل ما يستطيعه وما ينبغي عليه. أخيراً اقتنع صلاح بأنه ليس أكبر من مخيمه ومدينته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غربــة

(خلاء موحش.. مخيّلة عامرة)

1

أيلول ١٩٦٦

سيارة «بك أب» تقطع طريقاً غير معبّدة في أرض خلاء، وتثير الغبار حولها. ولا ثَمّ إلا السائق الذي يرتدي الدشداشة السعودية التقليدية ويعصب رأسه بحطة بيضاء، والشاب الذي يجلس إلى جواره ويرتدي البنطال والقميص وقد ذهب في الشرود والتفكير، وهو يرسل بصره في الخواء الذي سيعرف بعد حين أن الناس المنعزلين في تلك البقاع يملأونه ببنات مخيلتهم. فتلك الجبال التي تحاذي خط الأفق موطن الجنّ الذين يكرهون الملل والرتابة كما يكرهها البشر. فينزلون بين الفينة والأخرى إلى تلك القرى النائية الصغيرة، يتسلّون برجم الحجارة على البيوت في جوف الليل، فإذا خرج الناس يتحققون لم يجدوا أحداً. فيدركون اللعبة، ولا يخامرهم شيء من الخوف أبداً، فقد ألفوا تداخل العالمين الثِّقَلَيْن! بل إنهم يتسلّون بالقدر نفسه بتلك الظواهر الغريبة، وتمنحهم قصصاً طريفة يتندرون بها وهم يتضاحكون. ومنها قصص الحب والزواج بين سكان العالَمَيْن، يقصّونها بكل ثقة وتصديق، دون أن يدّعي أحدهم أنه كان من شهودها بنفسه. ولكن الرواة الذين سمعوا منهم لا يكذبون. وإلا فمن أي يأتون بتلك التفاصيل الدقيقة: الأسماء والأماكن والتواريخ والأوصاف والوقائع، وفوقها الأيمان المغلظة!

ولكن رشدي الذي يجلس الآن إلى جانب السائق السعودي في الطريق إلى القرية النائية في جنوب السعودية، التي عُيِّن فيها مدرِّساً يبدو غارقاً في أفكاره بين تسريح النظر في تلك الديار المقفرة وبين تسريح الذاكرة في يوم وداعه لأسرته في مخيم طولكرم، وبين المستقبل الذي يطمح إليه ويخطط له، والذي أملى عليه هذه الغربة الراهنة الطاحنة. والهدف أن يعمل هنا سنة واحدة أو سنتين، بعد أن عمل في مدارس وكالة غوث اللاجئين عقب تخرّجه من معهد تدريب المعلمين. سنة أو سنتان من العمل في السعودية مع مدّخرات عمله السابق تكفي ليلتحق بإحدى جامعات الباكستان لدراسة الهندسة. فنفقة الدراسة والحياة هناك معقولة. وهو يرفض أن يتولّى أخواله الإنفاق على دراسته الجامعية على غرار صلاح.

استرجع مشهد الوداع مع جدته التي بكت بغزارة كما لم تبكِ فراق أحد. وشيعته بالدعوات.

وقبل ذلك أبى إلا أن يودّع أم سالم المجنونة. فالتمسها حتى وجدها تجلس إلى جدار. وتهزّ الوسادة كالعادة. وحين رأته مقبلاً ارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة لم تلبث أن زايلتها. قرفص أمامها ومد لها يده بلوح من حلاوة الطحينية. وكان أكثر ما تخفّ إلى تناوله بشهية. فالذائقة لا تذهب مع ذهاب العقل. ولم يأبه إذا كانت لا تعي ما سيقوله لها في تلك اللحظة، فخاطبها خطاب العاقل للعاقل، وأخبرها أنه سيسافر غداً إلى السعودية، وقد يغيب سنة أو سنتين. ولكنه أوصى جدته وابن خاله صالح بها، ولن يقصّرا. وهي تعرف طريق البيت.

لبثت تنظر في وجهه نظرة هائمة غائمة. ثم وقف، وأخذ بيدها وقبّلها.. وقبل أن ينصرف قال:

- رايح أشتاق لك..

وإذ خطا خطوتين التفت إليها من جديد وأضاف:

- يمّه!

قبل أن تنطلق به السيارة التي تقلّه إلى مطار عمّان، رآها من نافذة السيارة تهرول نحوها. فصاح بالسائق أن يتريّث وقد أدهشه الموقف. وإذ وصلت إليه مدّت يدها تتلمسّ وجهه، فأخذ بيدها وقبّلها أمام المودّعين من أهله. ولم تكن دهشتهم بأقل من دهشته.

وتمسّكت بيده بشدة لا تريد أن تفلتها. ولكن كان لا بد من الانطلاق أخيراً، فتفلت منها برقّة. وإذ بدأت السيارة في الحركة، استدار رشدي من مقعده ونظر عبر الزجاج الخلفي، ليرى أم سالم تلاحق السيارة راكضة.. وسمعها الناس في الخارج تطلق أصواتاً مبهمة متفجعة. لبث ينظر إليها حتى تصاغرت صورتها تدريجاً، بقدر ما تعاظمت عواطفه نحوها.

لن ينسى ذلك الموقف أبداً. وسيبقى حائراً متسائلاً، فالذي حدث منها ينمّ عن إدراكها لما أخبرها عن سفره وغيابه. كيف تدرك هذا ولا تدرك أن الوسادة التي تحتضنها ليست طفلها سالم الذي فقدته في ساعة الغفلة يوم التهجير؟ كيف يعمل العقل المتصدّع بالصدمة المرعبة، والقلب المتشقق بالفقد الرهيب؟ وكيف يصحو الوعي لحظات من رقدته، قبل أن يرجع إلى راحة الغياب؟

أكرم أهل القرية التي نزل فيها وفادته. وتمثلت فيهم كل معاني الكرم التي ما فتئ العربي الأصيل يتغنّى به ويجعلها مع الشجاعة شعار المروءة والسيادة. وانهالت عليه دعوات الطعام وتنازع القوم عليها. وأُنزل في بيت خاصّ من اللّبن وشحف الصخور البركانية، على أن ينضم إليه معلمان آخران مصريّان بعد حين.

ولكن الحفاوة التي وجدها من أهل المكان البسطاء الطيبين، لم يطرد عنه الشعور بالوحشة، تعززها الطبيعة الخاوية إلا من قرى صغيرة متناثرة. وبدا له المكان أشبه بجزيرة معزولة. وإذ لم يكن بينه وبين الناس ما يمكن أن يتسامر وإياهم به، غير ما يسمعه منهم من الغرائب والعجائب ونوادر الأولين والآخرين، وجد نفسه يعوّض عن ذلك باستنطاق الطبيعة وبتأملاته فيها، ترفده معارفه في تاريخ العرب وأخبارهم القديمة وأشعارهم. فهذه البلاد هي الرحم التي خرج منها العرب إلى أمصار الدنيا. وهذه النخلة هي عمّة العرب. وذلك الجبل هو «المشقّر» الذي كان يصعد إليه الصعلوك مستوحشاً من الخلق. وهذا الفضاء الممتد شهد بعضاً من أيام العرب. وقافلة الجِمال التي تظهر عند خط الأفق تبعث في مخيلته مشاهد الارتحال والتحوّل عن المكان التي صورها الشعر القديم.. ومع ارتحال العشيرة ترتحل الحبيبة، مخلفة عاشقها الشاعر يقف على الأطلال ويبعث فيه الحياة المنصرمة بخياله، كما يفعل رشدي الآن، إذ يطبع على الأمكنة الموحشة نقوش الزمن القديم، ويحولها إلى كتاب مقروء من كتب التراث. الآن يدرك العلاقة بين فقر المكان وغنى المخيّلة العربية في الشعر والقصص التي تتحوّل بالحدث الصغير إلى ملاحم كبرى.

فما لا تمنحه الطبيعة، يختلقه الخيال! والآن أيضاً يدرك معنى تسلّط الحنين إلى الماضي والتلفت الدائم إليه في أشعار العرب. فحينما تكون الحياة شديدة الرتابة، وشواهدها قليلة، يعتصم الإنسان بذكرى اللحظات الحيّة الماضية، ويحاول جاهداً

أن يبتعثها من جديد في آثارها، ليحميها من الانطماس التام أمام قوى الموت والغياب. وفي هذا السياق يندرج الهوس بالفروسية والموت المجيد في ساحة الوغى، طلباً للخلود في الذاكرة الحيّة الباقية.. والمرأة! لماذا يفتتح الشاعر القديم قصيدته بذكرها والنَّسيب والتشبيب بها، مهما يكن غرض القصيدة الرئيس؟ هل ذاك لأنها تحيل إلى الخصب والولادة والحياة، فتتمثل رمزاً للقوة المناوئة للموت؟

ها هو رشدي يجد نفسه يفعل ما يشابه فعل الناس هنا. يملأ الفراغ الموحش بالصور والخيالات. ولكنهم يرون الجنّ الذين فتحوا الجدار بينهم وبين الأنس، وهو يرى التاريخ وحصاد الكتب. فإذا انفرد بنفسه في غرفته انهالت عليه ذكريات حياته الخاصة.. يوم التهجير والقذيفة التي حالت بينه وبين أمّه.. الطريق إلى المخيم.. جدّته العظيمة وأخواله وأبناء أخواله.. وأم سالم المجنونة!

غوايات الثروة

(مسعود الجديد، ولطيفة القديمة)

1

لم يعد مسعود الآن يرتدي ثياباً غير متناسقة الألوان والأشكال. فما يرتديه الآن ينم عن ذوق رفيع ومكلف بما يوافق مستوى رجل أعمال ناجح ثريّ. ولأمر ما لم يعد يصحب معه لطيفة حين يذهب إلى محلات الثياب الفخمة لينتقي منها ما يضيفه إلى خزانة ثيابه العامرة. وهو يسوق سيارة كاديلاك فارهة بنت سنتها. ويعيش في بيت أنيق كبير تخيّر له أفضل الأثاث، يستقبل فيه نخبة الناس من الفلسطينيين والكويتيين.

وبذكائه الاقتصادي الفطري والمكتسَب بالخبرة، أدرك منذ سنوات أن عليه أن ينوّع في استثماره. فلم يكتفِ بتجارته في مواد البناء مع شريكه الكويتي حتى دخل في مجال المطاعم. فقد أخذ ذات يوم يتفكّر في الخيارات المحتملة، ثم بدا أنه وجدها!

لا أحد يستغني عن الطعام، والناس هنا في الكويت، لا سيما المغتربين، لا يجدون ما يتسلّون به إلا الخروج إلى المطاعم، ولو لشطائر الفلافل أو «الشاورما». وعادة الدعوات المتبادلة إلى موائد البيوت جزء أصيل من الحياة الاجتماعية. وثمّة أنواع من الطعام التقليدي الشعبي لا تحسن صنعه الكثيرات من نساء اليوم في بيوت الجالية الفلسطينية: المسخّن الفلسطيني مثلاً. ومن يمكن أن تحسنه ربما تضيق بصنعه لما يقتضيه من الجهد وما يخلّفه في البيت من رائحة الزيت والبصل. ولكن الجميع يشتهيه على كل حال. والمآكل الشعبية عند المغترب ليست مجرد اشتهاء حسي. أما رأيت إلى الناس إذا اجتمعوا وتذكروا البلاد استذكروا معها مآكل البلاد. فالبطيخ هناك ذو طعم مختلف، وكذلك الخيار والتين والزيتون وسائر الخضار والفواكه. وإذا زار أحدهم البلاد في إجازته رجع بمؤونة من الزيت والسمن البلدي والجميد والزعتر والمفتول والزيتون المخلل. الطعام ذاكرة وحنين وهوية.. روائح البيت القديم والأم والجدّة.. والماضي الجميل! أليس الماضي دائماً جميلاً! حتى مع الخبط في الأوحال و«كردوش» الذرة ووفيات الأطفال ومكائد أبو عايد وأمثاله..

فليكن! سيبيعهم مسعود رائحة الأصول والبلاد وأوهام الماضي الجميل واللقمة القديمة الرضيّة: المسخّن الجاهز أولاً، ثم إذا تحقق النجاح تلاه بالمفتول والقدرة الخليلية والمنسف.

وقد تحقق النجاح فعلاً! والآن صار مسعود يمتلك ثلاثة مطاعم للطلبات البيتية يتزاحم عليها الناس. وتحقق حلم مسعود القديم بالغنى وبأن يكون رجل أعمال ناجح يتقرّب إليه حملة الشهادات الجامعية والأطباء والمحامون والمهندسون.

أين مسعود الحاضر من مسعود الماضي، فلاحاً في قرية صغيرة ونجاراً بسيطاً، ثم عامل بناء يساوم على قروش، فيطرده صاحب الورشة مذموماً مدحوراً ناقماً على الدنيا كلها. وقد وعد نفسه حينئذٍ أنه إذا صار إلى ما يحلم به أن يحسن لعُمّاله وموظفيه ولا يظلمهم فتيلاً. وقد وفى بوعده.

كل شيء تغيّر في حياته إلا شيئاً واحداً: لطيفة بنت أبو عايد، كما لا يفتأ يناديها.

في يوم ما كانت تتيه على أهل البلد بهذه الصفة، بنت أبو عايد. أما الآن، حين يصرّ مسعود أن يناديها بها، فهي تدرك أنه يريد بذلك التصغير، وأن يذكّرها بما كان عليه

أبوها وما صار إليه، مقارنة به وبأسرته. وعلى الرغم من أنها قد اعتادت ذلك منه، فقد تعترض أحياناً. فيرد عليها متهكماً:

- مش انت بنت أبو عايد؟ مختار المخيم.. كل ختم بقرشين.

- ما أقسى قلبك يا زلمة.

- مش أقسى من قلبه في هذيك الأيام.

- انت ما بتنسى يا زلمة؟

- لا والله ما بنسى.

- إخوتك نسيو.. عاد انت من دونهم كلهم بقوا يقولوا عنك هادي ومسالم وبتحب الستيرة.

- قصدك ضعيف خوّيف. مش زي أبو صالح وحسن الله يرحمه. ما كانش خوف ولا أدب.. الصحيح صبر وطولة روح.. واللي زيّي بكسب في الأخير، ولو بعد عمر طويل يا بنت أبو عايد.

ولكنه مع ذلك كان يتذكر أبو عايد بين الفينة والأخرى بالمساعدة المالية. ولم تكن دوافعه كلها بريئة وإنسانية. من صاحب اليد العليا اليوم؟ لعل في هذا من الانتقام والثأر للماضي ما هو أشدّ من غضبات أبو صالح القديمة في القرية. نعم، هذا زمن مسعود.

مهما يكن، فعلى لطيفة أن تتجرّع ذلك كله من مسعود في مقابل النعمة التي أغرقتها.. فما فقدته من ثروة أبيها ومركزه، تحصّله الآن من ثروة مسعود ومركزه الاجتماعي، على ما يخالط ذلك من التكدير والتصغير والتعيير. فالأسورة الذهبية الثقيلة تغطي ثلث ذراعها، والقلادات تتزاحم حول عنقها. وملابسها غالية الثمن، ولكنها تفتقر إلى الذوق والتناسق. فليس المطلوب منها الجمال والأناقة، بقدر ما هو استعراض الثروة. وهي لا تفتأ تكرر أن الذهب ذخر: «إذا صار ما صار المرة بتلاقيه».

فيرد مسعود:

- مستعجلي على موتي يا بنت أبو عايد؟

فتعلق:

- خايفة انت اللي مستعجل تخلص مني بعد ما صرت.

فيهز رأسه هزّة خفيفة مع ابتسامة غامضة!

لم يصقلها المال وتغيّر الحال كما صقلا زوجها. فوراء مظاهر الثراء ما تزال لطيفة هي لطيفة الريفية التي لا تحسن التصرّف الراقي والحوار اللائق مع زوار البيت وزوجاتهم، من علية القوم، ولا تحسن نطق أسماء الأمتعة والأجهزة الحديثة وهي تستعرض موجودات منزلها أو تتفاخر بأعمال زوجها. وكل ذلك يسبب إحراجاً كبيراً لزوجها أمام ضيوفه من رجال الأعمال والمتعلمين وأصحاب المهن الرفيعة. ولم يرتدع مسعود عن نهيها مراراً عن كثرة الكلام في حضرة الضيوف. فيكون جوابها المكرور: «يلعن أبو اللي أحسن منّا» الآن تقولها بمزيد من الثقة التي توفرها سلطة الغنى. وأشدّ ما تكون تلك السلطة حين تمارسها على الخادمة،

فترهقها بأوامر العمل والتنظيف، ولا تتورّع عن شتمها إذا رأت أنها تباطأت أو أخلّت. وكانت تبالغ في نظافة البيت وصيانة الأثاث والمتاع، كأنها يجب أن تبقى على حالها إلى الأبد، أو كأنها صورة من ذاتها الجديدة. «هجين واقع في سلة تين» كما يعلّق مسعود.. الجديد أيضاً!

ولقد تذكر فتحية، أم صالح أحياناً على سبيل المقارنة. أين حال بنت حيفا المدنية منها الآن؟ وكان ذلك يغضب مسعود أشدّ الغضب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في تلك الليلة من نيسان عام ١٩٦٧، غادر ضيوف مسعود ولطيفة عند منتصف الليل. وما إن غابوا حتى انهالت أوامرها على الخادمة برفع الأواني وتنظيف الطاولات وإعادة كل شيء إلى مكانه. حاول مسعود أن يقنعها بأن الوقت متأخر، وأن الخادمة أمضت النهار والليلة في خدمة الضيوف وإعداد المائدة، فلتترك التنظيف والترتيب وراء الضيوف إلى الصباح. ولكن، لا حياة لمن تنادي. بل أصرّت لطيفة على الخادمة أن تذهب إلى المطبخ وتشطف الأواني بعد أن تفرغ من صالون الاستقبال.

وفي أثناء ذلك لم تتوقف عن استغابة الضيوف، لا سيما المهندس عمّار وزوجته غادة التي بقيت صامتة معظم الوقت، وتركتها تتولّى الحديث وحدها من باب المجاملة. علّق مسعود بأنها لم تترك لها مجالاً للكلام وهي تنتقل من موضوع إلى موضوع لا يهم غادة: الأثاث وأسعار الذهب ومشروعات زوجها الجديدة ومشكلات الخادمات، وأنها غيّرت ثلاثاً منهن حتى الآن، ولولا سعة البيت وكثرة أشغاله لاستغنت عنهن.

- يعني لأنها متعلمة خرّافي ما بناسبها؟ ملعون أبو اللي أحسن منّي.. هذي اللي صاحبك اتجوزها على مرته القديمة وداير فيها من بيت لبيت ومخلّي القديمة في دارها؟ والله القديمة أحلى منها بمية مرة.. ولما بروح عندها ما بدري كيف بمر الوقت. مش زي ثقيلة الدم هذي.. والا يعني لأنه القديمة مش متعلمة زيها؟ وأنوه كان ضرب على إيده لما تجوّزها؟

رد مسعود أن المهندس عمّار لا يقصّر بحق زوجته الأولى، وأنه أسكنها في بيت لم تكن تحلم به.

وكان ردّ لطيفة حاضراً. فما ينفع زوجته الأولى ما يوفره لها، وقد رماها تلك الرمية. فلو بقيت معه على الحصير، لكان خيراً لها من كل ذلك العزّ مع ضرّة.

توقف عن الجدال، واكتسى وجهه بملامح التفكير والشرود. ثم دعته إلى النوم، ومضت تسبقه. وقبل أن تغيب سمعت صوته يناديها. توقفت والتفتت إليه لتراه مطرقاً في مقعده. ومرّت هنيهة صمت، قبل أن يتحدث بصوت متردد دون أن ينظر إليها:

- الشقة اللي شفتها في عمارة الجوهرة.

- ما لها؟

- قررت اشتريها.

- وهذا البيت؟

تريث لحظة قصيرة ثم تابع:

- هذا بتظل إلك.

دهمتها الحيرة، فالشك.

- هذا بظل إليّ؟ وهذيك لمين؟

لم يجب. وما هي حتى غاص قلبها وتغيّر لون وجهها، وخانتها ساقاها فنزلت على الكنبة تلطم وجهها وتشهق بالبكاء.

- بدّك تعملها يا مسعود؟ خلص كبرت على لطيفة يا مسعود؟ كبرت يا مسعود وصرت تستحي فيّه؟ يا حسرتك يا لطيفة يا خراب بيتك. بدّك ترميني زي ما رمى عمار مرته القديمة؟

وقف مسعود وقال:

- مش هيك القصة.. أنا عندي ولد واحد.. بدّي أولاد ثانيين.

- أنا وإياك عندنا ولد واحد يا مسعود.. أنا وإياك. لا تفكرش إني عميا.. أنا فلاحة لا بقرا ولا بكتب، بس مش عميا..

لأول مرة تتحدّث بنبرة البوح المكسورة، وبلاغة الجرح النازف.

- بعرف ليش تجوزتني قبل عشرين سنة وأنا أرملة. «قشرة» زي ما كانوا يقولوا.. بس بظلّ إني بنت أبو عايد أيام عزّه وأراضيه.. بعدين أجو اليهود.. لا خلولنا عز ولا أراضي.. طلعت بيعة خسرانة يا مسعود، وصار الذنب على اللي باع مش اللي اشترى، ولا حتى على اليهود اللي خربوا عليك الشّروة. من هذاك اليوم ما سمّعتني كلمة مليحة.. بنت أبو عايد.. بنت أبو عايد.. ما خطر على بالك يوم إني صرت أم حسين.. يا أبو حسين! عشرين سنة ما كفوك انتقام من أبو عايد في بنته.. مرتك وأم ابنك. أبو عايد صغر في المخيم ومسعود كبر في الكويت.. أبوي عمل ذنوب كثيرة مع الناس أيام البلاد.. ما بنكر. هسّع دور مسعود يعمل ذنوب ويحمل العصاه. انت مش أحسن من أبو عايد يا مسعود.. بس كل واحد إله وقت. روح اتجوز السكرتيرة تبعتك. والله قلبي بقى حاسس طول الوقت، ولما بقيت أخرّف عن عمّار ومرته القديمة ومرته الجديدة كان الموضوع ببالي.. روح اتجوزها يا مسعود، ولا تخاف تطلع الشروة خسرانة هذي المرّة.. اليهود بعاد عن الكويت!

وإذ خرجت من الصالة، وقف مسعود، واصطدم نظره بصورة مكبّرة في إطار، لأخيه الشهيد حسن. ولأمر ما بدا له أن حسن في الصورة يصوب أنظاره عليه، فشعر بشيء من الخجل، وأشاح بوجهه متهرباً من نظراته.

أما لطيفة فانصرفت من فورها إلى المطبخ حيث ما زالت الخادمة تعمل في غسل الآنية. ولأول مرة تربت على كتف الخادمة برقّة غير معهودة:

- فوتي اتريحي نامي.. تعّبتك اليوم كثير الله يعطيك العافية. أنا بكمّل عنك.

ترددت الخادمة قليلاً، ثم انصرفت دون أن يفارقها الشعور بالتعجب والاستغراب. وبدأت لطيفة في الشطف، وفجأة انكبت على حافّة المغسلة تنتحب بحرقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٩٦٧

(الإرث والوريث)

1

تسعة عشر عاماً على النكبة. ولم يتوقف الحلم الفلسطيني بالعودة والتحرير عن الطواف في العقول الأفئدة.. ولم يتوقف حرّاس الذاكرة عن حمايتها من الغياب. لم يكن أمل التحرير والعودة عند معظم الناس ليرضى أن يحتكم إلى الظروف الراهنة ومعادلات موازين القوة، إلا عند بعض المتشائمين الذين يفضّلون أن يوصفوا بالواقعية والعقلانية. أما جلّ الناس فيبدو ذلك الأمل المتجدّد جزءاً من طبائع الأشياء والشعوب وقضايا الحق والعدل والتواريخ الماضية التي شهدت مجيء الغزاة ثم خروجهم، وإن طال الزمن. متى؟ عسى أن يكون ذلك قريباً. لن يطول أجل الموعد.. هكذا قيل في السنة الأولى بعد النكبة.. وهكذا قيل في كل سنة بعدها. فظل قريباً في السنة التاسعة عشرة بعد النكبة قربه في سنتها الأولى. وأعانت على ذلك الأغاني والأناشيد والقصائد، مثلما أعان عليه أخبار الإنجازات العربية، لا سيما في مصر عبدالناصر: السدّ العالي على رغم أنف الولايات المتحدة، حركة عدم الانحياز التي يتقدّمها عبدالناصر ونهرو وجوزيف تيتو، وغدت كتلة دولية فاعلة.. الدعم السوفييتي بالسلاح.. حركات الثورة العالمية.. الإنتاج الحربي في مصر وصواريخ الظافر والقاهر المصنّعة محلياً! الإعلام الذي يبشر بزحف الجماهير الهادرة من المحيط إلى الخليج ويعلن أن ساعة العمل الثوري قد دقّت. وفوق ذلك كلّه نجاح الثورات الشعبية ضد الاستعمار والإمبريالية، لا سيما ثورة الجزائر المجيدة التي انتهت بالنصر ورحيل المستعمر، بعد نحو مائة وثلاثين سنة.

تسعة عشر عاماً. والآن تقترب ساعة الحق والحقيقة، مع طبول الحرب التي بدأت تدق في أيار من عام ١٩٦٧. «الآن الآن وليس غداً، أجراس العودة فلتُقرَع»، «والله زمان يا سلاحي. اشتقت إلك في كفاحي».

صحا العالم العربي أولاً على تهديدات إسرائيلية متعاقبة بشنّ حرب على سوريا، بحجة تسلل مجموعات من «المخربين» عبر حدودها وشن عمليات عسكرية ضدها. واستجابت مصر بأن أي حرب ضد سوريا، هي حرب ضد مصر، والأمة العربية بأسرها، وأن اتفاقات الدفاع العربي المشترك ستضع موضع التنفيذ، وأن صدّ العدوان المحتمل سيتحول إلى حرب تحرير شاملة، تشارك فيها الجماهير العربية كلها!

تحشّدات عسكرية إسرائيلية على الحدود مع سوريا.. تقابله تصريحات عربية بالحشد والاستعداد والتجهّز. أعقب ذلك طرد مصر لقوات الطوارئ الدولية، وهو ما اعتبرته إسرائيل تهديداً مباشراً للملاحة البحرية الإسرائيلية عبر مضائق تيران. بينما أكدت الجمهورية العربية المتحدة (مصر) حقها في السيادة على أراضيها، ومنها منطقة شرم الشيخ ومضائق تيران. المملكة الأردنية الهاشمية توقّع اتفاقية دفاع مشترك مع مصر. ويلحق العراق معلناً تحريك قطع من جيشه للمشاركة في معركة الأمة الكبرى.

إذن، ستكون الحرب الموعودة في ثلاث جبهات تطوّق إسرائيل.. مصر.. وسوريا.. والأردن.. فأين تذهب إسرائيل؟

كانت الأحداث والتحركات العسكرية تتسارع على نحو يؤكد أن الحرب قادمة لا محالة. لم يعد أمل العودة والتحرير فكرة تستمد قوتها وقدرتها على التجدّد فقط من

طبائع الحق وأمثلة التاريخ، ولكنها الآن تستمد من القوة العسكرية المتجسّدة، وعزائم الرجال من ورائها. فاليوم ليس كالأمس: لا أسلحة فاسدة، ولا خيانات، ولا حكومات رجعيّة يغلّ الاستعمار أيديها. إنما هي قوى الثورة التي تحررت من ربقة الاستعمار.. ومن ورائها الاتحاد السوفييتي في مقابل العالم الغربي وعلى رأسه الولايات المتحدة.

فلماذا لا تحتفي الشعوب العربية بنذر الحرب الوشيكة، بل ببشائرها! وهل بينها وبين التحرير إلا قرار الحرب! الحرب والنصر والتحرير كلمات مترادفة.. لكأن النصر لم يتأخر إلا لتأخر قرار الحرب. وكل ما يخشاه الكثيرون الآن أن تنجح الوساطات والتحركات الدولية في إطفاء الفتيل.. أما نتيجة الحرب إذا قامت، فمحسومة من الآن.

بقدر ما كانت تتصاعد طبول الحرب، كانت تتصاعد الآمال. وتبادل الكثيرون دعوات الطعام على شواطئ حيفا ويافا وعكا.. قريباً. ولم يعد المتشائمون الواقعيون يجرؤون على الإفصاح عن مخاوفهم وشكوكهم كيلا يُتَّهموا بأنهم من الطابور الخامس، إلا ما يكون بينهم في المجالس الخاصة المغلقة. أين ذهب الكلام عن أوضاع التخلّف والنزاعات والانقسامات العربية العربية؟ أين ذهب صراخ الثوريين عن اليمين الرجعيّ وأذناب الاستعمار؟ أين صراخ آخرين عن فظائع الاستبداد وتغييب الشعوب والاحتكام إلى الدبّابة؟ هل يكفي أسبوعان أو ثلاثة لخلق أوضاع جديدة من التضامن العربي وتجاوز الاختلالات الاجتماعية والسياسية والثقافية؟ أليست نتائج الحروب العسكرية محصّلة لظروف الجبهة الداخلية؟

ولكن من يجرؤ من هؤلاء على الجهر بما يرونه حقيقة بين ناس لا يستطيعون التعامل مع الحقائق، وقد هبّت عليهم نسائم البحر الفلسطيني مشبعة بعطر البنفسج وملوحة البحر وزعيق النوارس؟

قريباً ينتهي الكابوس الطويل.. ويعود اللاجئ من منفاه ليلتقي بقريبه الأسير في فلسطين المغصوبة.. ويكف الناظر في سماء طولكرم عن حسد الطيور المهاجرة نحو الغرب.

«هل أرى أمّي قريباً؟» تساءل رشدي في تلك القرية النائية جنوب السعودية.

وتمنّى أبو صالح لو كان فيها فتياً لا يَتكأ عليه جرحه القديم للتطوع مع الشباب الذين خرجوا إلى مراكز الجيش الأردني وتسلّموا بنادقهم.

أما أبو عايد، فاجتهد في نصب قامته التي أحنتها السنون، وجاء إلى بيت أبو صالح يسأل عن الصك الذي كتبه لمسعود قبيل التهجير في التنازل عن أراضيه، إذا لم تُكتَب له العودة، وكُتِبت لمسعود.

ولم يقتنع بأن مسعود مزقها منذ زمن طويل حتى أقسم له أبو صالح على كتاب الله أنه رأى أخاه يفعل ذلك أمامهم، وشهدت على ذلك أم أحمد.

ولم تخب أماني الناس في اندلاع الحرب في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧. وتبادلوا الأحضان.. وتجدّدت دعوات الغداء في المدن الضائعة شرق المتوسطّ. والتصق الناس بأجهزة المذياع يتنقلون بين الإذاعات المصرية والسورية والأردنية.. وبالطبع كان الصوت الأعلى للإذاعات المصرية.. وتناهوا عن الاستماع إلى «بروبوغندا» الإذاعة الإسرائيلية وإذاعة القسم العربي في هيئة

الإذاعة البريطانية الـ(بي بي سي) التي تدسّ السمّ في العسل وتضلل المستمعين وتعمل على تخذيل روحهم المعنوية!

وبدأت الطائرات الحربية الإسرائيلية تتساقط كالذباب بالعشرات، والمنشآت الإسرائيلية تحترق بفعل الغارات!! وصحّ قول القائل: ليست إسرائيل إلا نمراً من ورق! وصدحت الأغاني الوطنية بالتكبير ووعد النصر الأكيد القريب، فإلى جانب القصف الجويّ والبري كان القصف الإذاعي بالحروف السمينة!

وحين بدأت الأنباء تتوالى من مصادر مختلفة عن تقدّم القوات الإسرائيلية في سيناء، تطوّع من اكتشف مواهبه في التحليل العسكري الاستراتيجي من عامة الناس، بالتفسير المريح: استدراج إلى كمّاشة لا مخرج منها للعدوّ..

وفي طولكرم وسائر مدن الضفة الغربية وقراها تضاربت شهادات الناس فيما رأوا عن بُعد وفي اتجاهات مختلفة من أرتال الدبابات، فبينما أصرّ معظمهم على أنها دبابات عراقية أو أردنية، شهد آخرون على تردد بأنها.. إسرائيلية!

ثم بدأ الكلام في الإذاعات عن إعادة التموضع في خط الدفاع الثاني، وما خط الدفاع الثاني؟ لا أحد يعرف.. إلا المتشائمون وأدعياء الواقعية كالعادة. ولم يطل الوقت حتى عرف جملة الناس. وما لم يعرفوه بالشرح، عرفوه بالمعاينة.. سقطت الضفة الغربية والقدس والجولان وغزة وسيناء!!

صحّت توقعات الناس المسبقة بأن الحرب ستكون قصيرة وحاسمة. ولكن، لم يخطر لهم أنها ستنتهي بهزيمة عامة شاملة ساحقة مخزية! حرب الأيام الستة.. أو هي كما يصرّ الكثيرون: حرب الساعات الستة، يعنون أن الهزيمة قد وقعت منذ اليوم الأول، حين فاجأت الطائرات الحربية الإسرائيلية أسطول الطائرات المصرية في مجاثمها في صبيحة الخامس من حزيران، فدمرتها حيث كانت.

خليط من النحيب والخوف والشعور بالعار والضياع وكره الذات.. ثم سخرية هجائية سوداء.. وسقوط الأصنام وعبادة الأبطال الموهومين.. ثم اختلاف على التوصيف: هزيمة، نكسة.. كارثة.. خازوق!

ولكن لكل ذلك وقت آخر، أما الآن في طولكرم ومخيمها فثمة ارتدادات أخرى للزلزال المدمّر. فها هي سيارات الاحتلال تطوف شوارع المدينة وعند المخيم، تدعو الناس بمكبرات الصوت بالخروج من منازلهم إلى الشاحنات والحافلات إلى منفى جديد، شرق نهر الأردن، وإلا عرّضوا حياتهم للخطر.

خرج أبو صالح مهرولاً من بيته يصرخ في جماعة من الناس بدأوا في الخروج والتزاحم في أزقة المخيم، بأن يتوقفوا ويعودوا إلى منازلهم مهما تكن التهديدات والعواقب. فليس بالإمكان أسوأ مما كان. خطر الموت؟ إلامَ نظل نفر من الخطر، وقد ظهر الآن أنه يلاحقنا أنّى كنا. ألم نفرّ من قبل إلى هذا المخيم تحت وطأة السلاح؟ وها هو العدو قد لحق بنا هنا. أما العرض الذي تخشون عليه، فإن العرض في الأرض، فلنمت هنا، فهو خير من ذلّ لجوء آخر خبرنا مرارته. والعدو يعلم أنه لا يستطيع تفريغ المدن والقرى كلها مهما يكن التواطؤ الدولي معه. ولكنه يأمل أن يستجيب لتهديداته شطر من الناس على عجل، ثم يهون عليه التعامل مع الباقين. أما إذا أصرّ الناس بكثرتهم على البقاء في أرضهم، فإن العدو يكون كمن بلع منجلاً. فهو يريد الأرض بلا ناسها. فإن بقي الناس، فبقاؤهم جهاد ومرابطة.

قال كل هذه المعاني بلهجته المفعمة بالغضب والمرارة وحكمة الكوارث والدماء والعذابات التي كان شاهداً عليها ومشهوداً.

ثم قفز أمام الجمع وانطرح بجسمه على أرض الزقاق الضيق وصاح بأن من يريد المضيّ فعليه الآن أن يدوس على جسمه.

تقدمت أم عطية الشهيد وصاحت بلهجتها البدوية:

- قوم يا أبو صالح.. قوم يا جمل.. قوم يا جبل، ما يخطّيك إلا الرّدي.

ثم واجهت الناس:

- يا سامعين القول وحدوا الله.

تعالت الأصوات بالتهليل، واستأنفت:

- إذا فيه خطر على حدّ.. الخطر على هالسّبع..

وأشارت إلى أبو صالح وأكملت:

- حارب اليهود والإنكليز أيام البلاد وبقى صيته معروف عند القريب والبعيد.. إذا اسمه خفي عنكم ما بخفى على اليهود.. وهايه باقي زي التينة العالية. يالّلا.. اللي ودّه يرحل، الطريق قدّامه. واليوم يوم المراجل.. ورّونا زلوميتكم..

بدت أم عطية في تلك اللحظة أشبه بامرأة «بَرْزة» عظيمة، قادمة من كتاب أيام العرب القديمة، إذا هتفت في القوم أشعلت ناراً أو أطفأت أخرى.

وعاد القوم. والذين سبقوا بالخروج عاد معظمهم قبل وصول الجسر الذي هدمه القصف بين ضفتي الأردن، وقد خضعت حكومة العدوّ للضغوط الدولية بوقف التهجير.

خسرتُ حلماً جميلاً

خسرت لسع الزنابقْ

وكان ليلي طويلاً

على سياج الحدائق

محمود درويش

هنا على صدوركم باقون كالجدار

وفي حلوقكم كقطعة الزجاج، كالصبّار

وفي عيونكم زوبعة من نار.

توفيق زياد

صوتك الليلة سكين وجرح وضماد

ونعاس جاء في من صمت الضحايا.

أين أهلي؟

خرجوا من خيمة المنفى وعادوا مرةً أخرى سبايا

محمود درويش

▌"لن يتوقف الجدال عن أسباب الهزيمة.. وعند الكثيرين ستأتي الحكمة بأثر رجعي.. وسيتشفّى البعض بالزعماء المستبدين الذين ملؤوا الدنيا بالخطابات والوعود، بقدر ما ملأوها بالسجون والمشانق باسم المعركة القادمة، إذ لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

«أسد عليّ وفي الحروب نعامة» كما ردّدوا. كأن الهزيمة العظمى كانت هزيمة أولئك القادة وحدهم، وأنه كان على الأمة أن تدفع ذلك الثمن الباهظ لكي تكشف حقيقة الزعماء وتتحطم الأصنام. ولكن هؤلاء يذهبون، وتبقى الشعوب تعاني من آثار الهزيمة.

والمفارقة الكبيرة أن أكثر الناس يأساً وإحباطاً عقب الهزيمة، هم من أولئك الذين كانوا أكثرهم تفاؤلاً واحتفالاً بالحرب ووعودها. أما أولئك الذين كانوا أكثر واقعية وتحفظاً وعقلانية، فهم أقل من غيرهم يأساً واستسلاماً. فكما قاوموا أضاليل الدعاية السياسية قبل الحرب، قاوموا أضاليلها الجديدة بعد الهزيمة. نكسة!! إنما ينتكس الإنسان من حال الصحة إلى وعكة مؤقتة.. وأين كانت الصحة والعافية قبل الحرب؟

لم نحارب العدو الإسرائيلي وحده، وإنما كذلك دولاً عظمى معه: أمريكا وبريطانيا وفرنسا!! وما الجديد الذي نكتشفه الآن؟ ألم نملأ الدنيا صياحاً من قبل عن الإمبريالية وأن العدو الصهيوني وكيلها في المنطقة؟ وأين الكلام عما يقابلها: قوى التحرر العالمية!

وأكثر ضلالاً وتضليلاً من ذلك كله تحويل الهزيمة إلى نصر إذ يزعم الإعلام الرسمي بأن هدف العدوان الإسرائيلي كان القضاء على النظم الثورية، وقد باءت بالفشل. فهي ما تزال صامدة مقيمة فينا وعلينا على رغم أنف المعتدي. هنا تصل المهزلة إلى ذروتها، أو إلى قاعها السحيق: الردّ على الهزيمة هو التمسك بأسبابها.. أو بعض أسبابها على الأقل!!

الشيء الوحيد الذي بدأ ينتشل الناس من غيابة اليأس هو المقاومة الفلسطينية التي بدأت تخرج من قمقمها وتعد بالبديل والخلاص، حين لم يعد في وسع الأنظمة التي كانت تقيّد حركتها أن تمنع تمدّدها الآن.. ولو إلى حين!". ▌

من مذكرات علي الشيخ يونس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

حين ذهب أبو صالح ببصره إلى الطاولة التي يضع عليها صورته القديمة مع أصحابه ثوار الثلاثينيات، لم يجدها في مكانها.

- وين راحت؟

أجابت فتحية بأنها أخفتها، بل اقترحت التخلص منها، مع وجود جيش الاحتلال الآن.

صاح بها غاضباً أن تأتي بها من فورها وتعيدها إلى مكانها، ففعلت. ولكنها علّقت:

- يعني إذا ناسيين اسمك، انت بدّك تذكرهم؟

أجاب:

- مين قال بدّي إياهم ينسوا؟

ولم ينسوا كما خشيت أم صالح، وكما كان أبو صالح يرجو في سرّه!

بينما هرع صالح وعائشة ومحمود إلى غرفة أبيهم مذعورين، وقفت أم أحمد على باب الدار كالسنديانة في وجه جنود الاحتلال، وصاحت بهم دون وجل:

- انتو ما بتعتبوا الدار إلا على جثتي.. بدكم أبو صالح، أبو صالح هسّع بطلع إلكم.

بينما وقف الناس ينظرون، مشى أبو صالح بين الجنود وقد نصب قامته ورفع هامته، وكأن فتوّته الأولى قد عادت إليه في لحظة واحدة. وشيّعته أمه بالدعاء، وأعقبت عليها أم عطية:

- الله يقوّيك يا جمل.. الله يعليك يا جبل اللي ما تهزه الريح.

وإذ ارتدت أم أحمد، رأت فتحية تذرف دموعاً غزيرة، فنهرتها بقوة.

في مقر قيادة جيش الاحتلال في المدينة، جلس أبو صالح على كرسي أمام طاولة الضابط الذي تولّى المقابلة، ومضت هنيهة صمت والضابط يتفحّص أبو صالح بنظرة عميقة سابرة، قابلها أبو صالح بأقوى منها دون أن يرف له جفن. ثم بدا أن ملامح الضابط قد ارتخت، وعبث ببعض الأوراق أمامه، ثم قال بنبرة عادية وبالعربية المحكية التي يبدو أنه يتقنها إلا ما يصحبها من لكنته الخاصة:

- إحنا بس بدنا نتأكد.. يمكن يكون تشابه في الأسماء مش أكثر.

ردّ أبو صالح بنبرة جافة وباعتداد لافت:

- اللي وصل لاسمي ولبيتي، بالتأكيد بعرف مين أنا، وبعرف تمام إنه مش تشابه في الأسماء.

قال الضابط:

- يعني انت أبو صالح نفسه.. القديم.. تبع الإنكليز.

- بدمه ولحمه.

غمغم الضابط ونقر بقلمه على الطاولة، ومرت لحظات صمت أخرى قبل أن يستأنف:

- إحنا انتصرنا يا أبو صالح.

أجابه من فوره:

- وإحنا بعدنا موجودين.. وزدنا.

- لازم يكون اتضح لك يا أبو صالح إنه الكثرة وحدها ما بتعني شي.. الحرب أثبتت.

- الحرب ما انتهت. والزمن ما خلص.

- يعني شو ممكن يصير غير اللي صار؟

- لما يصير بتعرفه.

رجع الضابط بجسمه إلى الوراء، ووشت ملامحه بالاستغراب والإعجاب! ثم قال:

- أنا عسكري. وبحترم العسكري الشجاع.. حتى لو كان محارب قديم متقاعد.

ثم عاد بجسمه إلى الأمام وتقدّم برأسه نحو أبو صالح:

- بس مالنا في الماضي القديم. الماضي انتهى.. واللي انتهى ما بخوّف.

تمهّل لحظة قصيرة وتابع:

- عشان هيك ما بنحاسب عليه.

هنا تغيّر وجه أبو صالح إلى ملامح الضيق الشديد الممزوجة بالحيرة. وأدرك الإهانة المبطنة الخبيثة. ووقف الضابط:

- على أي حال، فرصة سعيدة يا أبو صالح.. على الأقل بالنسبة إلي.. مع السلامة.

وقف أبو صالح، وتباطأ في الخروج وهو يتفحّص الضابط بنظرة تنم عن التساؤل والاستفسار، كأنه يسأل: أهذا ما في الأمر؟

أدرك الضابط معنى النظرة، فقال مؤكداً:

- أيوه.. بس هيك. ما عاد إلنا حاجة فيك.. بتقدر ترجع الآن.. للمخيم!

وركّز النبرة على كلمة المخيم.

لم يعد أبو صالح إلى منزله بالوجه الذي خرج به. وإذ زغردت أم محمود، حماة ابنه صالح، لعودته السريعة، صاح بها على غير عادته:

- عليش بتزغرتي؟ إني طلعت براءة؟ براءة من إيش؟

ودخل من فوره إلى غرفته، وطلب من أهله أن يتركوه وحده. ثم انكبّ على طرف الطاولة يلهث، ويقبض على صدره حيث تقيم الشظية القديمة، ثم اصطدم بصره بتلك الصورة الباقية من أيام الثورة: هو في الوسط وإلى جانبيه حمد العربيات والعبد، أبو رشدي، ومصطفى السبعاوي وآخرون، وكلهم في ريعان الصبا، يحملون البنادق، ويرتدون حزام الرصاص. وتنبه، ربما لأول مرة، أن الصورة قد صارت شاحبة مع تطاول الزمن، وأن الوجوه فيها لم تعد واضحة كما كانت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

في مساء يوم من أواخر أيلول طُرِق باب الحوش، فخرج صالح، وكانت المفاجأة الغريبة غير المتوقعة.

رشدي يقف أمام الباب، وقبل أن يخرج صالح من صدمته، دخل رشدي وأغلق الباب وراءه، ثم عانق ابن خاله. وخرج أهل البيت، وشهقت أم أحمد، وأقبل رشدي عليها يقبِّل يدها ثم يحتضن خاله أبو صالح. لم يكن يحمل حقيبة السفر، إلا من صرّة مربوطة وضعها جانباً، وكانت ثيابه متّسخة بآثار التراب.

ما الذي حمله فجأة من السعودية وحطّه في المنزل دون خبر مسبق وبدون تصريح دخول إلى الأرض المحتلة من سلطات الاحتلال يقتضي أن يقدم خاله به طلباً، فإما أن يُرفَض وإما أن يستغرق خروجه وقتاً طويلاً؟!

عرفوا منه أن تسلل مشياً على الأقدام عبر مخاضة في نهر الأردن، بمساعدة دليل متمرس يعمل ويترزّق من هذا العمل على ما فيه من مخاطرة، وله خبرة في المسالك والطرق الآمنة. فالرقابة العسكرية على حدود النهر ليست محكمة صارمة حتى الآن. فالعدو منشغل بترتيب متطلبات إدارة الاحتلال لمناطق واسعة على جبهات ثلاث. وهي كثيرة وضخمة ومعقّدة. ويبدو أنه فوجئ بحجم انتصاره كما فوجئ العرب بحجم الهزيمة!

كما أن زهو النصر ونشوة القوة أورثاه قدراً من الطمأنينة. ولا بد أن يمرّ وقت قبل أن يُحكِم السيطرة تماماً على حدوده الجديدة! وفي هذه الأثناء تجرّأ كثيرون ممن وجدوا أنفسهم خارج الضفة بعد الاحتلال، على العبور كما عبر رشدي، قبل أن يعمل الاحتلال على إحصاء المقيمين داخل الضفة وقت الاحتلال، فيتعسر على أهل الضفة المقيمين في الخارج الدخول بطريقة رسمية إلا عبر عملية إدارية مضنية من تقديم طلبات التصاريح ولمّ الشمل.

فعلها رشدي إذن. وهو الآن بين أهله.

كان أول ما فعل في اليوم التالي البحث عن أم سالم المجنونة. ما زالت الوسادة المهترئة بين يديها. ولكنها قد تغيرت كثيراً في غيابه. فقد بدت عليها آثار الكبر والضعف. وكان منظرها شديد الرثاثة، ونظراتها هائمة في الفراغ. وإذ اقترب منها رشدي وناداها برفق، التفتت إليه بعينين فارغتين غائبتين. وبدا في أول الأمر أنها لم تميّزه. ولم يتعجّل عليها، فبقي مقرفصاً أمامها ينظر إليها، وهي تحملق به. وبعد هنيهة بدأت ملامحها في الحركة وجسمها بالاهتزاز رويداً، وبعد لحظات أخرى رأى دموعها تنزلق من عينيها، ثم تمد يدها نحوه، فأخذها وقبّلها، ثم أخذت تتحسس وجهه، ولم يملك هو أيضاً حبس دموعه!

أخبرت أم أحمد رشدي بعد ذلك، أن المسكينة قد تدهور حالها بعد غيابه. ولم تعد تستجيب لأحد، إلا أن يرمى لها الطعام. ومع ذلك نجحت أم أحمد بضع مرات في سحبها إلى البيت لتعتني بها بقدر الوسع، وكانت تستعين على ذلك بأن تريها صورة رشدي. ولكنها لا تتلبث طويلاً حتى تنفلت بسرعة عائدة إلى تيهها كالقطة السائبة.

ولكن ماذا عن أمّه خضرة؟ لقد انتظر كل هذه السنوات على أمل العودة فيجتمع الشمل مع أمّه المقيمة وراء الخط الأخضر في بلدة أم الفحم. وقد قامت الحرب ولم

تأتِ معها بالعودة. لكن سلاح العدو الذي فرّق بين فلسطينيي الداخل وفلسطينيي الضفة، قد جمع بينهما الآن في جحيم الاحتلال. فكيف الوصول إلى خضرة؟ وإذا كانت سلطات العدو لا تسمح لأهل الضفة بعبور الخط الأخضر حتى الآن، فإنها تسمح لأعداد من فلسطينيي الداخل بالعبور إلى الضفّة بتصاريح خاصة للبيع والشراء. فما الذي يمنع خضرة من المجيء للقاء أهلها بعد هذا الغياب القسري الطويل؟

أخبره خاله أبو صالح بأن التصاريح لا تُعطى لكل طالب. وذكّرته أم أحمد بزوجها الخامل قليل الحيلة. ومن يدري؟ لعله الآن قد أقعده الكبر والمرض. ومثله، على كل حال، لن يخفّ للقاء أهل زوجته ولن يهمه كثيراً ما تكابد من الشوق لولدها وأهلها. فالنذل يبقى نذلاً، وابن آوى لا يتحوّل إلى سبع.

ثم أخبره أبو صالح أن شاباً من فلسطينيي الداخل يتردد على بعض أقاربه في المخيم، ويتردد على دكانه. وقد تطوّع أن يتوصّل إلى خضرة وزوجها في أم الفحم بأخبار أهلها وأنهم ينتظرون على أحرّ من الجمر أن يجتمعوا بها أخيراً.

تلهف رشدي على لقاء ذلك الشاب.. واسمه محمد.

شعر كل منهما أنه وجد شقّه الضائع.. وانهال عليه رشدي بالأسئلة عن أحوال أهل البلاد الذين ظلوا منزرعين في وطنهم منذ النكبة.. لكأنه كان يسأل عن شطر يجهله من نفسه.. عن سيرة أخرى موازية له. تدفق الشاب بالكلام كأنه كان ينتظر تسعة عشر عاماً ليقص روايته ويكشف عالمه الذي بقي مجهولاً بقدر كبير لأهله في المنفى، حتى لابسه بعض الأوهام الظالمة. لا، لم يذوبوا ولم ينسوا ولم يتطبعوا بصورة جلادهم، ولم يتنازلوا عن شيء من هويتهم العربية الفلسطينية، ولم يتخاذلوا يوماً أمام قوى الطمس واليأس. فإن كان ثمة ما يمكن أن يميّزهم فهو ذهاب الخوف من العدو الغازي، ذلك أنهم عرفوه وجهاً لوجه، وأدركوا جوانب الهشاشة في وجوده الناشز، على الرغم من تفوقه بالدبابة. وإذا كان قد اشتهر أن المغلوب يقلد الغالب، فالوضع معكوس في حالتهم.. فالعدو هو الذي يستعير طعامهم، وأحياناً ثيابهم الشعبية وأغانيهم.

بلى، ترجموا أسماء شوارع المدن وأحيائها إلى العبرية، ولكن الأرض ما زالت تتكلم بالعربية. لن تجد في أدبهم وأغانيهم رموز الأرض القديمة كما تجدها عند أبناء البلد: الزيتون والزعتر والسنديان والجمّيز والسلاسل الحجرية ودخان الطوابين، ورائحة خبزها.. لن تجد أغانيها وأزجالها الشعبية التي تستعصي على الترجمة وعلى الاندثار. شواهدهم في الفضاء المدني المستعار والمستعمرات والحياة العسكرية والمنشآت المدنية والعلاقات الاجتماعية اليومية والأزمات الوجودية.. وكل ذلك مستعار من المدن الغربية البعيدة التي جاؤوا منها.

نحن في حِلٍّ من التذكار، فالكرمل فينا

وعلى أهدابنا عشب الجليلِ

لا تقولي ليتنا نركض كالنهر إليها، لا تقولي

نحن في لحم بلادي، وهي فينا

لم نكُنْ قبل حزيران كأفراخ الحمامْ

ولذا لم يتفتت حبنا بين السلاسل

نحن يا أختاه من عشرين عام

نحن لا نكتب أشعاراً ولكنا نقاتلْ.

محمود درويش

هم على نحو ما يعيشون في دولة لهم تحاول أن تشيّد وطناً.. أما نحن فوطن وأرض خالدة قديمة مغتربة في دولة ليست لنا. أرضنا تنتج أساطيرها وحكاياها وأهازيجها من عهد كنعان، بينما تحاول أساطيرهم أن تنتج وطناً! لا أحد منا يتعرف بمكان آخر جاء منه، أما هم فلا ينتسبون إلى دولتهم إلا بقدر ما ينتسبون إلى البلاد التي قدموا منها. هم يبحثون عن قطعة فخار قديمة يمكن أن تتبئ عنهم، أما نحن فالأرض كلها تتبئ عنا.

ومضى الشاب في حديث متصل أكبر من مستواه التعليمي ومن عمره. لا بد أن يكون على صلة بالنشاط السياسي العربي الفلسطيني. وما لم يتعلمه في المدارس تعلّمه من مصادر الثقافة السياسية والنضال المدني وحكايات الآباء.. ومن الكتب المجلات وقصاصات الصحف العربية التي كانوا يتقصونها ويتناقلونها ويمتصونها كمن يمتصّ رحيق الحياة. وحين قامت الحرب دبّت فيهم روح جديدة.. واسترجع الشيوخ بعض شبابهم. وحين جاءت الأخبار بأن الجيش السوري وصل سهل الحولة ويقترب من الناصرة، سهروا على السطوح يعدّون أنفسهم لعالم جديد، هو عين عالمهم القديم! وينتظرون القادم الذي لم يصل أبداً!

ماذا جرى للفارس الهمام.

انخلع القلب وولّى هارباً بلا زمامْ

وانكسرت قوادم الأحلامْ

صلاح عبدالصبور

ولكن قلوبهم لم تنخلع وإن نزفت كثيراً. والذي انحسر هو الأوهام لا الأحلام، والذي احترق هو الغصون الجافة الميتة أصلاً.

لبث رشدي منذهلاً من كلام الشاب وأفكاره ومشاعره. وقد خفف عنه ذلك بعضاً من أوجاع الهزيمة، وأمدّه بعزيمة جديدة لمواصلة الأمل واحتضان الحلم.

ثم ذكر له أمه في بلدة أم الفحم.

حدّق فيه الشاب ورأى وهج الشوق والحنين في عينيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

جلس رشدي إلى جانب محمد في سيارة البك أب التي يملكها. وهز محمد ورقة التصريح بيده وقال:

- اتذكر.. اسمك حسن محمود حسني من الطيبة. مرافق إلي في نفس التصريح.. جيت معاي الصبح من هناك وراجع معي حسب الأصول.

ولكن ماذا لو سأل جنود المعابر عن بطاقة رشدي الشخصية وقارنوا بالاسم المكتوب على التصريح؟

طمأنه محمد بأنهم لن يسألوا. فهو ما يزال يعبر قدوماً وعودة منذ شهر، ولم ينظر أحد في غير التصريح. وهم ما يزالون في سكرة النصر، فلا يخطر لهم أن أحداً يتجرّأ على المغامرة والمخالفة. ولكن، على رشدي أن يحافظ على رباطة جأشه ويبدو في مظهر طبيعي.

أكد له رشدي أنه ليس خائفاً على نفسه، فلديه هدف يستحق أن يخاطر من أجله. ولكنه يخشى أن يورّط محمد معه.

ردّ محمد:

- هدفي هدفك يا أخ رشدي.

عند المعبر، نظر الجندي في التصريح، ثم في الراكبين.. وقرأ:

- مخمد الطيبي؟

هزّ محمد رأسه بلا اهتمام، ولكنه أحب أن يناكف الجندي بالتصحيح على نطقه:

- محمد.. محمد الطيبي.

وحقق حرف الحاء على نحو خاص.

نظر الجندي إلى رشدي، وقال:

- خسن مخمود خسني!

شجعته ردة فعل محمد على أن يحذو حذوه، فقال مبتسماً:

- حسن محمود حسني. نعم.

أعاد الجندي لهم التصريح، وأشار بيده أن يمضوا في طريقهم.

بينما كانت السيارة تقطع الطريق بين السهول، بدا رشدي هائماً غائباً عن نفسه، ليحضر في الأرض التي شهدها في طفولته، ثم حُرِم منها وبدت كالمستحيل، وإذ غابت عن النظر بقيت حاضرة تكبر في الوجدان والمَخيلة والضمير والأشعار.

لكأنه كان في غمرة من أحوال الكشف والتوحّد الصوفي.. تحدوها الأهازيج التي سمعها في طفولته قبل الرحيل القسري، وثغاء الحملان، ونايات الرعاة وأغاني الحصّادين وتنادي الفلاحين على الشاي.

لحظ ذلك محمد، فتركه على حاله، ولم يحب أن يعترض سيل أفكاره وتأملاته.

وكان رشدي، كلما توغّلت السيارة نحو مقصده، يزداد تعجلاً ويزداد قلبه خفقاً. أخيراً أمّه.. على مرمى ساعة أو أقل.. كيف سيكون مشهد اللقاء المفاجئ؟ عندئذٍ

خالطه بعض الخوف عليها من صدمة المفاجأة. ولكن، هل تميّزه فور أن تراه؟

وإذ قدّر محمد ما يمكن أن يجول بخاطره، ربت على ساعده:

- لا تشغل قلبك بلحظة اللقاء.. اترك الموجة تتصرّف لحالها، فيك وفي أمك.

ولكن القول أسهل من الفعل.

توقف محمد بالسيارة على بُعد أمتار من باب البيت بعد أن دلّهما الناس عليه. ترجّل رشدي وصاحبه.. وبقي رشدي لحظات متسمرًّا في مكانه ينظر إلى باب البيت الحديدي. ضرب محمد على ذراعه. فمشى رشدي، ثم توقف من جديد والتفت إلى محمد الذي بقي في مكانه إلى جانب السيارة.

قال محمد:

- توكل على الله.. أنا برجع لك في الوقت المناسب.

أخيراً وصل رشدي إلى الباب وطرقه بعد تردد.

وأطلت أمّه قادمة من أرض أحلامه وأشواقه وأحزانه. الوجه الوديع القديم، والعينان الواسعتان الغائمتان.. وخطوط السنين المثقلة بالهموم.. والشيب الذي يظهر في طرف شعرها الظاهر من خرقة الرأس المطرزة. وقفت تحدّق في القادم الغريب بنظرة مفعمة بالحيرة.. ألا يكفي نداء الدم ليدلّه عليه؟ أما هو فقد انعقد لسانه لبضع لحظات، قبل أن يستدعي من أعماق روحه ذلك النداء الخالد: «يمّه» مصحوباً بدموعه الصامتة. تغيّر وجهها، ثم جاء صوتها مبحوحاً مشروخاً، كأنه يأتي من جب سحيق:

- رشدي؟

خذلتها ساقاها، فتلقاها رشدي بأحضانه، فشدّت ذراعيها حول عنقه تقبّله دون توقف، وتردد بإيقاع مكرور:

- يمّه يا حبيبي.. يمّه يا حبيبي.

لبثت على هذا وقتاً، كأنها تريد أن تفيض بكلّ ما انحبس في وجدانها تلك السنين الطويلة التي حُرِمت منها ومن ندائه.

ثم سمع صوت زوجها جابر وقد تحامل على ضعفه وخرج يستطلع.

- شو فيه؟ شو فيه؟

كان من الواضح أن بصره غدا ضعيفاً، وبدا حاني الظهر. بعد أن سكنت عاصفة المفاجأة الرائعة، جلس رشدي مع أمه التي ظلت تحيطه بذراعها وتعاود تقبيله دون أن تتوقف دموعها، بينما جلس جابر في ركن الغرفة بعيداً عنهما يقلب عينيه في الغمامة التي تتغشاهما. وإذ رأى رشدي ضعفه وتيه نظراته، لم يشعر نحوه إلا بالإشفاق، ونسي ما شهد من قسوته عليه وعلى أمّه. فما لا يقهره الرجال، تقهره عوادي الأيام!

عندما عاد الشاب النبيل محمد، فاجأ رشدي بتصريح دخول إلى الضفة المحتلة باسم خضرة صالح الشيخ يونس.

وكان لقاء الأسرة بخضرة في مخيم طولكرم عاصفة أخرى من العواطف والبكاء، وعلى الذين فرّقتهم نار النكبة قبل تسعة عشر عاماً، وجمعتهم من جديد رمضاء

«النكسة»، أن يتبادلوا قصصهم كي تلتئم الصورة الممزقة.

أكثر ما أوجع الأسرة من حديث خضرة، أنها لبثت سنين تحسب أن أخاها حسن مع أهله في أرض اللجوء، حتى وصلتها رسالة من عليّ أول ذهابه إلى أمريكا. عندئذٍ فقط عرفت أن حسن عندهم في الداخل الفلسطيني، لا في المنفى، وإن كان تحت الأرض لا فوقها. بكته طويلاً حين كان الآخرون في الخارج قد توقفوا عن البكاء. ثم صارت تخرج إلى حيث تحملها قدماها في البرّ، وتجيل بصرها في السهول والجبال، تتساءل: ترى أين يقيم؟ هنا أم هناك؟ تحت تلك الشجرة أم إلى جانب تلك الصخرة، أم على رأس تلك التلة.. ثم تحس روحه ترفرف حولها مع نسمة الهواء.

كانت تتحدث بينما كانت دموع أم أحمد تسيل بغزارة. طوقتها خضرة بذراعها وهزّتها مواسية:

- مات بعزّة يمّه.. بعد اللي شفناه ما بنقول غير هيك.. الزلام بتعرف كيف تعيش وكيف تموت.. العبد أبو رشدي.. حسن أخوي. صحيح القلب محروق.. بس والله لو رجعوا وقالوا لي كيف نموت، لأقلهم زي ما متّوا.. هذا بس اللي بعزّينا فيهم..

ترك كلامها هذا في قلب رشدي أثراً عميقاً، وبقي يتردد في خاطره.

لم تنقض إلا بضعة أيام على ذلك اللقاء مع خضرة، حتى طاف الخبر في المخيم ووصل إلى رشدي، ماتت أم سالم المجنونة!

وجدوها عند رجم حجارة على طرف المخيم. والغريب أنهم لم يجدوا الوسادة معها. هل جاءتها صحوة العقل وكُشِف عنها الغطاء قبيل انطفاء الحياة، فأدركت أن تلك الوسادة ليست سالم؟ لن يعلم أحد أبداً. ولكن انتهاء حياة أم سالم، لا يعني نهاية قصتها التي ستصبح مُلْكاً للمخيلة، تعيد تشييدها وتضيف إليها عاماً بعد عام.

وإذ رأت أم أحمد مدى حزن رشدي واسته قائلةً:

- الله ريّحها يمّه..

لم يملك إلا أن يهز رأسه بالقبول. نعم، أخيراً ارتاحت أم سالم من بؤس بدأ قبل تسعة عشر عاماً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

كانت أخبار العمليات الفدائية تتوالى، فتوقد شعلة الأمل الوحيدة في ليل الهزيمة. وكل ذلك زاد من شراسة قوات الاحتلال والتضييق على الناس وإذلالهم.

طوقت المخيم، ونادت بمكبرات الصوت أن يخرج كل من كان بين الثالثة عشرة والأربعين إلى الشارعين اللذين يحاذيان المخيم من جهتيه الشرقية والغربية.

جعلوهم يجلسون على ركبهم ويحنون رؤوسهم، في خط طويل. ووقف الجنود وراءهم يرطنون بالعبرية فيما بينهم، ويتحولون إلى العربية لإطلاق الشتائم. ولم يكونوا على عجلة من أمرهم. فالهدف هو التعذيب والإذلال والردع. وإذ مرت ساعتان على هذه الحال، رجع الصبي الذي كان إلى جانب رشدي بجسمه وقد غلبه التعب. فدقّه جندي بكعب بندقيته بقسوة بالغة. وصاح الصبي متأوهاً..

التفت رشدي وصاح بالجندي.

- ولد صغير.

جاءه الجواب:

- اخرس.

وتلا ذلك أن ركله الجندي بقدمه ركلات عدّة.

بعد أن عاد رشدي إلى بيت أهله. وقف أمام الطاولة، ثم سحب درجها واستخرج كتاب قبوله في إحدى الجامعات الباكستانية لدراسة الهندسة. تأمل في الكتاب، ثم جمعه بقبضته وألقى به في سلّة المهملات.

آن له أن يزور أباه الذي لم يدركه، وخاله حسن، و.. نفسه!

أخذ يمشي بسرعة أشبه بالهرولة نحو جبل مجاور، إلى أن وصل المغارة المقصودة.

استخرج بندقية أبيه وخاله وأخذ يتحسسها كعادته. ثم تلفت إلى بندقية كلاشينكوف سكنت حديثاً إلى جانب أختها القديمة. ما لم يخبر به رشدي أحداً، أنه لم يقدم من السعودية إلى الضفة الغربية متسللاً عبر النهر، حتى قضى شهرين أولاً في معسكر على أطراف دمشق، حيث يتدرب الفدائيون، وأنه انضم إلى خلية فدائية سرية توصلت له بالسلاح الجديد، في انتظار الأوامر للعملية الأولى التي سيشارك فيها. ولكنه أخذ على نفسه أن تكون طلقته الأولى بسلاح أبيه وخاله، قبل أن يتحوّل إلى السلاح الجديد الأكثر تطوراً وفاعلية.

لم يكن وحده في المغارة، كان هناك خاله حسن الذي أدركه صغيراً فيستطيع أن يميّزه، وكان هناك أبوه الذي يراه الآن لأول مرّة. وكان كلاهما ينظر إليه بصمت مع طيف ابتسامة. وقف أخيراً في عتمة المغارة وبيديه البندقية القديمة. ومشى خطوتين إلى الأمام، وأرسل بصره إلى باب المغارة الذي ينفتح على ضوء النهار.

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

تنويه

الشعر الوارد في سياقات السرد على لسان شخصية صلاح،
من شعر المؤلف

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات

إهداء

القيامة الآن!

(الطريق إلى الخيمة)

1

١٩٤٨

2

3

4

زمن مسعود وعودة حسن

(النجوم لا تزور الخيام)

1

2

3

4

5

6

7

8

أحزان الثائر القديم

(لقاء موجع)

1

١٩٥١

2

أين هذا من برتقال البلاد؟

(نداء الأرض القاتل!)

1

2

3

على باب وكالة الغوث

(عودة الثائر إلى صباه)

1

2

الطريق إلى الكويت

(عندما توقف الزمن في الصحراء الغادرة)

1

2

3

الصغار يرثون الذاكرة والحلم

(الماضي هو الآن)

1

ربيع عام ١٩٥٦

الفراشة تخرج من شرنقتها

(وعود جديدة لأجنحة متكسرة)

1

2

3

رسائل الشتات

(أحزان رشدي المكتومة)

1

١٩٦٠

2

العـــرس

(رحلة المخيم إلى جبل عمان)

1

2

3

4

أبناء مخيم..

وأبناء «وطنية»!

(عواصف وعواطف)

1

١٩٦٢

2

انظر بغضب

(عطية.. بطل بلا قضية)

1

2

3

4

الدكتور علي الشيخ يونس

(عالِم بين عالَمَيْن)

1

شتاء ١٩٦٦

2

أثر الكلمة

(بطل من أجل قضية)

1

غربــة

(خلاء موحش.. مخيّلة عامرة)

1

أيلول ١٩٦٦
غوايات الثروة
(مسعود الجديد، ولطيفة القديمة)
1
١٩٦٧
(الإرث والوريث)
1
2
3
4
5
تنويه